

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid جامعة أبي بكر بلقايد

Tlemcen Algérie تلمسان الجزائر

جامعة تلمسان

كلية الآداب و اللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي

من القرن السادس الهجري إلى القرن السابع الهجري

- مقاربة تاريخية وصفية تحليلية -

إعداد الطالب: طه شقرون

إشراف الأستاذ الدّكتور: محمد مرتاض

لجنة المناقشة:

أ.د/ العرابي لخضر	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيساً
أ.د/ محمد مرتاض	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً و مقرّراً
د/ عبد الرحمن بغداد	أستاذ محاضر(أ)	المركز الجامعي مغنية	عضواً مناقشاً
د/ مراد قايد سليمان	أستاذ محاضر(أ)	المدرسة متعددة التقنيات.وهران	عضواً مناقشاً
د/ وهيبة بن حدو	أستاذة محاضرة(أ)	جامعة تلمسان	عضواً مناقشاً
د/ أحمد دوّاح	أستاذ محاضر(أ)	المركز الجامعي مغنية	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية: 1438هـ- 1439هـ/2017م- 2018م


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم،07].

لم يكن هذا البحث ليتمّ لولا مشيئة الله عزّ وجلّ فله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فقد آتاني من فضله ورزقني القوة والعزيمة والصبر على إتمام هذا العمل وأمدني يد العون وذلّل لي الصعوبات وأنار لي الظلمات وفتح لي أبواب الخيرات، فله الفضل والنعمة وله الثناء الحسن.

ثمّ أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي الفاضل المشرف على هذا البحث الأستاذ الدكتور"محمد مرتاض" الذي طوّقني بحلمه وعلمه ورعايته، فلم أخط خطوة في هذا العمل إلا كان سندي وموجهي فيها، فأدع الله مخلصا أن يبارك في عمره وأن يجازيه خير ما جزى معلما ومربيا عن طلابه، ويجعله ذخراً لخدمة لغة القرآن الكريم.

والشكر موصول إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على كرمهم قبول مناقشة هذا البحث وتصويبه، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

الإهداء

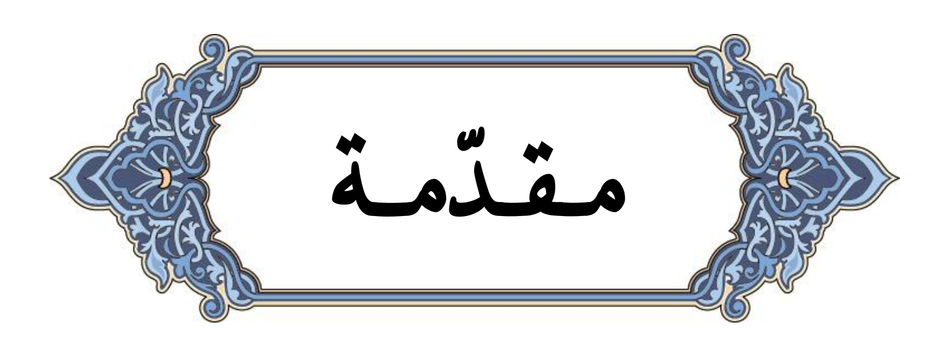
إلى الوالدين الكريمين" حفظهما الله ورزقني برّهما"

إلى إخوتي الأعزّاء..

إلى كلّ من أعانني ولو بكلمة طيّبة...

أهدي ثمرة هذا الجُهد راجياً المولى عزّ وجلّ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

طــــه



مقدّمة

لقد عرفت الحركة الشعرية ببلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين نشاطا كبيرا شمل مختلف الأغراض الشعرية رافقته غزارة في الإنتاج على الرغم من ضياع عديد الدواوين، وهذا يعود إلى حس الشعراء المرهف الذي كان يتفاعل مع مختلف الظروف المحيطة بهم كما شهدت الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية تطوّراً كبيراً نتيجة للوضع الأمني والاستقرار السياسي في كثير من الأحيان، وكذا تشجيع الحكام للمفكرين والأدباء، وهذا ما ألقى بظلاله على الجانب الحضاري، فجاء التّراث الأدبي للمغرب الإسلامي حافلا بمظاهر حضارية كانت شاهدة على ما بلغته أقطار المغرب الإسلامي من رقي وازدهار حضاري في عديد الميادين، و كان الأدب - بخاصة الشعر منه - شاهدا ومسجلا لتلك المظاهر الحضارية مادية كانت أو معنوية.

وركحا على ما أثبتناه، فقد جاء موضوع هذا البحث موسوما: "المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القرن السابع الهجري" سعيا للكشف عن المظاهر الحضارية كما تجلّت في شعر المغرب الإسلامي إبّان هذه الفترة؛ وقد كان ميولي للأدب بعامة والشعر بخاصة دافعا لاختيار هذا الموضوع، إضافة إلى جِدّته لما له من أهمية في دراسة شعر المغرب الإسلامي في الفترة المذكورة، فهو من وجهة يشتمل على مدخرات نفيسة من الأشعار التي تمتّ بصلة إلى الجانب الحضاريّ؛ والتي كان لابد من إظهارها والوقوف على موضوعاتها وجمالية نظمها وإجلاء مظاهر التحضر من موضوعاتها، وهو من وجهة أخرى موضوع تدور أحداثه في القرنين السادس والسابع الهجريين؛لأنّ هذه الفترة تُعدّبيئة صالحة للدراسة والبحث، لما عرف عنها من بؤرة للنشاط الثقافي والحضاري في هذه البلاد ونقلة نوعية لحالة الاستقرار السياسي -في كثير من الأحيان- الذي انعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية فيها، كما أنّ هذا الموضوع يهدف إلى رفع شأن

شعراء المغرب الإسلامي بتبيان قدرهم ومكانتهم الأدبية والاجتماعية من خلال التطرّق لتراثهم الأدبي.

إنّ طرح هذا الموضوع سيُعالج من خلال التساؤلات الآتية:

- ما العلاقة بين الشعر والحضارة في تلك الفترة؟

- مامدى مواكبة الشاعر للمظاهر الحضارية في عصره، وقدرته على تصويرها والتعبير عنها؟

- هل هذا الشعر وثيقة حضارية لتلك المرحلة الزمنية؟

- ما هي أهم جوانب التحوّل الذي عرفته الحياة الاجتماعية والفكرية والحضاريةلتلك البيئة؟

- وأخيرا ما مدى تأثّر هذا الأدب بهذه المظاهر المذكورة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات رسمنا خطة مكوّنة من مقدّمة ومدخل وثلاثة فصول ثمّ خاتمة.

ففي المدخل تطرّقنا إلى إبراز مفهوم الحضارة من خلال تعريفها لغة واصطلاحا، وذِكر بعض الآراء المتباينة والمتقاربة حول مفهومها حيث كان إيجاد تعريف دقيق لها، جامع مانع من المهام الصعبة المنال، لننتقل بعد ذلك إلى توضيح بعض الفروق بينها وبين المدنية والثقافة، ثمّ إنّ الحديث عن بلاد المغرب الإسلامي استلزم إعطاء فكرة تاريخية عنها في تلك الحقبة من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية والثّقافية حتى نستطيع معرفة واقع البيئة التي عاش فيها شعراء هذه الفترة لأنّ ذلك يفيد في معرفة المجتمع وأنماط تفكيره ونتاجه الحضاري.

ووقفنا في الفصل الأوّل على مضامين شعر المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث عرضنا فيه للأغراض الشعرية التي تركها شعراء المغرب الإسلامي

يومئذ، والتي شهدت رواجا في تلك الحقبة ومثّلنا لها بأبيات شعرية وشرحناها بُغية إبراز معانيها واستكشاف مدى تطوّرها واستخلاص سماتها في تلك الحقبة.

بينما عرضنا في الفصل الثاني للمظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري الذي عُدّ من أخصب فترات العصور الوسطى حضارة وازدهارا في شتى مناحي الحياة بدءا بالجانب العمراني ممثلا في تشييد المدن والحصون والقصور إلى الجانب الاجتماعي وما عرفته مجتمعات هذه الحقبة من عادات وتقاليد بَدَتْ جلية في مجالس الأنس والتسلية إلى الجانب الثقافي العلمي الذي بدا الاهتمام بالعلم ومظاهره دالا عليه.

وأمّا الفصل الثالث فتحدّثنا فيه عن المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري في جوانب مختلفة من حياتهم بدءا بالجانب الديني ممثلا في شعر المولديات وارتباطه بظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي إلى الجانب العسكري، وما تضمّنه من وصف الحرب ومعدّاتها إلى الجانب العمراني مجسدا في تشييد الحمّامات والمساجد وختمناه بالجانب الاجتماعي عن طريق عرض بعض العادات والتقاليد التي سجّلها شعراء هذه الحقبة.

ثمّ ختمنا البحث بخلاصة لأهم النتائج التي حاولنا الوصول إليها، وذيّلنا ذلك كلّه بملاحق تضمّنت فهارس للآيات القرآنية والأحاديث النّبوية وكذا للأعلام والأماكن والأشعار الواردة في هذه الرسالة و فهرس عام للمواضيع. أمّا المنهج المُوظف في هذا البحث فهو المنهج الوصفي القائم على التحليل لاستنباط المظاهر الحضارية ومعرفة ما إن كان الشعر مواكبا لها في عصره، كما استعنا بالمنهج التاريخي عند العودة إلى أحداث تاريخية معينة.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع المهمّة كنفح الطيب للمقّري، وزاد المسافر ومحيا الأدب السافر للتجيبي، والذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وكتاب الحضارة

الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين لحسن علي حسن، وكتاب الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي لمحمد مرتاض، إلى غير ذلك من المؤلفات، كما نُنوّه بما يصدره مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي بجامعة تلمسان من بحوث ودراسات، وبما تحتويه مكتبته الزاخرة بأنواع المصنّفات والدّواوين التي دعّمت الأدب العربي وأشاعت مناقبه، فكان خير معين لنا على إنجاز الرسالة.

ولكلّ دراسة علمية صعوبات وعقبات، فكان أهمّ ما واجهنا منها: الإلمام بمظاهر الحضارة كلّها في القرنين السادس والسابع الهجريين، فهي مظاهر متعددة في مجالات مختلفة يصعب أن تضمّها جنبات دراسة كهذه، كما أنّ الدراسات المتخصصة في هذا النّوع قليلة جدا إن لم تكن شِبه منعدمة، ولم تمس بعض جوانبها إلاّ عبر مقالات مقتضبة في دوّريات أو مواقع إلكترونية، بالإضافة إلى عدم ضبط أغلب الآثار الشعرية بالشّكل، وهو ما صعّب الغوص في معانيها، وهذا يدلّ على أنّ تراث المغرب الإسلامي بحاجة إلى خدمة كبيرة واهتمام بالغ وبذل جهود عظيمة لإبرازه وإخراجه، ما بين تحقيق لمخطوطاته وجمع لمادته وتحليل لها.

وفي الختام أتوجه بوافر الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد مرتاض لما أحاطني به من رعاية واهتمام، فأرشد ونصح وصوّب فجزاه الله عني خير الجزاء، كما لا يفوتنا أن نشكر لجنة المناقشة الكريمة لتجشّمهم عناء قراءة هذا البحث وتصويبه.

والله نسأل التوفيق والسداد، فهو المنعم وهو المعين وهو الهادي إلى الصراط المستقيم فنعم المولى ونعم النصير.

تلمسان في:02 رجب 1439هـ.

19 مارس 2018م.

الطالب: طه شقرون



المدخل:

لمحة عن الحضارة وتاريخ المغرب الإسلامي

أوّلا: مفهوم الحضارة

ثانيا: حال بلاد المغرب الإسلامي في القرنين

إنّ دلالة الحضارة عرفت التطوّر والتغيير، فاختلف معناها من مدرسة إلى أخرى ومن فكر إلى أخر، لذا ارتأينا قبل الخوض في تفاصيل موضوعنا أن نحدد ولو بشكل موجز تعريفا لها وما الذي تعنيه هذه الكلمة حتى نكون على بيّنة من مفهومها وعلى تصوّر عام لها.

أ- مفهوم الحضارة:

1- لغة: إذا راجعنا كلمة الحضارة في معاجم اللّغة وجدناها تعني الإقامة في المدينة والسكن في الأمصار وبناء الدّيار والعمران والتحضر في السلوك وكلّ أسباب المدنية، ففي"لسان العرب" نجد أنّ كلمة الحضارة مشتقة من: «الحضور نقيض المغيب والغيبة، حضر يحضر حضورا وحضارة...، والحضر: خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي...، والحضارة: الإقامة في الحضر...، والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميّت بذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون بها قرار».[1]وفي المعجم "الوسيط": «... والحضَارة الإقامة في الحضر»، قال "**القطامي**":

فَمَنْ تَكُـنْ الحَضَـارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيُّ رِجَــالِ بَـــــادِيةٍ تَرَانَا

وهي: ضدّ البداوة وهي مرحلةسامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر. [2]

فالحضارة في عرف اللغة كما رأينا ترتبط بالحضر، والعمران، أي أنّ المصطلح من ناحية اللغة العربية ذاتها يحمل المعنى الاجتماعي، وذلك عند اعتبار الحضارة علامة على الحضور والإقامة والاستقرار، وهذه كلّها تحمل معاني اجتماعية، فإذا سكن النّاس واستقروا نشأت بينهم صلات اجتماعية أكثر، وارتبطت مصالحهم، ونشأت بينهم سبل

1- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م، ج4، ص:196-197.
2- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ-2004م، مادة (ح ض ر) ص:181.

التعاون، واتجهوا إلى بناء المدن والإبداع والانتظام والتنظيم، فالحضارة في جذرها اللغوي تعنىَ وتُركز على الجانب الاجتماعي، وكأنّ اللّغة تشير إلى أنّ الحضارة مفهوم اجتماعي منذ نشأته، كما أنّها لا تكون إلاّ حيث توجد علاقات اجتماعية متبادلة بين النّاس تظهر فيها معاني التعاون والتنظيم والانتظام في إطار مكاني محدد هو المدينة، ولعلّ هذا فيه إشارة لاهتمام النبيّ -صلى الله عليه وسلم- بتسمية (يثرب) باسم (المدينة)، بما يتضمّنه لفظ المدينة من قيم اجتماعية وحضارية بعيدة الأثر في النفس الإنسانية[1].

2- اصطلاحا: لقد اختلف العلماء والمفكرون في تحديد مفهوم الحضارة، ولم يكن البعد التاريخي وحده هو السبب في اختلافهم، بل كان لتباين تصوّراتهم الخاصة أو عقائدهم أو خلفياتهم الثقافية أو حتى جنسهم أو بيئتهم الأثر الواضح في تحديد مفهومها، وقد حدد "حسن جبر " أربعة اتجاهات لمعنى الحضارة، هي:

الاتجاه الأول: يشير فيه إلى أنّ أصحابه اهتموا بثمرة الحضارة التي هي غاية النشاط البشري[2]، ومنهم " حسين مؤنس" الذي أشار إلى أنّ الحضارة في مفهومها العام- هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية[3].

الاتجاه الثاني: ويشير فيه إلى أنّ أصحابه اهتموا بالجانب الروحي للحضارة في تعريفاتهم مثل "أبو الأعلى المودودي" الذي يرى أنّ النّاس يظنّون حضارة أمّة من الأمم عبارة عن علومها وآدابها وفنونها الجميلة و...، ولكن الحقيقة أنّه ليست كل هذه الأمور بالحضارة، وإنّما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها وإذا صلح هذا فلا يجوز أن نحدد وزن الحضارة وقدرها وقيمتها

1- ينظر في مفهوم الحضارة: د. بدران بن الحسن، مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، الخميس، ذو القعدة 1424/الموافق 25 ديسمبر 2003م،ص:03.

2- ينظر أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها: حسن جبر، دار الكتاب الحديث، الجزائر، ط2، 1999، ص09.

3- ينظر الحضارة : حسين مؤنس، عالم المعرفة، العدد الأول، الكويت، ط2 ،1398هـ/1978م، ص:13.

على أساس ما لها من هذه الصوّر الظاهرة، وإنّما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسّس أصولها[1].

الاتجاه الثالث: يرى فيه أنّ النُّظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية لها آثار كبيرة في اجتماع الناس وتنظيم حياتهم وتقدم أنماط هذه الحياة، فهو يرى:"..الحضارة من خلال هذه النظم"[2]، ومن الذين يقولون إنّ الحضارة من خلال هذه النظم "عبد العزيز الأهل" الذي يرى أنّ المعنى القريب الذي ترمي إليه كلمة حضارة هو غاية النفع والسعادة الناتجين سريعا عن اتباع قوم من الأقوام أدقّ نظام وأرقاه من نظم الحياة[3]، وسار في هذا الاتجاه "ديورانت"(Durant) الذي يرى أنّ الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثّقافي وهي تتألف من الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخُلقية وتطوير العلوم والفنون وهي تولد وتنمو بعيدا عن الاضطراب والقلق وتزدهر في جو من الأمن والاستقرار[4].

الاتجاه الرابع: أصحابه يهتمون بالتدافع أو التفاعل أو القدرة على قبول التحديات والتغلب عليها، ويرون الحضارة في ظهورها وتقدمها وفي كيفية مواجهة الإنسان للتحديات وأسلوب تعامله مع المشكلات التي تواجهه وتعترض تقدّمه أو يفكر فيها لإشباع حاجاته[5]،فهذا الاتجاه يرى أنّها" ثمرة تحدي الإنسان للبيئة ونوع استجابته لها"[6]، كما نجد"مالك بن نبي"

1- ينظر الحضارة الإسلامية - أسسها ومبادئها-: أبو الأعلى المودودي، تر:محمد عاصم الحداد، تقديم : محمد عبد الحكيم خيال، دار الخلافة ، د.ط، ص:06.

2- أسس الحضارة الإسلامية ومعالمها :حسن جبر، ص:16.

3- ينظر المرجع نفسه، ص: 17، عن الحضارة الإسلامية :عبد العزيز الأهل، ص:10.

4- ينظر قصة الحضارة: وول ديورانت،(William James Durant) تر: محمد بدران،لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1967م، ج1، ص:14.

5- ينظر أسس الحضارة الإسلامية ومعالمها : حسن جبر،ص:11 .

6-الحضارة :حسين مؤنس، ص:88.

سار في هذا الاتجاه وصاغ مفهوم الحضارة في إطاره، فهو يعتبر الحضارات حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية[1]، فمن خلال هذه الاتجاهات الأربعة نستنتج أنّ الاختلاف، وإن بدا كبيرا فإنّه مع ذلك ظلّ مرتبطا بالتجربة الإنسانية .

ومن التعاريف التي قُدّمت في معنى الحضارة ما ذهب إليه"عبد الرحمن بن خلدون"في معالجته لمراحل تطوّر المجتمع البشري فقد خصص المرحلة الثالثة منها لحالة الحضارة حيث قال فيها: " والحضارة إنّما هي تفنّن في الترّف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجهه ومذاهبه من المطابع والملابس والمباني، والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكلّ واحد منها صنائع في استجادته والتأنّق فيما تخصص به ويعلو بعضها بعضا، وتتكاثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتّنعم بأحوال الترف وما تتنوع به من العوائد وفيها ينسى الأفراد عهد البداوة والخشونة ويفقدون حلاوة الغزو والعصبية، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تنكبوه ومن النعيم ورغادة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحياة والمدافعات، ويلبسون على النّاس في الشّارة والزيّ وركوب الخيل".[2]

إنّ ما ذهب إليه ابن خلدون في تعريفه للحضارة يقتصر على الجوانب المادية منها ولا يتطرق إلى الجوانب المعنوية والفكرية، مثل الآداب والفنون والمعارف المختلفة التي يفرد لها فصلا خاصا في مقدمته وهو الفصل السادس في " العلوم واكتسابها وتعلمها"، في حين نجد أنّ "محمد مبارك" أدرج الجوانب المعنوية والفكرية ضمن مفهومه للحضارة حيث يراها: " مجموع المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثّل الحالة الفكرية

1-ينظر وجهة العالم الإسلامي : مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، بيروت، ط،1986م،مج5،ص: 25.

2- المقدمة: ابن خلدون،تح: علي عبد الرحمن وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1960م،د.ط، ج3، ص:871.

والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية، وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعبا أم أكثر"[1].

إنّ المتأمّل في هذه الآراء والتعاريف سواء العربية أم الغربية يدرك مدى تأثير الخلفيات والتخصصات والاتجاهات في النظرة الفكرية والتوجه العقلي لهؤلاء المفكريين، وعلى هذا وممّا تقدم يبقى تعريف الحضارة تعريفا دقيقا جامعا مانعا من المهام الصعبة المنال، ولذلك وجدنا أنفسنا مضطرين إلى تبنّي تعريف تقريبي وهو التعريف الذي قدّمه "الربيعي بن سلامة" حيث يرى أنّ حضارة أي مجتمع من المجتمعات أو أمّة من الأمم هي عبارة عن مجموع مظاهر حياتها الاجتماعية ممثلة في تراثها المادي والمعنوي[2].

3- صلة الحضارة بالثقافة والمدنية:

تشمل **الحضارة** كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشري، وغالبا ما يحدد سلوك الإنسان وطريقة معيشته وتفاعله مع بيئته، وتختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة سواء أكانت قديمة أم حديثة مظاهر مميزة، فالحضارة تشمل كل ما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية، فهي تضمّ جميع نواحي الحياة من مظاهر البداوة إلى حياة القرية والمدينة، وتطوّر هذه الحياة ونموّها وازدهارها[3].

المدنية مشتقة من المدينة وهي تجمع بيوتا يزيد عددها على عدد بيوت القرية، ومَدَنَ فلان مَدُونا أتى المدينة وبناها، وتمدّن تخلّق بأخلاق أهل المدن، فالمدينة تدلّ على مرتبة سامية وتطور راق، حيث تتجمع ظواهر وخصائص وكفاءات في المدن قلّما توجد في حياة

1- الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية: محمود الخالدي، دار الفكر، عمان، ط1، 1403هـ-1983م،ج1، ص:61.

2- ينظر الحضارة العربية الإسلامية : الربيعي بن سلامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2009م، ص:11.

3- ينظر معالم حضارات الشرق الأدنى والقديم: عصفور محمد أبو المحاسن، دار النهضة العربية، بيروت،ط1987،2م، ص:03.

القرية، وفي المدينة تبدو مظاهر التقدم العلمي والفني والفكري والأدبي والتقني والآلي[1].
أمّا **الثقافة** فهي من كلمة ثقف فلان: صار حاذقا فطنا، والثّقافة تعني العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها، وهذا المعنى قصده" فولتير"(Voltaire) عندما تحدّث عن حالة صقل العقل والذوق والفكر وعندما تحدّث عن المعارف الفنية والعلمية والفلسفية القابلة للتّعلم[2].

وقد أورد " حسن جبر" بعض الفروق لمجموعة من الباحثين في حديثه عن مسألة الحضارة والمدنية فقال:"... وحاول الباحثون أن يفرقوا بين مسألة الحضارة والمدنية فقالوا:

- لكلّ مجتمع حضارته التي تمثل في قيمه العليا، والتي هي غايته، و أمّا المدنية ففي وسائله وتطبيقاته في واقع الحياة .
- الحضارة هي النشاط الاجتماعي الذي يرتبط بالجانب الروحي والعاطفي من الإنسان ولا يسهل اقتباسه وانتقاله من مجتمع إلى آخر، والمدنية هي النشاط الاجتماعي الذي يرتبط بالجانب العقلي والمادي من الإنسان ويسهل اقتباسه وانتقاله من بيئة إلى أخرى.
- الحضارة طفرات تاريخية والمدنية تطوّر يسير في خط صاعد"[3].

ثمّ أبدى رأيه في هذه المسألة فقال:" إنّ المدنية طور من أطوار الحضارة ونمط من أنماط النشاط الإنساني تعتمد على البحث العلمي وتتطور بتطوّره وتتسم بالإتقان والكثرة وغلبة الطابع المادي"[4]، كما أنّ الباحث المذكور عرض لمجموعة من التعاريف المختلفة للثّقافة

1- ينظر موجز تاريخ الحضارة: حاطوم نور الدين وأخرون، مطبعة العروبة، دمشق، 1964م، ص:06.
2- ينظرالحضارة العربية الإسلامية: سلامة صالح النعيمات، الشركة العربية المتحدة للتسويق، القاهرة، 2009م، ص:08.
3- أسس الحضارة العربية الإسلامية : حسن جبر، ص:14.
4- المرجع نفسه، ص:14.

قبل أن يخلص إلى أنّها تعني كل ما يتصل بالإنسان فكريا وأخلاقيا وبدنيا حتى تدريبه النفسي أي كلما يميزه عن سائر الحيوانات..، وفي معناها المحدود أُطلقت على إنتاج شعب ممّا يميزه عن سائر الشعوب ويصوّر أسلوب حياته الخاصة التي يتمسك بها ويحافظ على أصالتها[1]، وعرض" الربيعي بن سلامة" مجموعة من التعاريف حول معنى الحضارة والمدنية والثّقافة فرأى أنّ مفهوم كلمة **حضارة** يشتمل على جانبين أو يقوم على دعامتين إحداهما مادية وهي **المدنية** والأخرى معنوية روحية وتعني **الثقافة.** والمدنية بهذا المعنى تكون أكثر ضرورة وأكثر التصاقا بالجنس البشري كله لأنّها تمثّل سعيه من أجل الحياة وتتجسد في كل ما يحققه من منجزات مادية كالمنجزات العمرانية والتطبيقات التكنولوجية...، فهي ضرورة يشترك في الحاجة إليها جميع البشر ولذلك يمكن أن تنتقل من مجتمع إلى أخر بسهولة كما نرى في منجزات الحضارة المعاصرة، أمّا الثقافة وهي الدعامة الثانية للحضارة فتُعبّر عن ذلك الجانب الذي يميز كل مجتمع عن غيره من بقية المجتمعات البشرية ويعبّر عن خصوصيته التي لا تنتقل بينه وبين بقية المجتمعات بسهوله وذلك لصلتها بالكيان الوجداني للمجتمع[2].

فالباحث في هذه المفارقة يرى أنّ الحضارة تبنى على دعامتين:

- دعامة مادية: يشترك في الحاجة إليها جميع أبناء الإنسانية وهي تنتقل بسهولة من مجتمع إلى آخر وهذه الدعامة هي **المدنية.**
- دعامة معنوية: تمثّل خصوصية كل مجتمع وهي لا تنتقل بسهولة من مجتمع إلى آخر ولا تتطوّر بسهولة أيضا وهذه الدعامة هي **الثقافة.**

1- ينظر المرجع السابق، أسس الحضارة العربية الإسلامية : حسن جبر، ص: 16.

2- ينظر الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر: الربيعي بن سلامة، ص: 10.

ومن ثَمَّ يمكن القول: إنّ مفهوم الحضارة يمو في التركيز على البعدين الروحي والأخلاقي الذي يشير إلى الحضارة في جانبيها المعنوي والثقافي، والبعد الثاني هو البعد المادي الذي يمثل طور المدنية.

ب- حال بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين:

إنّ الحديث عن المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين يستلزم إعطاء فكرة تاريخية موجزة عن حال البلاد في هذه الحقبة، حتى نستطيع معرفة واقع البيئة التي عاش فيها شعراء المغرب الإسلامي، ثم إنّ فهم حال وتاريخ هذه البلاد، يفيد في معرفة المجتمع وأنماط تفكيره.

1- الحياة السياسية والاجتماعية: لقد شهد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين قيام دول في مختلف أقطاره، تعددت عوامل قيامها وتنوّعت مشاربها الثقافية مشكلة بنية حضارية متينة بقية معالمها إلى يومنا هذا، ومن هذه الدّول:

دولة المرابطين: منذ أن اضمحلت دولة الأمويين في قرطبة* مطلع القرن (5هـ-11م) شابهت أوضاع المغرب الأندلس تمزقا وانقساما[1] وفي ظلّ هذا الوضع المتأزم تمكّن المرابطون من تأسيس دولتهم التي كان لها الفضل الكبير في توحيد أجزاء واسعة من بلاد المغرب الإسلامي، وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية أمَّها عبد الله بن

---

* قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين، تقع على نهر عظيم عليه قنطرة عظيمة، مساحتها ثلاثون ألف ذراع لها أربعة أبواب، وحصن عظيم، أنظر: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري: الروض المعيار في أخبار الأقطار، دار الأجيال بيروت، 1988م، ص:153.

1- أعمال الأعلام: لسان الدين بن الخطيب،تح: أحمد مختار العبادي آخرون، دار الكتاب، الدار البيضاء،ج5 ،ص:139.

ياسين* في صحراء المرابطين، ثمّ انطلق بهذه الدعوة إلى المغرب الأقصى حيث تمّ نشرها في أرجائه وذلك في ظلّ حملات عسكرية متتابعة انتهت بخضوع المنطقة لقيادة يوسف بن تاشفين (ت 478هـ) المؤسس الفعلي لدولة المرابطين[1] الذي ملك فيما بعد جزيرة الأندلس ولم يختلف عليه شيء منها[2]، وقد عُرف المرابطون أيضا بالملثمين نسبة إلى اللثام الذي يضعونه على وجوههم[3]، وقد كان شعار المرابطين توحيد المسلمين وإقامة شعائر الإسلام وتوطيدها، فقاموا بترسيخ هذه المبادئ، ودعوا إلى التمسك بالقرآن والسنة فاستقر أمرهم في قلوب النّاس لما في ظاهر دعوتهم من الحق والعدل وقد أشار المؤرخون إلى عدالة هذه الدولة وقيامها بشؤون الراعي والرعية كما يوجبه الإسلام ويقتضيه فقه الإمام مالك[4].

وعن الظّروف **الثّقافية** التي سادت هذه الحقبة، فقد ميّزها عموما المنهج الذي رسمه المؤسس الروحي للدولة المرابطية عبد الله بن ياسين، وازدادت تلك البُنية الثقافية توطدا بفضل السند السياسي، فصارت الرعية كلها تعتقد بالسلفية في العقيدة، والمالكية في الفقه[5] وذلك بتوجيه من الفقهاء الذين كانت لهم اليد العليا في تقرير النمط الثقافي

*هو عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولي، يعود نسبه إلى قبيلة جزولة بالمغرب الأقصى، ولد بقرية قرب أدغست، اختاره شيخه وجاج بن زلو للقيام بمهمة الإصلاح في الصحراء موطن قبيلة لمتونة، وقد اطلع بهمته على أحسن ما يرام وأصبح القائد الروحي لدولة المرابطين، أنظر: روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: ابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، ص: 15.

1- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس-عصر المرابطين والموحدين-: حسن علي حسن، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1980م، ص:53.

2- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لأبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، شرحه واعتنى به الدكتور:صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، الطبعة الأولى 1426هـ-2006م، ص:123.

3- المغرب والأندلس في عصر المرابطين : إبراهيم القادري بوتشيش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993م، ص:08.

4- ينظر تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن بن محمد الجيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ج1، ص:310.

5- ينظر جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة: إبراهيم التهامي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1426هـ-2005م، ص:106.

السائد[1]، وبعد وفاة يوسف بن تاشفين خلفه ابنه علي بن يوسف (537هـ/1142م) لكنّه لم يكن ضليعا في أمور السياسة فعرفت فترة حكمه عدة هزات داخلية بسبب الاضطهاد والظلم، وأخرى خارجية تكررت باستمرار بين المسلمين والنّصارى،ثمّ تولّى تاشفين بن علي (ت:539هـ/1144م) حكم الدولة المرابطية بعد أن كانت هذه الأخيرة قد آلت إلى الانهيار، وبعد وفاة تاشفين بن علي بُويع ابنه إبراهيم وكان شابا صغيرا، وبقي مدة ثمّ نقض بيعته عمّه إسحاق بن علي، فنشب الصراع بينهما ثمّ اندلعت الثورات في جلّ المدن الأندلسية، وفي تلك الأثناء زحفت جحافل الموحدين على تلمسان و فاس ومكناس لتصل إلى مراكش سنة 541هـ/1146م، وتضرب عليها حصارا مريرا انتهى باقتحام المدينة والقبض على أميرها أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين وفتكوا به وبمن معه من أعيان دولته، وبذلك دقّ أخر مسمار في نعش الدولة المرابطية[2].

<u>دولة الموحدين:</u> تُجمع المصادر التاريخية على أنّ مؤسس الدّولة الموحدية وواضع قواعدها الأولى هو محمد بن عبد الله بن تومرت[3] الهرغي[4] السوسي[5] المُلقّب بالمهدي، والمرجح أنّ ابن تومرت ولد في (475هـ/1082م) بقرية ايجلي[6] حيث تلقى دراسته الأولية بكتاتيبها،قبل أن يشدّ الرّحال طلبا للعلم نهاية القرن الخامس الهجري ومطلع القرن الثاني

1- ينظر التحوّلات المذهبية في المغرب الإسلامي والأندلس خلال العصر الموحدي: مغزاوي مصطفى، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2011م-2012م، ص: 28 .

2- ينظر المغرب والأندلس في عصر المرابطين: إبراهيم القادري بوتشيش، ص: 19 .

3- تعني بلسان البربر الفرح، ينظر: تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت،ط6، 1983، ص:03.

4- نسبة إلى قبيلة هرغة، ينظر: عبد الحميد النجار: المهدي بن تومرت، دار المغرب الإسلامي، لبنان، ط1983،1،ص:30.

5- نسبة إلى قبيلة السوس بلاد قوم ابن تومرت بالمغرب الأقصى، ينظر المرجع نفسه، ص:30 .

6- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان: أبي محمد حسن بن علي بن محمد عبد الله الكتامي المعروف بابن القطان، تح: محمود علي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990م، ص:61.

عشر ميلادي، وبعد مشوار طويل في طلب العلم الشرعي شرع في طريق العودة إلى مسقط رأسه في رحلة دامت أربع سنوات، كان خلالها يتوقف بالمدن والقرى التي يمرّ بها فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر متشددا في إنكار الحال التي كان عليه أمراؤهم، لذلك يمكن اعتبار هذه الرحلة من حياته البداية الحقيقية لثورته والبذرة الأولى لقيام الدولة الموحدية[1].

فبعد أن تجول المهدي بن تومرت في أقطار المغرب يدعو إلى إصلاح الدين والدولة تمّت له البيعة سنة 515هـ[2]، وذاع صيّت الخلافة الموحدية في المغرب والأندلس حتى أصبح ملكهم ممتدا من طرابلس الغرب شرقا إلى الأندلس غربا، واستمرت هذه الدولة في التألق والعلو في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والأدبية والسياسية والعسكرية ، فقد اجتمع لها من الجند ما يفوق الأربعمائة وثمانين ألف جندي، يتزايد عددهم أحيانا إلى المليون في فترات الحرب، وهو مختلط ممزوج من العرب والبربر والإفرنج والمماليك[3].

أمّا من الناحية الاجتماعية فقد" تغيرت مكانة المرأة في عهد الموحدين فأقصيت من شؤون الحكم وأمور السياسة"[4]، خلافا لما كانت عليه في عهد المرابطين، نظرا للمبادئ التي قامت عليها دولة الموحدين، وتوجهت إلى ميدان آخر أكثر ملاءمة لطبيعتها وهو ميدان التربية والتعليم، وكانت رائد هذا المجال السيدة" زينب" ابنة يوسف بن عبد المؤمن، والسيدة "خيرونة" التي كان لها يد في نشر عقيدة الأشاعرة بين نساء أهل

1- ينظر المهدي بن تومرت: عبد الحميد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ص:84.

2- تاريخ الدولتين، الموحدية والحفصية: لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي ، تح:الدكتور محمد ماضور ، مطبعة المكتبة العتيقة، تونس ،ط2، 1966م، ص:06.

3- ينظر تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلاني، ج2، ص: 05.

4- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي : عبد الله علي علام، دار المعارف، مصر ، 1971م،ص:245-246.

فاس[1]، كما شاع في عهد الموحدين الزهد والتقشف في ملذات الحياة والرضى بالقليل، ثمّ تلاشت هذه النزعة مع بعض الأمراء الأوائل، وبعد وفاة ابن تومرت سنة 524ه[2]، آلت مقاليد الأمور إلى صديقه علي عبد المؤمن الذي قضى على المرابطين واستولى على مراكش بعد وفاة السلطان علي بن يوسف، وقبل موت علي عبد المؤمن عزل ابنه الأكبر عن ولاية العهد وأحلّ محله أبا يعقوب يوسف الذي كان قائما بشؤون الأندلس، حيث أبدى براعة فائقة في الحرب وشؤون الإدارة[3]، وبعد وفاة الأمير أبي يعقوب سنة 575ه خلفه ابنه يعقوب بن المنصور" الذي بلغت دولة الموحدين في أيّامه إلى منتهى العظمة والقوة، فقد كان عهده عهدا ذهبيا للدولة سواء من حيث العمران وازدهار الحضارة أم من ناحية النظام وانتشار العدالة..."[4]، وبعد وفاته سنة 595ه خلفه ابنه محمد النّاصر الذي خاض موقعة العقاب مع المماليك النصرانية وأخفق فيها سنة 609ه، فكانت بداية النهاية في تاريخ الموحدين بالأندلس، لينقسم بعد ذالك أفراد البيت الموحدي على أنفسهم، ويتنافسوا على الخلافة تنافسا محموما، فدبّ الضعف إلى هذه الدولة حتى اضمحل ملكها وسقطت على يد المرينين سنة 668ه[5] .

بعد أن تصدّع شمل الموحدين أذنت أيّامهم بالذهاب خرج عنها ولاة النواحي، وظهر العصيان من رؤساء العشائر واستبدوا بالإدارة وبرزت إلى الوجود ثلاث إمارات أو دول مغاربية هي:

1- ينظر النبوغ المغربي: عبد الله كانون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961م، ج1، ص: 144.

2- ينظر تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلاني،ج2، ص:04.

3- ينظر تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: أشياخ يوسف، تر: عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م، ص:314.

4- النبوغ المغربي في الأدب العربي: عبد الله كنون، ج1، ص:107.

5- ينظر تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلاني ،ج2، ص:31.

الدولة الحفصية: يختلف المؤرخون في ابتداء الدولة الحفصية، هل تبدأ فعليا منذ تولي أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص واليا على تونس سنة 603هـ، أم يبدأ التاريخ الحقيقي بعد البيعة الثانية لأبي زكريا الحفصي سنة 634هـ، وهو الابتداء الفعلي لها في هذه المنطقة وإعلان الاستقلال عن الموحدين في مراكش، وعلى العموم فإنّ هذه الدولة تنسب إلى رجل من خاصة ابن تومرت وأحد مريديه يكنى بأبي حفص الذي كان واليا على تونس في ظلّ الدولة الموحدية، وبعد وفاته انتقلت الولاية إلى بنيه في عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر بن يعقوب، واستمر بنوه في ولايتهم على تونس إلى أن أفضت إمارتها إلى أبي زكرياء يحي بن الشيخ أبي محمد بن عبد الله سنة 627هـ وكان ملكا عادلا عالما أديبا، فأعلن استقلالها عن الموحدين رافضا لدعوتهم واتخذ تونس عاصمة لهذه الدولة[1]، وقد علا شأن الحفصيين في المشرق والمغرب ودام سلطانهم أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن(603هـ-981هـ) هذا امتدادهم في الزمان أمّا امتدادهم في المكان، فيشمل تونس بتمامها ومنطقة طرابلس حتى برقة شرقا ويصل إلى مدينة الشلف وغليزان غرب الجزائر، كما تذكر ذلك كتب التاريخ، وقد اتسمت فترة حكم الحفصيين بالحرية الدينية والمذهبية، وأظهر الأمراء الحفصيون اهتماما وعناية بالرعية، ولا تزال معالم الحضارة الحفصية قائمة إلى اليوم من قلاع ومساجد ودور وكتب وحمامات، وهي تمتاز بفن المعماري الصنهاجي والشكل الأندلسي، واستمر حكم هذه الدولة إلى سنة 943هـ[2].

الدولة الزيانية (دولة بني عبد الواد): كان بنو زيان ولاة للجزائر من قِبَل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين، انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم، وترجع أصول الزيانين إلى قبائل زناتة الكبرى كما عرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد[3]،

1- ينظر المرجع السابق، تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلاني ،ج2، ص: 32.

2- المرجع نفسه، ج2، ص: 79.

3- ينظر دولة الموحديين : علي محمد محمد الصلابي، دار البيارق للنشر، عمان، د.ط، د.ت، ص: 347.

وكان يغمراسن بن زيان بن ثابت أوّل أمرائهم قد أعلن استقلاله بتلمسان سنة 633ه، وقد بلغت حدود هذه الدولة دلس وبجاية شرقا وإلى داخل التراب المراكشي غربا،فراجت التجارة في هذه الدولة ولاسيما بالعاصمة تلمسان فقد كانت هذه الأخيرة بلدا زاهرا جدا بمتاجره، نظرا لموقعه الجغرافي[1]، فقوية علاقتها التجارية مع شركائها من المغرب والأندلس وإفريقيا، وأصبحت تصدر وتستورد السلع المختلفة، و"كان أولو الأمر يُقدرون الأشراف والفقهاء ويدارون الأعيان من رؤساء العشائر، ويضربون القبيلة بالأخرى حتى يكونوا جميعا في حبائلهم، فتقل المعارضة ويكثر الاطمئنان والاستقرار"[2]، واستمر عهد هذه الدولة إلى سنة 737ه، بعد أن بقيت في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون[3].

<u>الدولةالمرينية:</u> استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام 668هـ/1269م[4]، بعدما تحالفوا معهم في البداية ثمّ حدثت بينهم حزازات وضغائن منشأها التزاحم على الملك والتنافس على الرئاسة، حيث أثاروا فتنا وحروبا بأرجاء المغرب الأقصى إلى أن فتح أميرهم أبو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش سنة 668ه، وقد كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[5]، وقد مات عبد الحق سنة 614هـ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة642هـ، أبو بكر عبد الحق مات سنة556هـ،

1- ينظر تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان لابن الأحمر، تقديم وتحقيق وتعليق، هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط1، 1421ه/2001م،ص: 16.

2- تاريخ الأدب الجزائري : محمد طمّار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص: 164.

3- ينظر دولة الموحديين : علي محمد محمد الصلابي، ص: 349

4- ينظر تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري: تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع، د.ت، د.ط، ج3، ص: 55.

5- المرجع نفسه، ج3، ص: 55.

ويعقوب بن عبد الحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة 668هـ/1269م[1]، وقد سارت هذه الدولة في نظام حكمها على طريق سابقاتها من إمارات ودول المغرب الإسلامي، فلم تتخلف في جميع نظمها الإدارية والمالية والقضائية والحربية عن سنن من تقدمها، فكانت عاصمتها فاس، ولُقّب سلطانها بأمير المسلمين، واشتمل جيشهم على الكثير من مرتزقة الإفرنج والعبيد، واستمر ملكهم إلى أن تعددت الثورات التي أفرزت مبايعة السلطان الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي سنة 869هـ وبذلك انتهت دولة بني مرين[2]، وقد كانت هذه الدويلات الثلاث الأخيرة تعيش تناحرا بينها في كثير من الأوقات ممّا جعلها أجزاء متفرقة كان لها تأثير سلبي عجّل بسقوط بلاد الأندلس.

من هذه الإطلالة التاريخية الموجزة ندرك أنّ القرنين السادس والسابع الهجريين في المغرب الإسلامي قد شهدا سقوط دولة المرابطين أوّلا، ثمّ نشأة دولة الموحدين التي مثّلت هذه المدة أحسن تمثيل من خلال وحدة الشعوب المغاربية والقوى العسكرية التي امتلكتها طوال هذين القرنين، وفي القرن السابع عرفنا نشأة دول جديدة لم تتبيّن جلّ ملامحها ، إذ كانت في بداية التكوين وعدم الاستقرار في هذه المدة المقصودة بالدراسة وهذا ما ميّزة الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب الإسلامي في هذين القرنين.

2- الحياة الثقافية :

يبدو أنّ الطابع الغالب على الثّقافة في بلاد المغرب الإسلامي إبّان هذين القرنين هو الطابع الديني بصورة أشمل من غيرها، فقد بلغ التأثير ذروته في الفنون، وما يتبعها من نتاج فكري، تتحكم فيه بشدة الضوابط الدينية في كثير من الأحيان، وذلك أنّ أكبر دولتين في

1- ينظر قادة فتح بلاد المغرب: محمد شيت خطاب، دار الفكر، ط7، 1404هـ/1984م، ج2، ص: 200.

2- ينظر دولة الموحديين : علي محمّد محمّد الصلابي، ص: 319.

المنطقة قامتا على أساس ديني ،أمّا الدولة الأولى فقد شجعت الفقهاء والعلماء، فـ"بلغ الاهتمام بالفقهيات المالكية أن تجاوز عدد المشتغلين بها وبعلوم القراءات والحديث والتصوف والكلام المئات..."[1]، وكان من أكبر فقهاء هذه الحقبة "أبو الوليد بن رشد" (ت520هـ)، فهو"زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه، وكان إليه المفزع في المشكلات"[2]، و قد حاربت دولة المرابطين الفلسفة، ووقفت بالمرصاد لكل من حاول إظهار شيء منها، فهي مقترنة عندهم بالزندقة والمروق من الدين ولاسيما في الأوساط الشعبية.

أمّا الحركة الأدبية فقد ازدهرت في دولة المرابطين خاصة في عهد الأمير علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشعراء والأدباء فتوافدوا على بلاطه من أهل الأندلس[3]، فهذا الشاعر الأعمى التطيلي (ت527ه)، يقول مادحا الأمير علي بن يوسف:

يَا عَلِيَّ العُلاَ فِي كُـلِّ يَــوْمٍ وَمَا أَنْتَ لِلْمُلْكِ بِالسَّـائِلِ

يَا رَبِيعَ البِلاَدِ يَا غَيْمَةَ العَالَمِ مِنْ بَيْنِ مُـؤْتَلٍ وَمُـــــوَالِ

يَا قَرِيعَ الأَيَّامِ عَنْ كُـلِّ مَجْدٍ يَا سَلِيلَ الأَذْوَاءِ وَالأَقْيَـالِ

لَكَ مِنْ تَاشَـفِينَ أَوْ مِنْ أَبِي يَعْقُوبَ ذِكْرُ مَكَارِمٍ وَفِعَالِ[4]

1- الأوضاع الثقافية والأدبية في عهد المرابطين: عبد الكريم التواتي، مجلة تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، العدد7،ص:67.

2- الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض): القاضي عياض، تح: زهير جرار ماهر، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص:54.

3- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي: علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/2009م، ص: 210.

4- ديوان الأعمى التطيلي: أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، تح: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص:104

وأمّا الدولة الموحدية فقد عرفت اهتماما واسعا بالعلوم والآداب، إذ قرّب الأمراء الموحدون الشعراء والفلاسفة ممن ذاعت شهرتهم في الأفاق، كما أخذ علم الكلام حظّه من الانتشار بعد أن ألزم المهدي أصحابه بدراسته إلزاما[1]، على أنّ بعض أعلام هذا العصر قد وجّه عنايته للحديث من أمثال: أبو بكر بن عطية المحاربي (ت518هـ) و أبو العباس القرطبي (ت656هـ)[2]، وقد شهدت هذه الفترة أيضا عددا من المفسرين الذين ذاع صيتهم وطارت شهرتهم إلى الأفاق البعيدة، ومن هؤلاء الإمام أبو القاسم الشاطبي (ت590هـ)[3]، ومنهم أيضا أبو الحسن الحرالي التجني(ت638هـ) الذي "كان في علم التفسير يورد الآي ويناسقها نسقا بعيدا، ويتكلم فيها بما لم يسبق إليه..."[4]، وكان لعلوم اللّغة انتشارا واسعا في هذين القرنين، فقد كان الخليفة الموحدي "يوسف بن عبد المؤمن" نفسه" أسرع النّاس نفوذ خاطر في مسائل النحو، وأحفظهم للّغة العربية"[5]،وغيرهم كثير ممن ذاع صيتهم وصوّروا بحق الحياة الثقافية والفكرية لبلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة المقصودة بالدراسة.

ولطالما كانت دول المغرب الإسلامي في هذه المدة تغدق على الأدباء والشعراء والمؤرخين من أموالها، وكان يخصص لهم من الجوائز والهبات ما يذكي حماسهم ويقوي نشاطهم ومن شعراء هذين القرنين نذكر : ابن حمديس الصقلي(447هـ/527هـ)، والأعمى التّطيْلي(ت527ه)، وأبوالربيع الموحدي(552ه/604ه)ومالك بن المرحل(604هـ/699هـ)، وغيرهم كثير ممن سنقف عند بعضهم في طيّات هذا البحث،

1- ينظر النبوغ المغربي، ج1، ص:130.

2- ينظر نفح الطيب: شهاب الدين أحمد المقري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1949م، ج2،ص: 615.

3- ينظر المصدر نفسه، ج2، ص:24.

4- عنوان الدراية: أبو العباس الغبريني،تح: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت،ط2، 1979م، ص:145.

5- المعجب في تلخيص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشي ،ص: 346- 347.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بلاد المغرب الإسلامي في هذه المدّة وُجدت بها مراكز للإشعاع الثقافي أهمها: القيروان، طرابلس، تونس، بجاية، وهران، بسكرة، قسنطينة، تلمسان، فاس، مراكش ، قرطبة...

ونَخلُص من هذه الإطلالة الموجزة على تاريخ المغرب الإسلامي وأحواله في القرنيين السادس والسابع الهجريين إلى أنّ حقيقة اللااستقرار والتمزق الذي شهدته هذه البلاد في بعض الأحيان إبّان هذه الحقبة على الصعيد السياسي كان له -بلا شك- تأثير على الجانب الاجتماعي والثقافي، وبما أنّ الشعر نتاج فكري ثقافي فلا شك أنّه ساير هذه الأحداث باعتباره وثيقة تنقل ما رآه الشاعر من حوله ، فهو يُعدّ سجلا هاما عن طبيعة الحياة ومظاهر الرقيّ والتحضر فيها، وفيما يلي سنتعرف على أهم الموضوعات والمضامين الشعرية التي عالجها شعراء هذه المدة المقصودة بالدراسة.



الفصل الأوّل:

مضامين شعر المغرب الإسلامي

من القرن السادس الهجري إلى القرن السابع الهجري

- الشعر التعليمي
- الزهد
- التصوف
- المدح
- المدائح النبوية
- الرثاء
- الغزل
- الفخر
- الهجاء
- الشوق والحنين
- الوصف
- الموشحات
- الأزجال

لقد تنوّعت موضوعات الشعر في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين وفقا لتنوع الشعر المشرقي، فقد أقدم شعراء هذه البلاد على النّظم في أغراض عديدة استطاعوا من خلالها تصوير واقع بيئتهم والتعبير عنها بما ينسجم ومزاجهم الخاص؛ ويتناغم وأحوالهم الحياتية، فقد ازدهرت الحركة الشعرية إبّان هذا العصر بصورة واسعة، ويُلخص "محمد زكريا عناني" رأيه في هذه الفترة، فيقول: "هي فترة نهضة أدبية و علمية وحضارية، أحيت عهود التألق التي كانت عليها البلاد أيّام دول الطوائف و محت حالة الركود الفكري في زمن المرابطين"[1].

وفيما يلي عرض لبعض المضامين و الموضوعات الشعرية التي أُرّخت في مصادر الأدب والتي تنافس فيها الشعراء ليقدموا لنا نتاجا زاخرا بالمعرفة والثّقافة والعلوم، ويكشف عن شاعرية وحكمة وفلسفة وإبداع. وحتى يُعرف سرّ ذلك الإبداع في نظم شاعر قصيدة، فلابدّ من إدراك جانب نفسيته، وهو جانب خفي مبطن بنغمة الشاعر وإحساسه في الأبيات، نسعى في هذا الفصل للكشف عنه بالتحليل والرصد ممّا يساعد على فهم النص.

الشعر التعليمي:

الشعر التعليمي، الشعر المنظوم، شعر الأراجيز، أو شعر المتون، هي مصطلحات تطلق على الشعر الذي يصطنعه الشعراء عادة لنظم العلوم والمعارف تسهيلا للحفظ وهو من الموضوعات الشعرية التي ابتكرها الشعراء في العصر العباسي الأوّل بتأثير اتساع الثّقافة ورقيّ الفكر العربي[2]، حيث قام الشعراء المثقفون بنظم العلوم والمعارف والسير والقصص والأخبار بقصد تيسير حفظها، وتقريب معانيها إلى الطلاب والدارسين، وإن كان الباحثون قد اختلفوا في وضع تعريف دقيق لهذا النوع من الشعر إلا أنّهم قد أجمعوا على غايته

1- شعر ابن مجبر الأندلسي، جمع و دراسة و تحقيق: محمد زكريا عناني، دار الثقافة، بيروت، ط1، 2000م، ص: 31.
2- تاريخ الأدب العربي عصر الدول و الإمارات: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1، ص: 429.

التعليمية التربوية، فهذا "عصمة عبدالله غوشة" يُعرّفه على أنّه " فن قديم، الغرضُ من نظمه التثقيف والتّعليم، تعليم النّاس شؤون دينهم ودنياهم، والدعوة إلى الأخلاق الحسنة، وتزويدهم بمختلف الحقائق المتعلقة بالفرد والمجتمع"[1]، ويعرفه عمر فروخ بقوله:" إنّه الشعر الذي تنظم فيه فنون العلم المختلفة كالنحو والفقه والتاريخ تسهيلا لحفظها"[2]، وتذهب سلوى ناظم إلى القول: "إنّ الشعر التعليمي نتيجة طبيعية من نتائج العصور الأولى للحضارة"[3]، ويشير عبد العزيز عتيق إلى أنّه: " يراد به الأراجيز والقصائد التاريخية أوالعلمية التي جاءت في حكم الكتب وكذلك الكتب التي نظموها فجاءت في حكم الأراجيز والقصائد وهو ما يعبّر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة كألفية الإمام محمد بن مالك في النحو العربي و غيرها ممّا يجمع قضايا العلوم و الفنون و ضوابطها"[4].

وتجدر الإشارة إلى أنّ آراء الباحثين قد تضاربت حول صحة تسمية هذا النمط الأدبي شعرا، فالكثير من الباحثين لا يُعدّه شعرا بالمعنى الخاص، ولكنّه شعر من حيث الإطلاق، لأنّه يفتقر إلى كثير من العناصر الشعرية التي تقوم على العاطفة والخيال وبُعد التصوير، وإنّما سُمي شعرا، وسُميت بعض المنظومات قصائد، من حيث مشابهتها للقصيدة شكلا، وذلك في تعلّق بعضها ببعض و في كونها من بحر واحد[5]،فمن الدارسين من استعمل مصطلح المتن الذي يطلق على مبادئ فن من الفنون، في رسائل صغيرة، تخلو في الغالب من كل ما يؤدي إلى الاستطراد أو التفصيل كالشواهد والأمثلة إلاّ في حدود الضرورة،

1- الشعر التعليمي في العصور الأربعة الأولى الهجرية: عصمت عبد الله غوشة، رسالة دكتوراه 1970م، جامعة القاهرة، ص: 279.

2- المنهاج في الأدب العربي و تاريخه: عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، 1960م، ص:06.

3- منظوم القلادة لابن جبير: سلوى ناظم، دار المستقبل، 1989م، ص: 15.

4- الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، ص:329.

5- ينظر الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم نشأته وتطوره: عبدالرحمن عبان، مذكرة ماجستير،2008م،ص:40.

ومن المعروف أنّ المتن هو الكتاب الذي تكتب فيه أصول المسائل ويقابله الشرح، شرح المتن، وسُمي متناً لأنّه عبارة عن مختصرات علمية،وقد استعمل باحثون آخرون مصطلح منظومة للدلالة على مجموعة الأبيات المنظومة في أبواب النحو والصرف ولم يستعملوا مصطلح قصيدة مراعاة لخروج المنظومات عن شروط الشعر على رغم استعمال القدماء لها، واستخدم آخرون لفظة أرجوزة أي قصيدة على بحر الرجز، ويبنى فيها كل بيت على قافية واحدة صدرا و عجزا، ثمّ بناء البيت التالي على قافية أخرى في صدره وعجزه وهكذا إلى آخر القصيدة[1]، ورفض بعضهم استعمال كلمة أرجوزة لخروجها عن بحر الرجز أحيانا، ولا كلمة ألفية لخروجها عن شرط العدد، ولا كلمات لامية أو ميمية لخروجها عن الروي الواحد،وأعتقد أنّ تسمية هذا اللون الأدبي " شعرا تعليميا " إنمّا هو إشارة إلى الشعر الذي يُعبّر عن معارف علمية يبلغها إلى الناس بطريقة يسيرة موجزة سهلة الحفظ ولا مانع أن يطلق عليها مصطلح المنظومات التعليمية، وهذه الأخيرة لم تقتصر على موضوع بعينه، وإنّما تعدّت إلى معالجة موضوعات شتى في الدين و اللغة و النّحو و الفقه و السير والتاريخ والبلاغة والطب والفلك...،وغير ذلك، ولعلّ القيمة العظيمة لهذا النوع الأدبي جعلت العرب و المسلمين يُعْنَون به عناية فائقة لأنّه يُعلّم الناس أمور دينهم و دنياهم فألّفوا فيه الألفيات الشعرية في مختلف العلوم و الفنون.

وقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين حركة علمية واسعة، وظهر فيها علماء أفذاذ كان لهم شأن في علوم عديدة، وتصدّر هؤلاء العلماء لإقراء علومهم ونشرها بين طالبيها، فكثيرا ما كانوا يلجؤون إلى الشعر التعليمي لنظم تلك العلوم تسهيلا على الطلاب وتيسيرا لهم، ومن نماذج هذا النظم في هذه الفترة، عناية الشعراء بنظم مقطوعات في ترتيب حروف المعجم، ولعلّ كتاب العين للخليل بن أحمد من أشهر

1- ينظر المعجم الأدبي: جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م، ص: 14.

الكتب التي لقيت عناية من النّاظمين وذلك لصعوبة ترتيب مواده التي اعتمدت على مخارج الحروف، فمن الشعراء الذين اهتموا بترتيب حروف كتاب العين؛ الشاعر "موسى بن المناصف"*، الذي كان ترتيبه من أحسن ما قيل فيه على كثرته، يقول[1]:

عَـــذَّبَنِي حُـلْـوُ هَـــوى خُضْتُهُ   غِـــوَايَةً قَـــــــائِدَةً كَـــــرْبِي**

جَـالِـبَةً شَـــوْقَ ضُلُــوعٍ صَبَتْ   سَــــاحِــرَةً زَاجِـــرَةً طَـــــبِّي

دُوسِـــــيَةَ تَيَمُّـــــنِي ظَبْيُـــهَا   ذَوْبُ ثَـنَــايَـاهُ رِضَـــا لُـــبِّي

يرتب الشاعر في هذه الأبيات حروف كتاب العين على ترتيب أوائل كلمات هذه الأبيات: عذّبني (ع)، حلو (ح)، هوى (ه)، خضته (خ)...، وغير ذلك.

كما نجد الشاعر يوسف بن موسى الهواري***، يرتّب حروف تاج اللّغة و صحاح العربية للجواهري في نتفة من ثلاثة أبيات:

أَحْبِبْ بِبَـدْرٍ تَـائِهٍ ثَـنَــــــانِي   جَمَـــالُهُ حَلِيـفُ خَيْـلٍ دَانِي

ذِكْــــرُهُ رَاجِي زَهْــرُهُ بُسْتَـــانِي   شَـرَّدَ صَبــْرِي ضَامِنٌ طَوَانِي

---

*موسى بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي، قرطبي الأصل، أبو عمران بن المناصف، كان كاتبا بارعا و شاعرا مجيدا مكثرا، اشتهر بنظم الأراجيز، توفي بمراكش سنة 627هـ،/ينظر، الذيل و التكملة: ابن عبد الملك المراكشي، تح: إحسان عباس، محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م، م5، ص: 293/288.

1- المصدر نفسه، م5، ص: 289.

**كربي: الكرب الحبل الذي يشد على الدلو، لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: نخبة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، م5، حرف الباء، فصل الكاف، مادة (ك ر ب)، ص: 3846.

***يوسف بن موسى بن إبراهيم الهواري، شاعر محسن و كاتب بليغ، حسن الصوت بالقرآن و الشعر، كان ماهرا في علوم اللسان، أدبا و لغة و نحوا توفي بمراكش سنة 649هـ،/ الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم السلامي، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، ط2، 1413هـ/1993م، ج10، ص: 422.

ظَـــبْيٍ عَـلَى غَـــرَاتِهِ فَتَــــاوَنَ   قَلْـبِي كَـــوَاهُ لَيْـتَـهُ مَـدَانِي[1]

ففي هذه الأبيات نَظْمٌ لترتيب المعجم بناء على حروف الهجاء (أ، ب، ت، ث...)، ولم يقتصر النّظم على المسائل اللغوية بل تعدّاه إلى مختلف العلوم التي كانت منتشرة عصرئذ كالعلوم الدينية مثلا، فقد انتشرت هذه العلوم انتشارا كبيرا في القرنين السادس والسابع الهجريين، فازدهر علم الفقه واشتغل النّاس بعلوم القرآن وتفسيره، وتصدّوا لعلم الحديث فأتقنوه رواية ودراية، وظهر علماء جلّة في هذه العلوم وانبَروا لتدريسها في مجالسهم، ولجأ كثير منهم إلى نظم بعض المسائل التي كانوا يرغبون في تحفيظها للناشئة بُغية التسهيل. يقول أبو الحسن بن الحصّار*من قصيدة تقع في اثنين و عشرين بيتا أرّخ بها لعلوم القرآن:

تَعَارَضَ النَّقْلُ فِي أُمِّ الكِتَابِ وَ قَدْ   تَوَلَّـتْ الحِـــجْرُ تَنْبِـيـهًا لِمُعْـــتَبِرِ

أُمُّ القُـرْآنِ وَ فِي أُمِّ القُـــرَى نَزَلَـتْ   مَا كَـانَ لِلخُمْسِ قَـــبْلَ الحَمْـدِ مِـنْ أَثَرِ

وَبَعْدَ هِـجْرَةِ خَيْرِ النَّاسِ قَدْ نَزَلَتْ   عِشْـرُونَ مِنْ سُـوَرِ القُـــرْآنِ فِي عَـشْرِ

فَـأَرْبَـعٌ مِـنْ طِـوَالِ السَّبْـعِ أَوَّلُـهَـا   وَ خَامِـسُ الخَمْسِ فِي الأَنْفَالِ ذِي العِبَرَ

وَ تَــوْبَةُ اللَّـهِ إِنْ عَدَدْتَ سَـادِسَـةً   وَ سُـورَةُ النُّـورِ وَ الأَحْــزَابِ ذِي الكِبَرِ[2]

1- الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام: العباس بن إبراهيم السلامي، ج10، ص: 423.

*علي بن محمد الخزرجي الفاسي المعروف بابن الحصار، ولد بمدينة فاس ثم تنقل بين مدن الأندلس و المغرب، و كان محدثا فقيها راوية، ذا حظ من علوم اللسان و قرض الشعر، ت620هـ،/ الذيل و التكملة،م5، ص: 80.

2- المصدر نفسه، م5، ص: 80.

وقد استوعب الشعر أيضا العلوم الجغرافية إذ أدّى انتشار الرّحلات المختلفة في المغرب الإسلامي في هذا العهد إلى نظمها شعرا ومن هؤلاء الشعراء أبو الحسن بن الفكون القسنطيني*:

وَجِئْتُ بِجَـايَةَ فَجَلَتْ بُـــدُورًا   يَضِيقُ بِوَصْفِهَا حَــرْفُ الـرَّوِي

وَفِي أَرْضِ الجَــزَائِرِ هَـامَ قَلْـبِي   بِمَعْسُولِ الـمَـرَاشِفِ كَـوْثَـرِي

وَفِي مِلْـيَـــانَةَ قَدْ ذُبْتُ شَــوْقًا   بِلِينِ العَـطْفِ وَالقَلْبِ القَسِيّ

وَفِي تِنِسْ نَسِيتُ جَمِيلَ صَبْرِي   وَهِمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْـهٍ وَضِـي

وَفِي مَـــازُونَةَ مَـــازِلْتُ صَـبّا   بِوَسْنَانَ الحَاجِرِ لَـــــوْذَعِي[1]

فقد تحدّث عن المدن التي قطعها في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، ومزج فيها بين تعداده للمدن التي مرّ بها وبين معاني الغزل، فجاءت قصيدته طريفة في معانيها، وللشاعر أيضا قصيدة ذات إيقاع مطرب جميل يتّسم بالمتعة وهي قصيدة إعلامية إشهارية، نظمها في وصفه لمنظر بجاية الطبيعي، و مطلعها: [2]

دَع ِالعِــرَاقَ وَ بَغْـدَادَ وَ شَـامَـهَا   فَالـنَّـاصِرِيَّةُ مَـا إِنْ مِثْلُــهَا بَلَـــدُ

بَــرٌّ وَ بَحْــرٌ وَ مَــوْجٌ لِلعُيُــونِ بِهِ   مَسَـارِحُ بَانَ عَنْهَا الـهَمُّ وَالنَّكَـدُ

---

*حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون، كان فقيها أديبا شاعرا، غزير النّظم توفي سنة 602ه،/جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس: أحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973م، ص:184.

1- المصدر نفسه، ص: 185.

2- المصدر نفسه، ص: 186.

والشعر نفسه نجده عند ابن خميس التلمساني* في قصائد بديعة عن تلمسان التي يلخص جمالها في هذا البيت:

كُلُّ حُسْنٍ عَلَى تِلِمْسَانَ وَقف   وَخُصُوصًا عَلَى رُبَى العُبَّادِ

فمن هذه النماذج الشعرية حول ذكر المدن و البلدان ندرك الطابع الإشهاري للشعر التعليمي من خلال الترغيب في زيارتها عن طريق إبراز جمالها و حسن طبيعتها.

ومن ضروب الشعر التعليمي في هذه الفترة، شعر الألغاز، "و الألغاز أنواع: ألغاز قصدتها العرب، وألغاز قصدتها أئمة اللّغة، و أبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها، وإنّما قالتها فصادف أن تكون ألغازا، وهي نوعان: تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها،وأكثر أبيات المعاني من هذا النوع، وقد ألّف ابن قتيبة في هذا النوع مجلدا حسنا، وكذلك ألّف غيره، وإنما سموا هذا النوع أبيات المعاني لأنّها تحتاج إلى أن يُسأل عن معانيها، ولا تفهم من أوّل وهلة، وتارة أخرى يقع الإلغاز بها من حيث اللفظ والتركيب والإعراب"[1]، وفي هذا المعنى يقول أبو الربيع سليمان الموحدي:

وَمَا حَاكِمٌ يَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِ   وَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَ لاَ هُوَ أَحْمَقُ

وَمَقُولُهُ يَقْضِي وَ لَيْسَ بِمُفْصِحٍ   وَمَا إِنْ يُرَى عِنْدَ الحُكُومَةِ يَنْطِقُ

*أبو عبدالله محمد بن عمر بن خميس الحميري الحجري ولد بتلمسان، عُرف أنّه كان كثير الحفظ وافر الذكاء إلى جانب تبحره في الشعر والأدب، كان خلوقا متدينا زاهدا، قُتل مع صديقه الوزير ابن الحكيم(645/708ه)/ينظر أعلام تلمسان - مقاربة تاريخية فنية – أ.د محمد مرتاض، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2004م، ص: 62/60/57.

1- المزهر في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى و علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت، باب الألغاز، ج1، ص: 578.

يُصَدِّقُهُ الخَصْمَانِ إِنْ كَانَ عَادِلاً   وَ إِنْ جَارَ فِي أَحْكَامِهِ لاَ يَصْدُقُ[1]

الأبيات مثلما يتضح، تحمل لغزا تعليميا مضمونه عرض مواصفات و مميزات الميزان.
ومن ألغازه أيضا قوله:

وَمَيِّتٍ بِرَمْسٍ طَعْمُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ   فَإِنْ ذَاقَ مِنْ ذَاكَ الطَّعَامِ تَكَلَّمَا

يَمُـــوتُ فَيَحْيَا ثُمَّ يُفْـرِغُ زَادَهُ   فَيَرْجِعُ لِلْقَـــبْرِ الَّـذِي مِنْهُ قَيِّمَا

فَلاَ هُـوَ حَيٌّ يَسْتَحِـقُّ كَرَامَةً   وَلاَ هُـوَ مَيِّـتٌ يَسْتَحِقُّ تَرَحُّـمَا[2]

هذه الأبيات غاية في الطرافة، فيها إشادة بالقلم و الدواة اللذان هما أدوات العلم والحضارة، وفي الألغاز جانب ترفيهي عن النفس، وتتميز غالبا بالدّقة والعمق، فهي تكشف الخلفية الثّقافية و الحضارية للبيئة التي قيلت فيها، وإذا ما عدنا إلى نظم العلوم الدينية نجد أرجوزة لإبراهيم بن أبي بكر التلمساني*، عدد أبياتها ثمانية وعشرون وثمانمائة بيت، فصل فيها الحديث عن الميراث و أحكامه ولم يدع فيها شاردة ولا واردة تتعلق بأحكام هذا العلم إلا ذكرها، ومنها في باب موانع الميراث قوله:

وَيَمْنَعُ الـمِـــيرَاثَ فَاعْـلَمْ سِتَّهْ   فَخَمْـسَـةٌ تَمْـنَعُ مِـنْـــهَا البَتَّـهْ

الكُفْرُ وَالـــرِّقُّ وَ قَتْلُ العَمْدِ   وَالشَـكُّ وَاللِّعَـانُ فَافْهَـمْ قَصْدِي

1- ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبدالله الموحدي، تح: محمد بن تاويت الطنجي، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، د.ت، ص: 125،/ عن حياته ينظر ديوانه.

2- المصدر نفسه، ص: 133.

* أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري، ولد بتلمسان، رحل به أبوه إلى الأندلس، وكان فقيها عالما أديبا، ذا حظ من الشعر،(609/690هـ)/ينظر: نفح الطيب، ج5، ص: 120.

فَلَيْسَ بَــيْنَ كَافِــرٍ وَمُسْـلِمِ   إِرْثٌ سِــوَى بِالــرِّقِّ فَافْهَمْ وَاعْلَمِ[1]

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من الباحثين من جعل الشعر التعليمي نوعين: شعر تعليمي عام وهو الشعر المبثوث في ثنايا القصائد ممزوجا بأغراض الشعر المختلفة كالوصف والزهد والشعر الديني عموما، والهدف منه تعليم النّاس شؤون دينهم و دنياهم و دعوتهم إلى الأخلاق الحميدة و القيّم السامية و التعلّق بالله و التضرّع إليه بالإضافة إلى غرس الروح الإسلامية في الحياة العامة، أمّا النوع الثاني فهو شعر تعليمي خاص وهو الذي تخصص في علم من العلوم مقررا حقائقه واضعا قواعده، مستنبطا قوانينه، ويختلف عن النوع الأوّل بكونه أفردت له منظومات مستقلة، ويتميز بأسلوبه العلمي لأنّه يخلو من العواطف والأخيلة ويقتصر على الأفكار والمعلومات و الحقائق العلمية غالبا.

إنّ ما عرضناه من نماذج هو غيض من فيض، لأنّ الشعر التعليمي قد ازدهر في بلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، ولقي سوقا رائجة وتشعبت اتجاهاته لتشمل مختلف أنواع العلوم الدينية واللغوية والجغرافية، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على المستوى الحضاري العلمي الراقي الذي عاشته بلاد المغرب الإسلامي في هذين القرنين.

الزهد:

إنّ كلمة الزهد في اللّغة لها دلالات متعددة ومختلفة تتقارب أو تتباعد بحسب الاستعمال و بحسب الإطلاق، فكلمة الزهد تعني عدم الرغبة بحيث يقال:"زهد في الشيء إذا لم يرغب فيه، رغب عنه، و موضوعه الدنيا، فالزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا، وتارة تعني الإعراض عنه وتركه لاحتقاره أو لتحرجه منه أو لقلّته وزهيد الأكل قليله، وتارة أخرى: أزهد الرجل ازهادا إذا كان مزهدا لا يرغب في ماله لقلّته وهذا الانصراف

1- الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين: إبراهيم كردي، ص:281.عن الأرجوزة التلمسانية، الورقة: 75.

انصراف عن وجه من أوجه الدنيا وهو الزهد في المال"[1]، و جاء في المعجم الصوفي أنّ أصل حروف كلمة الزهد:"الزاي والهاء والدال تدل على قلة الشيء"[2]، ويُبيّن الجرجاني الفرق بين معناه اللغوي والاصطلاحي فيقول عنه بأنّه: "...في اللغة: ترك الميل إلى الشيء، وفي الاصطلاح هو بغض الدنيا و الإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك ممّا خلت منه يدك"[3].

والزهد في المعنى الاصطلاحي يعني الكف: أوّلا عن المعصية و عمّا زاد عن الحاجة، وترك ما يشغل عن الله عزّ وجل ثمّ الكف عن أمور الدنيا جميعا بتخلية القلب والتقشف التام، وترك كل ما هو مخلوق، ومن ثمّ فإنّ مصطلح زهد، إذ يحل محل (نسك) المرادف له في النصوص القديمة، يدل بوضوح على معنى أوسع من القناعة (والقناعة هي الاعتدال وقمع شهوات النفس)[4]، ويعرفه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن السري (311هـ) على أنّه: "ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا أي لا يفرح بشيء منها ولا يحزن على فقده، ولا يأخذ منها إلا ما يُعينه على طاعة ربّه مع دوام الذكر والمراقبة والتفكير في الآخرة، وهذه أرفع أحوال الزهد إذ من وصل إليه إنما هو في الدنيا بشخصه فقط"[5].

1- تاج العروس للزبيدي، تح: عبدالعزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، 1970م، م2،ص:50.
2- المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة: سعاد الحكم، دندرة للطباعة و النشر، ط1، 1981م، ص: 552.
3- التعريفات: أبي الحسن علي بن محمد الشريف، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ص: 67.
4- دائرة المعارف الإسلامية: أحمد الشنتاوي و إبراهيم زكي خورشيد و عبدالحميد يون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج1، ص: 451.
5- نزعة الزهد في الشعر الأندلسي - من الفتح إلى نهاية الدولة - الطالبة: مشاعر عباس أحمد، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، عن موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، ج1، ص: 915/914.

وأمّا الزاهد فهو "المعرض عن متاع الدنيا وملذاتها، والعابد هو المواظب للعبادة مثل: قيام وصيام النهار، والعارف هو المستغرق في معرفة الله ومحبته"[1]. وقد جاء في كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي: "... اعلم أنّ الزاهد في الدنيا قوته في الدنيا ما وجد، ومسكنه حيث أدرك، ولباسه ما ستر والخلوة مجلسه والقرآن حديثه والله العزيز الجبار أنيسه، والذكر رفيقه والزهد قرينه والصمت جنته والخوف محجته، والشوق مطيته، والنصيحة مهمته، والاعتبار فكرته، والصبر وسادته، والتراب فراشه، والصديقون كسبه، والجوع أدامه، والله عونه"[2]، فالملاحظ أنّ أغلب التعريفات تصب في معنى اصطلاحي موحد لكلمة الزهد والتي دلّت على الابتعاد عن ملذات الحياة ومتاعها والانصراف عنها و عدم الركون إليها وبالمقابل التوجه لعبادة الله وحده رجاء جنته وخوف ناره، وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة الزهد لم تذكر في القرآن الكريم إلاّ مرة واحدة ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾[يوسف:20]. أي باعوه لعدم رغبتهم فيه، لكن وردت آيات عديدة تصب في المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة، قال الله تعالى:﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[الحديد:20].

وامتلأت السنة القولية بالأحاديث التي دعت المؤمنين إلى الزهد في الدنيا، عن أبي حميد سعد بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال:" جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله دُلني على عمل إذا عملته أحبني الله و أحبني الناس، فقال: ازهد في الدنيا

1- الكليات معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية: أبي البقاء بن موسى الحسيني، مؤسسة الرسالة، ط1، 1992م، ص: 490.

2- إحياء علوم الدين، الغزالي، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافية، 1975م، ص: 208.

يحبّك الله و ازهد فيما عند الناس يحبك الناس"[1]، فيوضح هذا الحديث أنّ الزهد في الدنيا طريق إلى الله وحبه، والعفة والعزة طريق لمحبة الناس، فمن أحب الدنيا أبغضه الله والنّاس لأنها مفتاح كل شر وطلب الكفاية من الدنيا واجب "والزهد ترك الزائد منها"[2].

إنّ النزعة الزهدية و تجاربها الفكرية والروحية والسلوكية عموما قد رافقها تجارب شعرية غزيرة؛ صبّ فيها الزهاد كامل قرائحهم وأصبح بذلك "فنّاً من فنون الشعر راج على ألسنة الشعراء في كثير من الآداب، وبرز لدى العرب في قصائد أبي العتاهية وأبي العلاء المعري كما يتجلى في إنتاج رجال التصوف"[3]، فما حظه عند شعراء بلاد المغرب الإسلامي؟

لقد كان لأشعار الزهد والتصوف في بلاد المغرب الإسلامي نصيب في إقدام الشعراء عليه بمختلف أشكاله، فعلى الرغم ممّا كانت تثريه هذه البلاد من ترف ولهو وانغماس في الماديات وبعد عن الدين- في بعض الأحيان - إلا أنّ هذه الأمور كانت فيما بعد السبب في إحياء الناس من غفلتهم وعودتهم لربهم ومحاولتهم التكفير عن ذنوبهم، الأمر الذي جعل كثيرا من الشعراء ينحون منحى زهديا في أشعارهم[4].

لقد وُجد شعر الزهد في هذه الفترة بوصفه يمثل ظاهرة اجتماعية، وَجدت قبولا لدى الناس في المغرب الإسلامي و الأندلس، وبات معلوما أنّ ما شهدته تلك البلاد من اضطرابات سياسية قد جعلت في نفسية أفرادها خوفا من المجهول الذي ما انفك يحمل أحداثا مفاجئة لطالما فتكت بهم لتستقر بعد هذا الاضطراب قناعة واحدة تلزم الإنسان

1-شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية: يحيى بن شرف الدين النووي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1982م، ط2، ص: 105.

2- المصدر نفسه، ص: 107.

3- المعجم الأدبي: جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م، ص: 137.

4- ينظر البيئة الأندلسية و أثرها في الشعر: شلبي أسعد إسماعيل، نهضة مصر، القاهرة، 1978م، ص: 502.

بالعودة إلى ربّه، والأمل في مرضاته ونبذ حياة اللهو والمجون، وكان هذا كفيلا بالدعوة إلى الزهد والتقشف، وقد ازدهر هذا اللون في القرن السادس الهجري بخاصة في النصف الأول منه، حين كانت البلاد تحت حكم المرابطين الذين حرصوا على ملائمة الشعر مع الكتاب و السنة، وشجعوا الشعراء على الخوض فيما يخدم شريعتهم، فراجت الزهديات رواجا لم تشهده بلاد المغرب الإسلامي من قبل وتعددت موضوعاتها لتشمل الدعوة إلى الله وطلب مغفرته ورضوانه، إضافة إلى التذكير بالموت والآخرة وتحقير الدنيا ومتاعها الزائل، وتذكر نعم الله ومقابلتها حمدا وشكرا[1]، وعلى الرغم ممّا أتاحته دولة الموحدين للشعراء من حريات، بإزالتها القيود المفروضة عليهم من ذي قبل، إلا أنّ ثمة فلسفة تملّكت الشاعر حينما اتخذ من الزهد طابعا له، فلم تكن توجهاته لتُغيّر بسهولة بعدما أُتيحت له الفرصة لتغييرها من جديد، كما وتكمُن هذه الفلسفة في النظرة التأملية لحقيقة القدر والحياة والمجتمع من حوله، الأمر الذي جعل الشاعر يبصر توجهاته الشعرية الجديدة بإدراك واقعي صادق، يبتعد فيه عن الكلام الكاذب الذي استخدمه في صغره العابث لتحقيق مكاسب مادية أو إشباع غرائزه دون مراعاة للدين، وهو ما ينصب في النهاية تحت مصالحه الذاتية[2]، ولعلّ من بين أسباب ازدهار هذا الفن في هذه الفترة: التردي الذي أصاب بعض جوانب المجتمع إذ تدهورت الأخلاق الحميدة، فانفلت قسم من الناس من تعاليم الدين، وانغمسوا في حياة اللهو و الترف، في حين انصرف قسم آخر إلى حياة العبادة والتبتل ردا على تلك الأوضاع السائدة"[3]، وممّا ساعد أيضا على انتشار شعر الزهد في هذه الحقبة ما ذكرناه في خِضمّ حديثنا عن الشعر التعليمي من ازدهار العلوم الدينية كعلوم

1- ينظر شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري، سلسبيل محمد محمود نوفل، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2009م، ص: 40.

2- ينظر المرجع نفسه، ص:41

3- الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، إبراهيم كردي، ص: 126.

القرآن والحديث والفقه، ونشاط حركة الوعظ وانتشار حلقاتها في المساجد والزوايا، وفيما يأتي سنعرض نماذج زهدية لبعض شعراء هذه الفترة محاولين استبيان مكنوناتهم ودوافعهم الشخصية من خلال عرض أهم مضامين هذا الفن.

إنّ شعر الزهد يعتمد في مضمونه على أفكار مستمدة من الدين الإسلامي الذي يرتكز بدوره على مصدرين أساسين هما الكتاب والسنة، ومنهما تنطلق مبادئ الدين الإسلامي إلى المسلمين كافة في مشارق الأرض ومغاربها. كما أنّ الزهد موضوع كبير ينطوي على الكثير من المعاني الإسلامية التي يصعب الفصل بينها لا سيما المواضيع التي تتعلق بالوعظ الديني والحث على الآداب والأخلاق الكريمة، ذلك لأنّها تحثّ على الإعراض عن الدنيا والزهد فيها، والإقبال على الآخرة والترغيب فيها، والترهيب من سوء المصير والإكثار من الحديث عن الآخرة وذكر القبور والحثّ على القناعة بالقليل والصبر على المصائب مع التوكل على الله، والاعتبار من تغير حال الإنسان ومحاربة النّفس الطماعة في ملذات الحياة والخوف من كثرة الذنوب وطلب الصفح لعل وعسى.

لقد وَجَدَ موضوع الموت - الذي يُعد فكرة رئيسة في حديث الزهد - أرضا خصبة لدى الكثير من شعراء بلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، فجادت قرائحهم بأبيات هي أقرب إلى الموعظة منها إلى الشعر، فهذا أمية بن أبي الصلت* يصور الموت،فيقول:

مَا أَنْشَبَتْ كَفُّ المَنِيَّةِ ظُفْرَهَا   فَيُنْجِي طَبِيـــبٌ مِـنْ شَـبَاهَا وَطِبُّ

وَوَالَتْ مِنْ صَيْدِهَا ذَاتُ مِخْلَبٍ   بِـهِ كُلَّ حِيـــنٍ مِنْ فَـرَائِسِـهَا خُـلْـبُ

*أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ولد بالأندلس عام 460ه، كان شاعرا و عالما في الفلك و الرياضيات و كان أفضل أقرانه، متبحرا في العلوم توفي سنة 529ه/ينظر: خريدة القصر و جريدة العصر: العماد الأصفهاني، قسم شعراء المغرب، ج1، ص: 189.

وَلَمْ أَرَ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمًا شَهِدْتُهُ وَقَدْ غَابَ حُسْنُ الصَّبْرِ وَاسْتَحْوَذَ الكَرْبُ

وَمَأْتَمُ شَكْوَى وَانْتِحَابُ دُمُـــو عِ البَـــوَاكِي فِـــيـهِ وَاللُّـــؤْلُـــؤُ الرَّطْبُ

فَلاَ قَلْبَ إِلاَّ وَهُوَ دَامِعٌ مُفَجَّعٌ وَلاَ دَمْــــعَ إِلاَّ وَهُـــوَ مُنْهَـــلٌّ سَكْبُ[1]

يذكر الشاعر في هذه الأبيات مشهدا حضره كانت فيه المنية قد أنشبت أظفارها واصطادت فريستها فكانت الفاجعة أعظم والحزن أعمّ.

وهذا أبو الحكم المغربي*يقول عنها:

لِلمَنَايَا مَوَاقِيتٌ مُقَدَّرَةٌ وَذَاكَ حُكْمٌ جَرَى فِي سَالِفِ الأَبَدِ

لَمْ تَزَلْ أَسْهُـــمُ الأَقْدَارِ صَائِبَةً وَلاَ سَبِيلَ إِلَى عَقْلٍ وَلاَ قَوَدِ[2]

فالموت مقدرة من الله عز و جل على البشرية جمعاء فمتى انطلق سهمها أصاب.

وفي الضفة الأخرى نجد عبد الحق الإشبيلي الأزدي (581هـ) يعبّر عن الموت فيقول:

إِنَّ فِي المَوْتِ وَ المَعَادِ لَشُغْلاً وَ ادِّكَارًا لِذِي النُّهَى وَ بَلاَغَا

فَاغْتَنِمْ خُطَّتَيْنِ قَبْلَ المَنَايَا صِحَّةَ الجِسْمِ يَا أَخِي وَ الفَرَاغَا[3]

فهو يوصي باغتنام صحة الجسم و وقت الفراغ و عدم تضييعه فيما لا ينفع لأنّ الوقت هو رأس مال الإنسان و تضييعه فيما لا ينفع يورث الندامة و الحسرة عند حضور الأجل.

1- ديوان أبي الصلت: أمية بن عبد العزيز، جمع و تحقيق: محمد المرزوقي، دار بوسلامة للطباعة و النشر و التوزيع، تونس، 1974م، ص: 50.

*أبو الحكم المغربي بن المظفر بن عبد الله المريني، كان شاعرا طبيبا كثير الهزل و المداعبة ت549هـ/ ينظر خريدة القصر و جريدة العصر للعماد الأصفهاني، تح: محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، ط3، جانفي 1986م، ص: 289.

2- المصدر نفسه، م1، ص: 298.

3- نفح الطيب، م4، ص: 326.

وهذا أبو الربيع يقول حين يذكره:

إِذَا مَا ذَكَرْت المَوْتَ فَاضَتْ مَدَامِعي عَلَى كُلِّ مَا فَرَّطْتُ فَيْضَ السَّحَائِبِ

وَأَذْكُرُ يَوْمَ الحَشْرِ إِنْ جِئْتُهُ غَدًا وَذَنْبِي مَعِي وَالذَّنْبُ أَخْبَثُ صَاحِبِ[1]

إذن هذه حال أبي الربيع حين يذكر هاذم اللذات، ويذكر يوم الحشر مصاحبا خبث الذنوب التي ارتكبها.

ويأتي أبو حفص بن عمر الأغماتي*فيقول:

وَكَمْ رَامُوا الفِرَارَ مِنَ الـرَّزَايَا وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْ أَجَلٍ فِرَارُ

تُـــدَارُ عَلَيْهِمْ حَمُو المَنَايَا بِكَأْسٍ فِيهِ عَقْرٌ لا عَقَارُ

إِذَا مَا اللَّيْثُ أَصْبَحَ فِي مَحَلٍّ فَمَا لِطَرِيدَةٍ فِيهِ قَرَارُ[2]

فالموت عنده ليث إذا وقع على فريسته فلا مهرب لها منه.

ومن موضوعات الزهد أيضا ما جاء في الحديث عن الدنيا والحث على القناعة والابتعاد عن الطمع، يقول أبو الأصبغ المعروف بابن الطحان*:

دَعِ الدُّنْيَا لِعَاشِقِهَا سَيُصْبِحُ مِنْ رَشَائِفِهَا

وَعَادِ النَّفْسَ مُصْطَبِرًا وَنَكِّبْ عَنْ خَلائِقِهَا

1- ديوان أبي الربيع، ص: 151.

*عمر بن عبد الله بن محمد أبو حفص، ولد بأغمات سنة 530هـ/1136م، سكن مدينة فاس و ولي قضاء تلمسان وفاس وإشبيلية، و كان أديبا شاعرا فقيها،ت 603هـ/ ينظر: الذيل و التكملة، م5، ص: 222.

2- نفح الطيب، ج3، ص: 209.

*عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة بن عبد العزيز السماتي الإشبيلي، ولد في إشبيلية سنة 498هـ، يعرف بابن الطحان،كان أستاذا ماهرا في القراءات و له تواليف مفيدة منها: الإنباء في أصول الأداء، توفي سنة: 560هـ/ ينظر: الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، ج8، ص: 402.

وَذُو الـتَّقْــوَى يُـذَلِّلُـهَا فَـيَسْـلَمْ مِـنْ بَـوَائِـقِـهَا[1]

وهذا ابن صارة الشنتريني** يصوّر الدنيا والمتكالبين عليها بأبشع الصور فيقول:

بَنُو الدُّنْيَا بِجَهْلٍ عَظَّمُـوهَا فَـجَلَّتْ عِنْدَهُـمُ وَهِيَ حَقِيرَهْ
يُهَارِشُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهَا مُهَارَشَةَ الكِلاَبِ عَلَى العَقِيرَهْ[2]

وهذا أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن (625هـ) يشبهها بالخمر التي يريد شاربها الأنس بها فتضره أكثر ممّا تنفعه:

أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا كَرَاحٍ عَنِيفَةٍ أَرَادَ مُدِيرُوهَا بِهَا جَـلْبَ الأُنْسِ
فَلَمَّا أَدَارُوهَـا أَثَـارَتْ حُقُودَهُمْ فَعَادَ الَّذِي رَامُوا مِنَ الأُنْسِ بِالعَكْسِ[3]

و في القناعة نجد أبا عبدالله محمد بن صالح الكتاني*، نزيل بجاية يقول:

جَعَلْتُ كِتَابَ رَبِّي لِي بِضَاعَـــهْ فَكَيْفَ أَخَافُ فَقْرًا أَوْ إِضَاعَـهْ
وَأَعْدَدْتُ القَـنَـاعَـةَ رَأْسَ مَـــالٍ وَهَلْ شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ القَـنَـاعَـهْ[4]

1- نفح الطيب، ج2، ص: 634.

** أبو محمد عبدالله بن محمد بن صارة البكري الشنتريني، شاعر أندلسي ولد في بلدة شنترين، كان أديبا لغويا راوية حسن الخط، توفي سنة 517هـ/ ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م، ج19، ص:459.

2- نفح الطيب، المقّري، ج4، ص: 345.

3- التكملة لكتاب الصلة، عني بطبعه ابن أبي شنب، مدرسة الجزائر، الجزائر، 1919م.

* أبو عبدالله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد الكتاني الشاطبي، نزل بجاية، كان شيخا صالحا له حظ من الأدب وقرض الشعر، توفي سنة 692هـ، ينظر: الذيل و التكملة، ج4، ص: 253 .

4- نفح الطيب، المقّري، ج4، ص: 316 .

فهو يرى خير زاده كتاب الله عزّ وجلّ وجعل من القناعة أعزّ ما يملك، وهذا ابن جبير**يتعجب من طمع الإنسان والاغترار بالحياة الدنيا رغم علمه بزوالها و فنائها:

عَجِبْتُ لِلمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ تَطمعُهُ   فِي العَيْشِ وَالأَجَلُ المَحْتُومُ يَقْطَعُهُ

يَغْتَرُّ بِالدَّهْرِ مَسْرُورًا بِصُحْبَتِهِ   وَقَدْ تَيَقَّنَ أَنَّ الدَّهْرَ يَصْرَعُهُ[1]

ومن معاني الزهد أيضا ما جاء في الحثّ على العبادات كقيام اللّيل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزوّد للآخرة، ومن ذلك قول أبي الربيع:

يَا نَائِمًا لَيْلَهُ وَالعُمْرُ يَنْصَرِمُ   مُسْتَغْرِقًا فِي الكَرَى يَلْهُو بِهِ الحُلْمُ

كَمْ ذَا تَنَامُ وَأَقْوَامٌ قَدْ اِكْتَحَلُوا   كُحْلَ السُّهَادِ أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ

بَاتُوا لِرَبِّهِمْ يَدْعُونَهُ شَفَعًا   دُمُوعُهُمْ مِنْ شَدِيدِ الشَّوْقِ تَنْسَجِمُ

فَاعْمَلْ لِأُخْرَاكَ مَا تَرْجُو النَجَاةَ بِهِ   وَلْتَغْنَمِ العُمْرَ إِنَّ العُمْرَ يَغْتَنِمُ

وَارْغَبْ إِلَى اللهِ فِي الغُفْرَانِ مُجْتَهِدًا   هَذَا الصَّبَاحُ بَدَا وَاللَّيْلُ مُنْهَزِمُ[2]

تتوضّح من هذه الأبيات الخلفية الدينية والحضارية للشاعر الأمير، فهو يدعو إلى قيام الليل ونبذ النّوم واغتنام العمر في طاعة الرحمن والاجتهاد في إرضائه رغبة في غفرانه.

وهذا أبو الوليد بن عفير (567هـ) يؤكّد ما جاء به أبو الربيع فيقول:

فَشَمِّرْ الذَّيْلَ مِنْ هَزْلٍ لَهَوْتَ بِهِ   عَنْ سَاقِ جِدِّكَ وَاخْلَعْ بُرْدَةَ الكَسَلِ

** محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير الكناني، صاحب الرحلة المشهورة، كان أديبا بارعا، كاتبا بليغا، شاعرا مجيدا، مولده ببلنسية سنة 539هـ، و توفي بالإسكندرية سنة 614هـ/ ينظر: الذيل و التكملة، ج3، ص: 525.

1- نفح الطيب، ج2، ص: 490.

2- ديوان أبي الرّبيع الموحدي، ص: 156.

وَاعْمَلْ لِأُخْرَاكَ فِي دُنْيَاكَ مُجْتَهِدًا قَبْلَ الرَّحِيلِ وَلاَزِمْ أُهْبَةَ العَجَلِ[1]

إنّ المتأمّل في شعر الزهد في بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة يدرك أنّه موضوع مشترك بين شعرائه وذلك من خلال المعاني والأفكار التي عالجها، إلاّ أنّ أساليبهم في التعبير عنها تختلف من شاعر لآخر، كلٌّ بحسب الزاوية التي ينظر منها إلى الموضوع، والطّريقة التي يعالجه بها، كما أنّ هؤلاء الشعراء قد أفادوا من الأسلوب القرآني في الوعظ والتذكير باليوم الآخر، ومعاتبة النفس على غفلتها، والملاحظ من خلال هذه النماذج أنّ أشعار الزهد في هذه البيئة وهذا الزمان قد اكتست طابع السهولة والبساطة، حيث إنّ معانيها لا تحتاج إلى مزيد شرح أو بيان.

التصوف:

لقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي كسائر أقطار العالم الإسلامي انتشارا لظاهرة التصوف، حيث كان لها دور هام في إثراء التجربة الصوفية في العالم الإسلامي ومساهمتها في هذا الميدان لا تقل أهمية من مساهمات كبريات البلدان الإسلامية مثل العراق وبلاد الشام ومصر، ويرجع أغلب الباحثين ظهور التصوّف في بلاد المغرب الإسلامي إلى مؤثّرات متنوعة أهمها: مساهمة الرحلات من المغرب إلى المشرق لدواعي مختلفة ومتنوعة كطلب العلم وأداء مناسك الحج أو العمل التجاري في التواصل الصوفي بالمشرق، والاتصال بأعلام التصوّف عن طريق التتلمذ عليهم أو الاطّلاع على مذاهبهم واتجاهاتهم في هذا المجال، أو الاستفادة من الكتب والمؤلفات الصوفية "كالرسالة القشيرية" للقشيري، و"قوت القلوب" للمكي، و"إحياء علوم الدين" للغزالي[2]، ويرجع الباحثون انتشار الصوفية

1- الذيل و التكملة، ج6، ص: 119.

2- ينظر نشأة الطرق الصوفية بالجزائر ، دراسة تاريخية: عبدالرحمن تركي، الملتقى الدولي الحادي عشر حول التصوف والتحديات المعاصرة، منشورات جامعة أدرار، المطبعة العربية غرداية، 2008م، ع1، ج2، ص: 352.

في بلاد المغرب الإسلامي إلى القرن الخامس و السادس للهجرة، عندما بدأ كتاب إحياء علوم الدين للغزالي يثير جدلا كبيرا في المجتمع المغاربي خلال فترة حكم المرابطين نظرا لما يحمله من أبعاد صوفية وتأويلات لآيات القرآن والأحاديث النّبوية، فطلب يوسف بن تاشفين[1] من قاضي قرطبة إحراق كتاب "الإحياء" وأفتى الفقهاء بذلك وتوعّد من وجد عنده[2]، غير أنّ هذه السياسة كانت لها نتائج عكسية حيث تدعمت مكانة رجال التصوف وزاد الإقبال عليهم خاصة في كنف دولة الموحدين أين وجد المتصوفة تربة خصبة لنمو حركتهم بفضل الحرية الواسعة التي منحتها الدولة لهم[3]. وفي ظل هذا الانتشار الواسع لهذه الحركة في هذه الفترة خرج التصوف من دائرة الزهد البسيط البدائي الذي يعتمد على مجاهدة النفس إلى طور أكثر تعقيدا هو الطور الفلسفي الذي بدا جليّاً على يد ابن عربي (638هـ)[4]، وغيره من أصحاب وحدة الوجود الذين أصبحت لهم مدارسهم ونظرياتهم المنفردة في التصوف، وقد انعكس ذلك بدوره على الشعر فولّد الشعر الصوفي لأوّل مرة في هذا العصر، وظهرت قصيدة التصوف المبنية على لغة الرمز والإشارة المعبّرة عن نظريات هؤلاء المتصوفة، وأخذ الشعر الصوفي يسير في طريق مغاير لشعر الزهد، فبينما ظلّ شعراء الزهد يعبّرون عن تجاربهم ومشاعرهم الدينية بطريقة سهلة واضحة، لا غموض فيها ولا التواء، أخذ شعراء التصوّف يطوعون الشعر لحمل نظرياتهم وآرائهم الصوفية

1- يوسف بن تاشفين من أمراء المرابطين، حكم في فترة (500/537هـ)، تميز عهده بالاضطراب و قيام ثورات في الأندلس و قيام حركة المهدي بن تومرت/ ينظر: تاريخ المغرب العربي، عبدالواحد ذو نون طه، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م، ص: 323.

2- ينظر الطرق الصوفية في الجزائر و بلاد المغرب و دورها في نشر الوعي و الإخاء و التضامن الاجتماعي، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، بن حدة يوسف، إشراف: أ.د مكحلي محمد، جامعة سيدي بلعباس، قسم التاريخ، 2010/2011م، ص: 18.

3- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، علي إبراهيم كردي، ص: 161.

4- المرجع نفسه، ص: 162.

ويعبّرون عن مواجدهم وشطحاتهم بطريقة الرمز والإيماء[1]، فخلّف هؤلاء الصوفية شعرا غزيرا ينطق بما تنطوي عليه سرائرهم وتخفيه ضمائرهم، فجاء شعرهم متميزا من غيره، ذلك لعنايته الفائقة بالرمز والغموض والإشارة، واختصاصه بألفاظ خاصّة به، وأساليب قاصرة عليه، وتناوله للمعاني والأفكار بطريقة تفارق تعابير الشعراء الآخرين، فقد تناولوا أغراض الحب الإلهي بطريقة لا يفهمها إلاّ من فهم مصطلحاتهم ودلالاتهم[2].

فمن نماذج هذا الضرب الشعري في القرن السادس الهجري هذه القطعة لأبي العباس أحمد بن العريف*:

شَدُّوا الرِّحَالَ وَقَدْ نَالُوا الـمُنَى بِمِنًى وَكُـلُّـهُـمْ بِأَلِـيـمِ الـشَّوْقِ قَـدْ بَاحَـا

رَاحَـتْ رَكَائِبُـهُـمْ تَـنْـدَى رَوَائِـحُـهَـا طِيبًا بِمَا طَابَ ذَاكَ الوَفْدُ أَشْبَاحَـا

نَسِيـمُ قَبْرِ النَّبِيِّ الـمُـصْطَفَى لَـهُـمْ رَاحٌ إِذَا سَكِـرُوا مِـنْ أَجْلِهِ فَاحَـا

يَا رَاحِلِيـنَ إِلَى الـمُخْـتَارِ مِنْ مُضَـرٍ زُرْتُـمْ جُسُـومًا وَزُرْنَا نَـحْنُ أَرْوَاحَـا

إِنَّا أَقَـمْـنَا عَـلَى شَـوْقٍ وَعَـنْ قَـدَرٍ وَمَـنْ أَقَـامَ عَـلَى عُـذْرٍ كَـمَـنْ رَاحَـا[3]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات تظهر له تلك النزعة والتوجه الصوفي بشكل واضح حين يمزج الشاعر الخمر والسُكر في التعبير عن شوقه وحنينه إلى قبر النبي ﷺ، كما يرى أنّه

1- ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، ط1، 2007م، ص: 207/206.

2- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، علي إبراهيم كردي، ص: 162.

*أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي، عالم و شاعر صوفي، له كتاب "محاسن المجالس" توفي سنة 526هـ، ودفن بمراكش/ ينظر الأعلام: الزركلي، ج1، ص 215/ نفح الطيب، ج4، ص: 331.

3- نفح الطيب، المقري، ج4، ص: 331.

قد أسري بروحه إلى تلك المرابع التي طالما تغنّى بها الصوفية في أشعارهم، والتي اتسمت في الكثير من الأحيان بالغلو والمبالغة في النبي ﷺ.

ومن مضامين الشعر الصوفي كذلك قضية الحب الإلهي، التي طرقها الشعراء الصوفية من باب الغزل وذلك لتشابه تجربة الحب الإنساني بتجربة الحب الإلهي من أوجه متعدّدة، وفي هذا المعنى يقول أبو مدين شعيب التلمساني*:

طَالَ اِشْتِيَاقِي وَلاَ خِلٌّ يُؤَانِسُنِي وَلاَ الزَّمَانُ بِمَا نَهْوَى يُوَافِينِي

هَذا الحَبِيبُ الَّذِي فِي القَلْبِ مَسْكَنُهُ عَلَيْهِ ذُقْتُ كُؤُوسَ الذُّلِّ وَالمِحَنِ

عَلَيْهِ أَنْكَرَنِي مَنْ كَانَ يَعْرِفُنِي حَتَّى بَقِيتُ بِلاَ أَهْلٍ وَلاَ وَطَنِ

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ العَيْشِ إِلاَّ لِلمَجَانِينِ(1)

إنّ هذه المقطوعة لولا أنّها موجودة في ديوان أبي مدين الصوفي لظُنّ أنّها لأحد الشعراء العذريين، فهي غزل كغزل العذريين، دلّت على طول الاشتياق والمحبّة وعلى دوام الانتظار والترقب وعلى المعاناة المتواصلة جرّاء حرمان الوصال ومكابدة الذّلّ والهوان لأجل ذلك، إلى درجة تغير ملامحه التي أنكره عليها من كان يعرفه قبلها، كما دلّت هذه المقطوعة على اختلاله النفسي إذ تبدّلت حاله من حال الأسوياء الأصحّاء إلى حال المجانين، التي وجد فيها - حسبه - لذّة العيش.

*أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولد بحوز إشبيلية و تعلم بفاس، فقيه و شاعر، و أحد أعلام التصوف في بلاد المغرب الإسلامي، سافر إلى الحج، و حين عودته استوطن بجاية، توفي قرب تلمسان سنة 594هـ،ينظر: عنوان الدراية، الغبريني، ص: 190.

1- شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا و التشكيل): أ.د مختار حبار، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م، ص: 69/عن ديوان أبي مدين شعيب التلمساني، ص: 19.

وإذا ما جئنا إلى القرن السابع الهجري وجدنا الشاعر أبا عبد الله بن المحلى* يقول من قصيدة على طريقة أهل التصوف:

غَرَامِي دَعَانِي وَالعُذُولُ نَهَــــانِي   فَوَجْدٌ وَعَذْلٌ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

أَمَا عَلِمَا أَنِّي عَلَى الشَّحْطِ وَالنَّوَى   مُقِيمٌ وَأَنِّي وَالهَوَى أَخَــوَانِ

يَقُولاَنِ لِي مَنْ ذَا دَعَاكَ لِمَا نَرَى   فَقُلْتُ دَعَانِي حُبُّهُ فَدَعَــانِي

ضَمَانٌ عَلَى قَلْبِي الأَسَى بَعْدَ بُعْدِهِمْ   إِذَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَ اللِّقَا بِضَمَــانِ[1]

لم يخرج الشاعر على طريقة أهل التصوّف في طرق باب الغزل للتعبير عن الحب الإلهي فهو أمام حالة وَجْدٍ شديد يعصف بصاحبه و بالمقابل حالة عذل لهذا المحب غير أنّه لا يكترث به مبررا حالة حبّه، ثمّ يمضي الشاعر ذاكرا كلّ ما يقرّبه من محبوبه إلى أن يصل إلى التصريح عنه قائلا:

وَلَكِنْ بِقَلْبِي مَنْ هُوَ القَلْبُ كُلُّهُ   وَمَنْ ذِكْرُهُ فِي خَاطِرِي وَلِسَانِي

حَبِيبٌ إِذَا لاَحَظْتُ لَمْ أَرَ غَيْرَهُ   عَـــلَى أَنَّـــهُ إِذْ لاَ أَرَاهُ يَــرَانِي

فَمِنْ فَضْلِهِ وَجْدِي بِهِ وَتَوَلُّهِي   وَمِنْ جُودِهُ مَا أَشْتَكِي وَأُعَانِي

فُطِرْتُ عَلَى حُبِّي لَهُ وَكَأَنَّمَا   يَرَانِي لمعْنَى الحُبِّ حِينَ يَرَانِي[2]

---

*محمد بن حسن بن عمر الفهري، أبو عبد الله المحلي، سبتي ولد بسبتة سنة 583هـ، كان أبوه قوالا يغني في المحافل والأسواق، وكان يعرف بالمحلي، وكان شاعرا أديبا بارعا كاتبا بليغا ناظما و ناثرا، توفي سنة 661هـ، ينظر الذيل والتكملة، ج5، ص: 171/172/173/176.

1- الذيل و التكملة، ج5، ص: 175.

2- المصدر نفسه، ج5، ص: 176.

تحمل ألفاظ الشاعر وعباراته عواطف أشبه ما تكون موجهة للحب الإنساني لولا تلك القرائن التي توحي بأنّها تجاه الحب الإلهي من مثل (على أنّه إذ لا أراه يراني) وقوله (فطرت على حبّي له).

ومن ثمَّ فإنّ التجربة الشعرية الصوفية في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين قد تضمنت أشكالا تعبيرية متنوعة تميّزت بثراء الخيال والرمز خاصة في التعبير عن الحب الإلهي، وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك العديد من الشعراء الصوفيين المغاربة من مثل: العفيف التلمساني، وابن خميس ومالك بن المرحل والششتري وغيرهم كثير ممن حذق في صناعة هذا النمط من الشعر.

المدح:

المدح لغة: جاء في لسان العرب أنّ:"المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، يقال مدحته مدحة واحدة، ومدحه يمدحه مدحا ومدحة، والجمع مدح وهو المديح، وأيضا المدائح والأماديح، قال أبو ذؤيب:

لَوْ كَانَ مِدْحَةُ حَيٍّ مُنْشِرٍ أَحَدًا   أَحْيَا أَبَاكُنَّ يَا لَيْلَى الأَمَادِيحُ[1]

أمّا في الاصطلاح: فهو:"غرض من أغراض الشعر، يقوم على فنّ الثناء وتعداد مناقب الإنسان الحيّ، وإظهار آلائه و إشاعة محامده و فعاله، التي خلقها الله فيه بالفطرة والتي اكتسبها اكتسابا، والتي يتوهمها الشاعر فيه"[2]، فأوضح بذلك بعض الحقائق وكشف عن بعض الزوايا وأضاف إلى التّاريخ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن

1- لسان العرب، ابن منظور، حرف الحاء، مادة (م د ح)، م6، ص: 4156.

2- الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، د غازي طليمات، أ عرفان الأشقر، دار الإرشاد بحمص، ط1، 1412هـ/1992م، ص: 160.

تعلم، وزاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام، فالمدح يشكل ديوانا كبيرا[1]، وموقعا متميزا وهامّا من أدبنا العربي، فهو من أكثر الفنون الأدبية شيوعا، مال إليه معظم الشعراء ونظموا فيه القصائد الكثيرة، التي تعد مآثر الفرد والجماعة"[2]، فهو غرض قديم من أبرز أغراض الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، حظي بعناية فائقة من الشعراء و المتلقين فصار نصيبه القسم الأوفر من النتاج الشعري.

وقد عُرف هذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين ازدهارا لا مثيل له، فالشاعر المغربي على غرار الشاعر المشرقي قد أعجب بالأخلاق الحميدة والشجاعة الفائقة والكرم الواسع فلم يفته الثناء على رجال الحكم والخلفاء وأصحاب النفوذ و نظر إليهم نظرة اعتزاز وإكبار، ولعلّ من بين أسباب ازدهار هذا الغرض في هذه الفترة إغداق الحكام الأموال على الشعراء ما جعل كثيرا منهم يسرف في المدح إسرافا غريبا، فبرزت قصيدة المدح في أشعارهم بروزا شديدا حتى أوشكت أن تجعل منه ديوانا في المدح قبل كلّ شيء[3]، والمتأمّل في نتاج القصائد المدحية في هذه الفترة يجد الشعراء قد رسموا لمدوحيهم صورا تتلألأ فيها الألوان، فالممدوح مثال الجود والتقوى والشجاعة والكرم والعدل والحلم وغير ذلك من الصفات الحميدة، وفيما يأتي سنعرض لنماذج شعرية من هذه الفترة تتضمن بعض المعاني المذكورة آنفا.

إنّ الدّارس للقصائد المدحية في بلاد المغرب الإسلامي خلال هذا العصر يرى أنّ معظمها موجه إلى الطبقة الحاكمة سيرا على منهج القدماء، ولعلّ ذلك أمر طبيعي إذ إنّ الحياة في هذه البيئة لم تكن تختلف عن حياة المجتمعات الأخرى، ذلك أنّ فطرتها تقتضي

1- ينظر المديح: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت، ص: 05.

2- المديح في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، دط، ص: 06.

3- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، علي إبراهيم الكردي، ص: 15.

وجود صراع سياسي أو اجتماعي، وهو ما كان في هذه البلاد خلال هذه الفترة التي شهدت قيام دول وسقوط أخرى، فذلك الصراع لا شك أنّه أثّر بدوره في الحركة الشعرية ولا سيما المدحية منها، هذه الأخيرة التي نالت الرّفعة والسقوط بحسب المادح والممدوح.

فهذا أبو الصّلت أميّة بن عبدالعزيز يمدح ملِكه فيقول[1]:

مَلِكٌ أَعَزَّ بِسَيْفِهِ دِينَ الهُدَى ... وَأَذَلَّ دِينَ الكُفْرِ وَالإِشْرَاكِ

وَأَنَارَ فِي ظُلَمِ الحَوَادِثِ رَأْيَهُ ... فَأَرَاكِ فِعْلَ الشَّمْسِ فِي الأَحْلاَكِ*

يَا أَرْضُ لَوْلاَ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ ... مَادُمْتِ سَاكِنَةً بِغَيْرِ حَرَاكِ

يَا شَمْسُ لَوْ وَاجَهْتِ غُرَّةَ وَجْهِهِ ... لَسَتَرْتِ نُورَكِ دُونَهَا وَسَنَاكِ**

يَا سُحْبُ لَوْ شَاهَدْتِهِ يَوْمَ النَّدَى ... لَحَقَرْتِ جُودَكِ عِنْدَهُ وَنَدَاكِ

شَتَّانَ بَيْنَ اثْنَيْنِ هَذَا ضَاحِكٌ ... أَبَدًا لِآمَالِهِ وَهَذَا بَاكِي

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يجد الشاعر قد خرج عن التصوير الحقيقي الصادق إلى تصوير خيالي مبالغ فيه، فتعبيره أسطوري نسب للممدوح قدرة تتعارض والسنن الخلقية، وربمّا هذا راجع إلى سبب في نفسية الشاعر جعله يرتفع بممدوحه عن مستوى البشر العاديين، ومن الشعراء الذين مدحوا الخلفاء وخصّوهم بغالبية أشعارهم نجد أبا العباس الجراوي[2] يقول مادحا أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن:

1- ديوان أبي الصلت، ص: 131.

* الأحلاك: الحلكة و الحلك: شدة السواد كلون الغراب، و يقال للأسود الشديد السواد: حالك، لسان العرب، م2، ص: 971.

**سناك: السنا بالقصر: الضوء، لسان العرب، م3، ص: 2129.

2- أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي، كان عالما بالآداب حافظا لأشعار القدماء والمحدثين، من أشهر شعراء عصره، خدم بشعره الخلفاء الموحدين الأربعة الأوائل، توفي سنة (609هـ/1212م)،ينظر: الغصون اليانعة في محاسن -

وَالَيْتَ السَّمَاحَ فَقَدْ تَنَاهَتْ أَمَانٌ لِلعُفَاةِ وَمَا تَنَاهَى*

وُجُـودُكَ نِعْـمَةُ للهِ عَمَّتِ وَجُودُكَ نِعْمَةٌ أُخْرَى سِوَاهَا[1]

فالشاعر يُصوّر ممدوحه في قمة الكرم، إذ يحقق أقصى ما يتمنّاه طالبوا المعروف من غير تحديد لمقدار عطاياه، فجوده عنده منطلق لا حدود له.

وهذا ابن الأبّار[2] مادحا أمير المؤمنين المستنصر المنصور:

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ لَنَا غِيَاثٌ فَعِنْدَ المَحَلِّ تُسْتَسْقَى الغِيَاثُ

فَلاَ جُوعٌ وَيُمْنَاهُ الغَوَادِي وَلاَ خَوْفَ وَقَتْلاَهُ اللّيُـوثُ[3]

يبرز الشاعر في هذين البيتين كرم وقوة ممدوحه، فهو عنده المعطاء الجواد الذي لا جوع مع كرمه وهو القوي الحامي لرعيته، والمتأمّل في معنى البيتين يشمّ رائحة التكسب بالشعر، ولم يكتف شعراء هذه الفترة بمدح الخلفاء والأمراء والوزراء، بل توجهوا إلى نسائهم، فهذا ابن خفاجة[4] يمدح زوجة أحد الأمراء، فيقول:

شعراء المئة السابعة، أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تح: إبراهيم الإبياري، دار المعارف بمصر، ج2، ص 98 وما بعدها.

* العفاة: جمع عاف، و هو طالب المعروف.

1- ديوان الجراوي، أبي العباس أحمد بن عبد السلام، دار سعد الدين، دمشق، 1994م، ص: 175.

2- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي بكر القضاعي، الشهير بابن الأبار، (575هـ/658هـ)، شاعر فقيه محدث مقرئ لغوي كاتب بارع في التاريخ، من كتبه التكملة لكتاب الصلة و الحلة السيراء، و هو من أهل بلنسية، ينظر:عنوان الدراية، الغبريني، ص: 309.

3- ديوان ابن الأبّار، أبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي، قراءة و تعليق: الأستاذ عبد السلام الهراس، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، 1420هـ/1999م، ص: 454.

4- أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة ولد في جزيرة شقر سنة 450هـ، أحاط بعدد من فنون المعرفة كالحديث و الفقه و اللّغة و النحو، نظم في أغراض عديدة و لكنّه برع في وصف الطبيعة و الحنين إليها حتى سمي الجنان-

مَشْهُورَةٌ فِي الفَضْلِ قِدْمًا وَالنُّهَى   وَالنُّبْـلِ شُهْرَةَ غُـرَّةٍ فِي أَدْهَـمِ*

جَـاءَ بِـهَا الغُـرُّ الكِـرَامُ كَرِيمَـةً   لاَ تَشْـرَئِـبُّ إِلَى بَيَـاضِ الدِّرْهَـمِ

سِطَـةُ القِـلاَدَةِ رِفْعَـةً وَمَكَانُـهَا   مِـنْ كُلِّ مُـعَـلاَّةٍ مَكَان اللَّهْـذَمِ**

حَـمَلَ الثَّـنَاءَ بِـهَا الـقَرِيضُ وَإِنَّـما   حَـمَلَ الحَدِيثَ رِوَايَةً عَنْ مُسْلِمِ[1]

يشيد الشاعر بممدوحته مبرزا فضلها ورجاحة عقلها وقدم نبلها، كيف لا وهي سليلة كرام، ذات مكانة ورفعة تشرّف الشعر بالثّناء عليها، ولعلّ وراء هذا المدح غرض شخصي إذ إنّ قصائد مدح النساء في هذه الفترة تعد على الأصابع.

إنّ النّاظر في شعر المدح في هذه الحقبة يلفت نظره أنّ "مدح الخلفاء يذهب بمعظم هذا الشعر الذي وصل إلينا، إذ لا نكاد نقف إلاّ على بضع قصائد و مقطوعات في مدح الرجال من فقهاء وعلماء ورجال كان لهم بعض المآثر التي استحقت المدح والثناء"[2].

فهذا الشاعر علي بن الزيتون يمدح أحد القضاة، فيقول:

هُوَ البَرُّ العَطُوفُ عَلَى البَرَايَا   وَبِـالأَيْـتَـامِ يَرْحَـمُ مَـنْ أَتَـاهُ

أَمِيـنٌ عَـدْلُهُ غَمَـرَ البَـرَايَا   فَـمَا يُخْشَ عَلَى أَحَدٍ قَضَـاهُ

مَسِيحٌ خَطْوُهُ فِي كُلِّ عِـلْـمٍ   وَمَنْ ذَا يَقْـتَـفِي أَبَـدًا خُـطَاهُ

-ينظر: تاريخ الأدب العربي، عصر المرابطين و الموحدين، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م، ج5، ص: 218.

* أدهم: الدال و الهاء و الميم أصل يدل على غشيان الشيء في ظلام، و الدهمة السواد،ينظر: معجم مقاييس اللّغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر للنشر و الطباعة و التوزيع، ج2، ص: 307.

**السطة: الواسطة، أي واسطة القلادة أو العقد، و هي أكبر حباته و درره

1- ديوان ابن خفاجة، شرح د: عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، لبنان، ص: 214.

2- الشعر في المغرب العربي في عهد الموحدين، إبراهيم كردي، ص: 61.

أَبَى شَــأْنُهُ طَلَبَ المَعَالِي   وَمَـنْ يُحْصِي ثَنَاهُ أَوْ نَدَاهُ

وَقَالَ اللهُ لَيْسَ سِوَايَ رَبٌّ   وَلاَ لِشَرِيعَتِي أَحَدٌ سِـوَاهُ[1]

يُصوّر الشاعر القاضي رحيما بالأيتام أمينا عادلا في قضائه لا يخش النّاس قضاءه إذا حكم بينهم إذ هو عالم بأصول الدين مُلمٌ بأحكام الشريعة الإسلامية، ومن الفضلاء الممدوحين أيضا: "أبو الحسن الشاري"* الذي كتب إليه الأديب الأبرع أبو القاسم بن عمران**:

أَبَا حَسَنٍ زَادَتْ مَآثِرُكُمْ حُسْنًا   بِفِعْلٍ جَمِيلٍ مُوجِبٍ لَكُمُ الحُسْنَى

لَكُمْ أَجْرُهُ الأَوْفَى وَأَجْرُ مَنْ اِقْتَفَى   سَبِيلَكَ فِيهِ أَوْ بِسُنَّتِكَ اسْتَنَّا

تَخَيَّرْتَ أَعْلاَقَ الدَّوَاوِينِ مُعْرِضًا   بِإِدْنَائِهَا مِنْكُمْ عَنِ العَرَضِ الأَدْنَى

إِلاَّ إِنَّ عِلْمًا لاَ تُكْشَفُ حُجْبُهُ   لِأَهْلِيهِ مُسْتَدْعٍ لَهُ وَلَهُمْ غُبْنَا

فَهُنِّيتَ يَا خِلِّي الكَرِيمَ فَضِيلَةً   رَجَحْتَ جَمِيعَ الأَفْضَلِينَ بِهَا وَزْنَا

وَحُيِّيتَ عَنِّي يَا سَرِيُّ تَحِيَّةً   يَغَارُ عَلَيْهَا القَلْبُ أَنْ تَلِجَ الأُذْنَا[2]

1- الشعر في حاضرة بجاية الحمادية، وداد حلاوي، ماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة باتنة، 2004م/2005م، ص: 82/ عن مختارات من الشعر المغربي و الأندلسي، إبراهيم بن مراد.

*علي بن محمد بن علي بن يحيى بن عبد الله بن يحيى الغافقي، كان محدثا راوية مكثرا عدلا ناقدا، أخذ عن كثير من علماء المغرب و الأندلس، له حظ من علم التاريخ، و كان له عناية بالكتب النفيسة، جمع عددا كبيرا من نفائس الكتب و حبسها في مدرسة أنشأها لهذا الغرض، توفي بسبتة سنة (649ھ/1251م)،ينظر: الذيل و التكملة، ابن عبد الملك،م5، السفر الثامن، ص: 54/55.

**أبو القاسم عبد الكريم بن عمران، ولد بالقصر الكبير(مدينة على ساحل المغرب) و نشأ فيها آخذا العلم عن مشايخها، كان أديبا فقيها قاضيا، ذا حظ من الشعر، توفي بمراكش و هو يتولى القضاء بها سنة 643ھ،ينظر المصدر نفسه، م5، ص:56.

2- الذيل و التكملة، ابن عبدالملك، م5(السفر الثامن)، ص: 55.

وعن مناسبة هذا المدح فقد ورد في كتاب الذّيل والتكملة أنّ أبا الحسن الشاري "كان شديد العناية بالعلم، جمّاعة للكتب والدفاتر وربما أعمل الرحلة في التماسها حتى اقتنى منها مجموعة كبيرة فيها من كل علق نفيس، ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسة أحدثها"[1]. وقد لقي هذا العمل الذي كان سابقة لا مثيل له تقديرا من الشعراء وتثمينا له، فمدحوه وهنؤوه، ورأوا فيه عملا يُكسب صاحبه المدح والثناء عند النّاس والأجر والثواب عند الله تعالى.

بعد هذه الإطلالة الموجزة على شعر المدح في بلاد المغرب الإسلامي إبّان هذه الفترة، يمكن القول إنّ غرض المدح كان له انتشار واسع عند شعراء هذه الحقبة وذلك لتظافر عدة عوامل جعلت من القصيدة المدحية مبتغى كل من المادح والممدوح غير أنّ المدح السياسي بخاصة كان له الحظ الأوفر من هذا الغرض، حيث تفنّن الشعراء في إبراز محاسن ممدوحيهم بين المبالغة والاعتدال في ذلك، بداعي التكسب حينا وإخلاصا لممدوحيهم حينا آخر، كما أنّ معاني المدح من خلال هذه النماذج لم تخرج عن المعاني التقليدية لقصيدة المدح فتراوحت بين الأخلاق الحسنة والصفات المحمودة والمآثر الجميلة.

المدائح النبوية:

رأينا فيما سبق أنّ المدح قد شغل حيزا كبيرا في السّاحة الأدبية، إذ هو غرض أساس من أغراض الشعر العربي، وانتشاره كان مرتبطا بأهداف متباينة غلب عليها التكسب والمنفعة المادية، ولكن تحت ظل واقع ديني وأخلاقي وفكري مغاير، حدث التحوّل وتغيرت وجهة المدح حين ارتبط بشخصية النبيّ محمد ﷺ سيد ولد آدم الصادق الأمين، الهادي البشير، فانتقل الغرض من مديح عادي إلى مديح نبوي عرف التطوّر والازدهار عبر

1- المصدر السابق،، م5 (السفر الثامن)، ص: 56.

الأزمنة والأقطار، فالمديح النبوي "هو الشعر الذي يتناول الإشادة بمقام الرسول ﷺوفضله ويعدد صفاته الخُلقية والخَلقية ويُبيّن معجزاته ويُنوّه بغزواته ويفصح عن حبّه والشوق إليه"[1]،وهي القصائد والمقطوعات التي نظمها أصحابها في مدح النبي ﷺو تعود بواكير المدائح النبوية إلى حياة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فقد قام شعراء الدعوة الإسلامية بمدحه في حياته، فنظموا قصائد كثيرة في هذا الغرض، وكانت أغلبها تتبع التقاليد الفنية الموروثة عن العصر الجاهلي، فخلت قصائدهم تلك في البدء أو كادت من أثر الدين الجديد، وجاءت في مجملها مشاكلة في معانيها ومنهجها للقصائد التي كانوا يمدحون بها سادتهم وسراة قومهم[2]، وتشرّبت النفوس مع مرور الوقت من معاني الدين الجديد وقيمه، فأصبح الشعراء يمزجون في قصائدهم بين المعاني الاجتماعية التقليدية والمعاني المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي، فصار فيها مزيج من الإشادة بخصاله عليه الصلاة والسلام وشمائله والإشادة بهدايته ونبوته[3]، وقد عرّف زكي مبارك المدائح النبوية على أنّها "من فنون الشعر التي أذاعها التصوّف؛ فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنّها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق و الإخلاص، وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وما يقال بعد الوفاة يُسمّى رثاء، ولكنّه في الرسول عليه الصلاة و السلام يسمى مدحا، كأنّهم لاحظوا أنّ الرسول ﷺموصول الحياة، وكأنّهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء"[4]، وقد كان المديح النبوي ولا يزال "فنّا أصيلا من فنون الشعر الديني فهو يتعلّق بشخصية الرسول ﷺفشخصيته اجتذبت قلوب المسلمين

1- من شعر المديح النبوي: الحسين النور، منشورات جامعة الخرطوم، السودان، ط1، 1995م، ص: 12.

2- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، ص: 126.

3- ينظر المرجع نفسه، ص: 126.

4- المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص: 17.

ليمدحوه لعظمها وسموّها"[1]، و لهذا النوع الشعري حظوته في مجال الدعوة الإسلامية، فهو شعر ديني ارتبط وتعلّق بشخصية إنسانية فريدة استوجبت المدح والإشادة بفضائلها للاقتداء بها، وبذلك كان هذا الفن الشعري صادقا نابعا من إيمان راسخ بالنبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام[2].

وعن نشأة هذا الغرض ببلاد المغرب الإسلامي، فإنّ الفتح الإسلامي للمنطقة فتح نافدة تشع نورا على أهلها، فكما رحبوا بهذا الدين القويم أحبوا رسوله وعبّروا عن حبهم له، وقد تأثر الشعراء بهذا الفن فكانت صلتهم به عقب الفتح الإسلامي لكن في بدايتها لم تكن غير إرهاصات، إلى أن ظهرت أوّل قصيدة نبوية مطولة وهي الموسومة بالشقراطيسية[3] وقد ظهرت في الجنوب التونسي وهذا في نهاية الثلث الأول من القرن الخامس الهجري وقد جاءت في ثلاث وثلاثين ومئة بيت من البسيط، تناولت موضوع السيرة النبوية والفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب[4].

وفي القرنين السادس والسابع الهجريين صار المديح النبوي بالمغرب الإسلامي موضوعا مستقلا و غرضا قائما بذاته تخصص له القصائد، بخاصة في ظل الوضع السيء الذي آلت إليه البلاد الأندلسية من جراء تساقط مدنها وهزائم الحكام المسلمين، فنظم الشعراء مديحا

1- المداح النبوية في الشعر الأندلسي: فاطمة عمراني، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ص: 102.

2- ينظر المولديات في الأدب الجزائري القديم، عهد تلمسان الزيانية: أحمد موساوي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، دط، 2008م، ص: 46.

3- نظمها أبو محمد عبد الله بن زكريا الشقراطيسي، نسبة إلى شقراطيسية من بلاد الجريد بتونس/ينظر نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري(ت733ه)، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج18، ص: 347.

4- ينظر الشعر الديني الجزائري القديم في القرون السابع و الثامن و التاسع الهجرية، موضوعاته و خصائصه، أطروحة دكتوراه في اللغة و الأدب العربي: زينب قوني، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2014م/2015م.

حبّا في النبيّ عليه الصلاة والسلام بإظهار أحاسيسهم وإبداء عواطفهم، فكانت نتيجة ذلك ثروة ضخمة من القصائد النبوية التي تراوحت بين الغلو والاعتدال،وقد برز هذا الفن بشكل قوي في هذه الفترة لدرجة أنّ هناك من الشعراء من انقطع للقول في شعر المديح النّبوي على شاكلة أبي الحسن الخزرجي الغرناطي*، فلا يعرف له نظم في أحد من المعالم إلا في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، وغيره من الشعراء كثير.

وممّا يدل على ازدهار المدح النبوي في هذا العصر أنّ النساء كانت لهنّ مشاركة فيه إلى جانب الرجال كما كان للنثر أيضا مشاركة واسعة في هذا المجال، ويصعب استقصاء الشعراء الذين صرفوا شعرهم للمدح النبوي. وقد تنوعت الموضوعات التي عالجتها قصيدة المدح النبوي إبّان هذه الفترة، فنظم الشعراء قصائد في وصف مآثر الرسول ﷺومناقبه ومعجزاته، ونظم آخرون قصائد يتشوقون فيها إلى زيارة مقامه الكريم، ونظم بعضهم قصائد يتبركون فيها بآثاره الكريمة، ولكن هذه القصائد تتصل ببعضها اتصالا وثيقا لأنّها تدور جميعا حول موضوع واحد هو مدح النبي ﷺ[2]، كما سلك الشعراء دروبا متنوعة في مدائحهم واستخدموا أساليب مختلفة في نظم مدائحهم، خاصة في عهد الموحدين حيث " نجد فنّ المدائح النبوية قد استقر وأضحت له تقاليده وأشكاله، إذ بلغ مبلغا كبيرا من الصّنعة والتكلف، فكثرت المشطرات والمخمسات والمسدسات والمعشرات والعشرينيات وغير

---

*أبو الحسن ضياء الدين علي بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجي الغرناطي، صوفي شاعر، قال الشعر على طريق محيي الدين بن عربي و له مدائح كثيرة في النبي عليه الصلاة و السلام، توفي سنة 686ه/ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل الصفدي، تح: أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه/2000م، ج22، ص: 98.

1- ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، ط1، 2007م، ص: 192.

2- ينظر المرجع نفسه ص: 194.

ذلك"[1]، وفيما يلي سنعرض لنماذج عطرة قيلت إبّان هذه الفترة في خير خلق الله عليه الصلاة والسلام، يقول ابن العريف* من أشعاره النبوية:

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي   يُحِبُّكَ قُرْبَةً نَحْوَ الإِلَهِ

جَرَتْ أَمْوَاهُ حُبِّكِ فِي فُؤَادِي   فَهَامَ القَلْبُ فِي طِيبِ المِيَاهِ

فَصِرْتُ أَرَى الأُمُورَ بِعَيْنِ حَقٍّ   وَكُنْتُ أَرَى الأُمُورَ بِعَيْنِ سَاهِ

إِذَا شَغُفَ الفُؤَادُ بِهِ وِدَادًا   فَهَلْ يَنْهَاهُ عَنْ ذِكْرَاهُ نَاهِ؟[2]

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات النبيّ عليه الصلاة والسلام مصرحا بحبه له، ذاكرا القصد وراء هذه المحبة ألا وهو التقرب إلى الله رجاء رحمته ورضوانه، معرجا على نتيجة هذه المحبة حيث صار يرى الأمور بعين حق بعدما كان لاه، فذِكْرُ النبي عليه الصلاة والسلام لا ينقطع عن فؤاد الشاعر المشغوف بذلك.

لقد عدّد شعراء المديح النبوي معجزات الرسول ﷺ في قصائدهم، فكان الاهتمام بمعجزة الإسراء والمعراج كبيرا عندهم؛ فأكثروا من ذكرها في مدائحهم، فهذا أبو زيد الفزازي[3] يقول:

1- الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، ص: 128.

*ابن العريف أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، من أهل ألمرية الأندلس، فقيه زاهد متناهي في الفضل والخير، اهتم بالقراءات و جمع الروايات توفي ليلة الجمعة 23 صفر من سنة 536هـ/ينظر: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج2، ص: 05.

2- المصدر نفسه،ج2، ص: 21.

3- أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد بن تنفليت بن سليمان الفزازي، أصله من جبل فزاز قرب مكناسة، نشأ بمراكش و تنقل في مدن الأندلس و نزل تلمسان، كان أديبا حافظا زاهدا، ذا حظ من أصول الفقه و الرواية، توفي سنة-

تَرَقَّى إلَى السَّبْعِ الطِّبَاقِ بِجِسْمِهِ وَقَدْ أَشْرَقَتْ أَمْلاَكُهَا وَتَجَلَّتِ

تَرَقِي مَحْبُوبٍ دَعَــاهُ حَبِيبُهُ فَطَارَتْ بِهِ أَشْوَاقُهُ وَتَعَلَّتِ(1)

و هذا ابن خبازة* يقول في المعنى نفسه:

وَأَسْرَى بِهِ لَيْلاً إلَى حَضْرَةِ العُلاَ فَمَازَالَ فِيهَا لِلحَبِيبِ مُنَاجِيَا

وَسَارَ عَلَى ظَهْرِ البُرَاقِ كَرَامَةً لَهُ رَاكِبًا إذَا سَارَ جِبْرِيلُ مَاشِيَا(2)

و هذا ابن الجنّان** له المخمسة المشهورة التي منها:

اللهُ زَادَ مُحَمَّــدًا تَكْرِيمَا

وَحَبَاهُ فَضْلاً مِنْ لَدُنْهُ عَظِيمَا

وَاخْتَصَّهُ فِي المُرْسَلِينَ كَرِيمَا

ذَا رَأْفَةٍ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تسليمَا

حَازَ المَحَامِدَ وَالمَمَادِحَ أَحْمَدُ

637هـ/ ديوان الرسائل المتقبلة في مدح النبي ﷺ، للوزير الفاضل أبي زيد عبدالرحمن الأندلسي، مكتبة المنار تونس، 1378هـ/1958م، ص: 15.

1- المصدر نفسه، ص: 28.

* أبو عمرو ميمون بن علي بن عبد الخالق الصنهاجي الخطابي، المعروف بابن خبازة، ولد بفاس سنة 570هـ، ونشأ فيها، انتقل إلى الأندلس، كانت له مشاركة في كثير من العلوم كالفقه والحديث والشعر، توفي بمراكش سنة 637هـ/ينظر: الذيل و التكملة، ج5، ص: 263- 264.

2- أزهار الرياض في أخبار عياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1359هـ/1940م، ج2، ص: 389.

** أبو عبدالله بن الجنان محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية، كان محدثا راوية ضابطا كاتبا بليغا و شاعرا بارعا، رائق الخط دينا فاضلا، خيرا ذكيا، توفي ببجاية سنة 610هـ/ينظر: نفح الطيب، م7، ص: 416- 431.

وَزَكَتْ مَنَاسِبُهُ وَطَابَ المَحتَدُ

وَتَأَثَّلَـــتْ عَلْـيَــاؤُهُ وَالسُّـؤْدَدُ

مَجْدًا صَمِيمًا حَادِثًا وَقَدِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا[1]

يذكر ابن الجنّان في هذه المخمسة فضائل النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام بالتركيز على ما خصّه الله عز وجل به من صفات خلقية وفضائل ومحامد علت به سائر الخلق.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المدائح النبوية في هذه الفترة كثيرا ما ارتبطت بمناسبة المولد النبوي الشريف التي أولاها الحكام اهتماما كبيرا والتف حولها العامة، وقد سمّيت تلك القصائد الملقاة في هذه المناسبة بالمولديات وهي "المدائح التي تلقى ليلة المولد النبوي وتحتوي على مدح الرسول ﷺومدح الأمير الذي ينتظم حفل المولد بأمره أو بحضوره"[2]. ولها مظهر ديني كما لها أثر من جانب آخر في إثراء الوسط الأدبي، نتيجة لتباري الشعراء وتنافسهم في نظم القصائد الحاملة للمشاعر الدينية والمعبرة عن الفضائل المحمدية[3]، وتُعد المولديات مظهرا حضاريا في هذه الفترة ممّا يستدعي التطرق لها بالشرح والتحليل- إن شاء الله تعالى- في الفصل الثالث من هذا البحث.

1- المصدر السابق، نفح الطيب، ج7، ص: 432- 433.
2- المدائح النبوية في الشعر الأندلسي، ص: 135.
3- ينظر: المرجع نفسه، ص: 139.

إنّ حبّ النّبي عليه الصلاة والسلام ومدحه ينتج عنه حب آل بيته وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين والإشادة بهم وموالاتهم، وهذا ما وجدناه عند ابن جبير*في نص واحد حيث يقول:

أُحِبُّ النَّبِيَّ المُـصْـطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ   عَلِيًّا وَسِبْطَيْهِ وَفَاطِمَةَ الزَّهْرَا

هُمْ أَهْلُ بَيْتٍ أُذْهِبَ الرِّجْسُ عَنْهُ   مُوَأَطْلَعَهُمْ أُفْقَ الهُدَى أَنْجُمًا زُهْـرَا

مُوَالاَتُهُمْ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ   وَحُبُّهُمْ أَسْنَى الذَّخَائِرِ للأُخْـرَى

وَمَا أَنَا لِلصَّحْبِ الكِرَامِ بِمُبْغِضٍ   فَإِنِّي أَرَى البَغْضَاءَ فِي حَقِّهِمْ كُفْرَا

هُمْ جَاهَدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ   وَهُمْ نَصَرُوا دِينَ الهُدَى بِالظَّبَا نَصْرَا

عَلَيْهِمْ سَلاَمُ اللهِ مَا دَامَ ذِكْرُهُمْ   لَدَى المَلَإِ الأَعْلَى وَأَكْرِمْ بِهِ ذِكْرَا(1)

إنّ المطّلع على قصائد المديح النبوي إبّان هذه الفترة يجدها بابا كبيرا من أبواب الشعر في بلاد المغرب الإسلامي كما يجدها غرضا مستقلا بذاته يمتاز بصدق وحرارة المشاعر وفرط الوجد وشدّة التعلق برسول الله ﷺو آل بيته رضوان الله عليهم، كما أنّها تكاد تكون صورة لما سبق من شعر المديح النبوي في القرون السابقة من النّاحية الموضوعية من ذكر لفضائل النبيّ عليه الصلاة والسلام وأخلاقه وصفاته ومعجزاته والحنين والشوق إليه، ومن الناحية الفنية فقد امتاز هذا النمط الشعري بسهولة الألفاظ وبساطة التراكيب. كما أنّ هذا الغرض قد تأصل في المناسبات الدينية بخاصة حيث كان الشعراء يظهرون

---

*أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، ولد في بلنسية سنة 539هـ، عني بالآداب فبلغ منها الغاية، و تقدم في صياغة القريض و صناعة الكتابة و نال بها دنيا عريضة، كما عرف برحلاته، توفي بالإسكندرية سنة 614هـ/ينظر الذيل والتكملة، ج3، ص:503-508.

1- المصدر نفسه، ج5، ص: 145.

أقصى ما تجود به قرائحهم من مدح النبيّ الكريم عليه الصلاة و السلام، ولعلّ إكثارهم في هذا النمط الشعري مردّه إلى الحب الخالص للنبيّ عليه الصلاة والسلام أولا ثمّ تعويض عن البعد وعدم قدرة جميع الناس على زيارة البقاع المقدسة ثانيا، فكانت هذه الأشعار هي ملاذهم وعزاءهم في عدم بلوغ مرماهم.

الرثاء:

يُعدّ الرثاء من أقدم الأغراض الشعرية وأجودها عند العرب منذ عصر ما قبل الإسلام و إلى يومنا هذا، فهو من الأغراض الرئيسة وقلّما نجد شاعرا لم ينظم فيه، لأنّه صورة صادقة لعمق العلاقات الاجتماعية ومرآة عاكسة للعاطفة القائمة بين الراثي والمرثي، والرثاء في اللّغة مشتقة من الفعل رثى، يقال: رثى الميت رثيا ورثاء ورثاية ومرثاة ومرثية بمعنى بكاه بعد موته وعدد مناقبه، ورثى فلان فلانا إذا بكاه بعد موته وعدّد محاسنه ونظم فيه شعرا[1].

أمّا في الاصطلاح فهو" فن يعبر به الشاعر عن عاطفته نحو ميّت، فيبكيه ويعدد مزاياه و يتأمّل في الحياة و الموت"[2]، فالرثاء يوافق المدح في المعاني و يخالفه في المشاعر، فهو لغة الحزن، ومجال اليأس، ومعرض الوفاء وهو أحد الأغراض الشعرية الأكثر التصاقا بالوجدان البشري، لذا فهو ينمو و يزدهر حيث يصاب هذا الوجدان و يكلَم وما أكثر المصائب التي تنتاب الإنسان، يقول عنه ابن رشيق:" وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أنّ المقصود به ميّت مثل (كان) وما يشاكل هذا ليعلم أنّه ميّت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف

1- لسان العرب، ابن منظور، مادة(ر ث ى)، م3، ص: 33.

2- في الأدب و فنونه: علي بو ملجم، المطبعة العصرية للطباعة و النشر، لبنان، د.ت، ص: 82.

والاستعظام، إذا كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا"[1]، فبكاء الميت أو التعبير عن مشاعر الحزن والأسى هو الجانب المهم في الرثاء، فقد يستقيم الرثاء دون عدّ المحاسن، ولكنّه لا يستقيم دون عواطف الحزن والأسى[2]، والرثاء كذلك لغة القلوب وحديث العاطفة، وهو أنّةُ المحزون وصرخته وقطعة من قلب المفؤود وكبده المتقطع، وآية ناطقة بفداحة الخطب وهول المصائب، لا ترسله الألسن إلا من صدور مكلومة وأفئدة موجعة ونفوس باكية وقلوب ملتاعة، شفاها الحزن وصدعها الهم واستولت عليها الحسرة وأضناها الأسى[3]، وممّا يدلّ على شدّة تأثيره في النّفوس ما رواه الباهلي من أقوال العرب حيث قال:"قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال لأنّا نقول وأكبادنا تحترق"[4].

وأشيعُ المعاني في الرثاء أن يصور الشاعر الفجيعة، وأن يحلل تأثيرها في نفسه، وفي نفوس الناس الذين تربطهم بالفقيد رابطة من صداقة أو نسب، وأن يعدد مناقبه كالشجاعة والكرم والنجدة والشرف، وأن يدعو له بالسقيا بعد الموت، كما كان يدعو له بها في الحياة، فإذا دعا له أحسّ بأنّه ردّ إليه بعض الحياة التي فارقته. وربما وصف الشاعر حزنه وربّما أعرض عنه، فإن كان الفقيد قتيلا مضى الشاعر يهدد قتلته، ويحرض على إدراك الثأر، وإن كان قد لقي الموت حتف أنفه تجلّد وتصبّر والتمس السلوان، ومضى يقيس مصابه بمصاب الآخرين، ويأخذ العبرة من مصارع الملوك والجبابرة، ومن هلاك الضواري والكواسر[5]، يقول ابن رشيق:"ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك

1- العمدة في محاسن الشعر و آدابه: ابن رشيق القيرواني، تح: عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422ه/2001م، ج2، ص: 96.

2- ينظر دراسات في الأدب الجاهلي: عبد العزيز نبوي، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ط2، 2003م، ص: 148.

3- ينظر الأدب العربي في الأندلس: عبدالعزيز محمد عيسى، مطبعة الاستقامة، د.ط، د.ت، ص: 133.

4- البيان و التبيين: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج2، ص: 320.

5- ينظر الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ص: 195-196.

الأعزة والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الغادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود، لا يكاد يخلو منه شعر"[1]، فمهما كانت قوة المخلوق فلا بدّ أن ينهل من كأس المنية ذلك أنّ لكل أجل كتاب، و تجدر الإشارة إلى أنّ الرثاء ألوان شتى منها الندب، وهو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب حيث يعصف بهم الموت أو هو "النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة"[2]، وثمّة نوع يطلق عليه اسم التأبين وهو فن التعبير عن حزن الجماعة لفقدان الميت وأصل التأبين هو "الثناء على الشخص حيا أو ميتا، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط؛ إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه، ويعددوا فضائله، ويشهروا محامده...،وكأنّهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مرّ السنين[3]، وإذا تجاوز الراثي في رثائه حدّ اللوعة والبكاء ليصل إلى التأمّل في حقيقة الموت والحياة فإن رثاءه هو العزاء و "أصل العزاء الصبر، ثمّ اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر"[4]، وقد اتسعت موضوعات الرثاء وتنوعت اتجاهاته، فهناك الرثاء الرسمي ورثاء الأهل والأقارب، ورثاء الغلمان والرثاء المعنوي ورثاء المدن[5].

وهذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين لم يختلف أو لم يخرج عمّا كان عليه عند المشارقة في رثاء الميّت والتفجع عليه، غير أنّ المغاربة

1- العمدة في محاسن الشعر و آدابه، ج2، ص: 150.
2- الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص: 12.
3- ينظر المرجع نفسه، ص: 54.
4- المرجع نفسه، ص: 86.
5- ينظر، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 166.

والأندلسيين بخاصة قد تفوّقوا في رثاء الممالك البائدة والمدن المتساقطة تباعا في أيدي النصارى، وفيما يلي سنعرض نماذج شعرية من هذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، يقول الشاعر ابن باجة*في رثاء الأمير أبي بكر بن إبراهيم أبي يحيى الصحراوي:

أَيُّهَا المَلِكُ قَدْ لَعَمْرِي نَعَى المَجْـ ـدُ نَوَاعِيكَ يَوْمَ قُمْنَا فَنُحْنَا

كَمْ تَقَارَعْتَ وَالخُطُوبَ إِلَى أَنْ غَادَرَتْكَ الخُطُوبُ فِي الدَّهْرِ رَهْنَا

غَيْرَ أَنِّي إِذَا ذَكَرْتُكَ والدَّهْـ ـرَ إِخَالُ اليَقِينَ فِي ذَاكَ ظَنَّا

وَسَأَلْنَا مَتَى اللِّقَاءُ فَقِيلَ الْـ ـحَشْرِ قُلْنَا صَبْرًا إِلَيْهِ وَحُزْنَا[1]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يرى مخاطبة الشاعر للميّت وكأنّه حيّ أمامه ولعلّ ذلك راجع لشدة وقع المصيبة على نفسه، ليمرّ إلى بكائه وإبراز فضائله، فقد نعاه المجد قبل النّاس وقد شهدت له المصائب والنوازل بشدة البأس وعظيم الشجاعة ليسلم الشاعر في الأخير بحتمية القضاء ويسلي النفس بصبر جميل على أمل اللقاء يوم الحشر، وهذا الأعمى التطيلي يعبر عن حزنه لفقد زوجته آمنة فيقول:

آمـنُ إِنْ أَجْزَعْ عَلَيْك فَإِنَّنِي رُزِئْتُك أَحْلَى مِنْ شَبَابِي وَمِنْ وَفْرِي

بِرُغْمِي خُلِّيَ بَيْنَ جِسْمِك وَالثَّرَى وَإِنْ كُنْتُ لاَ أَخْشَ التُّرَابَ عَلَى التِّبْرِ

هَنِيئًا لِقَبْرٍ ضَمَّ جِسْمَكَ إِنَّهُ مَقَرُّ الحَيَا أَوْ هَالَةُ القَمَرِ البَدْرِ

---

*أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ التجيبي السرقسطي، كان طبيبا شاعرا رياضيا فلكيا، عاش في زمن المرابطين، اتهم بالزندقة و الإلحاد فأمر بقتله، وقد اختلف في تاريخ وفاته بين 528ه و 533ه/ ينظر نفح الطيب، ج7، ص: 17-29،/ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط14، 1999م، ج8، ص: 07.

1- نفح الطيب، ج7، ص: 21.

إِذَا جِئْتِ عُدْنَا فَاطْلُبِينَا فَقَلَّمَا   تَقَدَّمَتْنِي إِلاَّ مَشَيْتُ عَلَى الإِثْرِ

وَلاَ تَعْذِلِينِي إِنْ أَقَمْتِ فَرُبَّمَا   تَأَخَّـــرَ بِي سَعْيٌ وَأَثْقَلَنِي وِزْرِي[1]

يصوّرالشاعر هول مصابه وعظيم رزيته في فقدان زوجه، ويبدو من خلال شدة تأثره أنّها كانت نِعم الزوجة حسنة العشرة، ورجاؤه لها في آخر البيتين لنيل جنة عدن دليل على صلاحها و على رضاه عنها فلطالما كانت سباقة للخير.

وإذا ما ذهبنا إلى القرن السابع الهجري ببلاد المغرب الإسلامي، وجدنا مخمسة من البحر البسيط للشاعر "عمر المرتضى"* يرثي فيها نفسه يقول منها:

قَهْرُ المنِيَّةِ تَحْتَ التُّرْبِ أَسْكَنَنِي   وَمَا أَخَذْتُ مِنَ الدُّنْيَا سِوَى كَفَنِي

فَيَا بُنَيَّ وَ يَا إِلْفِي وَ يَا سَكَنِي   تَاللهِ لَوْ كَانَ لِي حُكْمٌ عَلَى زَمَنِي

يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ مَا فَارَقْتُكُمْ أَبَدًا

أَنَا الغَرِيبُ بِأَرْضٍ ضَاقَ مَسْلَكُهُ   مَعَ البَنِينِ وَلَكِـنْ كُنْتُ أَسْلُكُهُ

مَا كَانَ ظَنِّي صَغِيرُ القَوْمِ أَتْرُكُهُ   فِي حُجْرِ مُرْضِعَةٍ يَحْبُو فَتُمْسِكُهُ

بِالرُّغْمِ مِنِّي تَرَكْتُ المَالَ وَالوَلَدَا[2]

1- ديوان الأعمى التطيلي، ص: 70.

* أبو حفص عمر بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الملقب بالمرتضى، كان واليا في رباط الفتح ثم عقدت له البيعة بمراكش بعد وفاة المعتضد، و قد كان ينظم الشعر و له معرفة بالأدب، قتل سنة 665هـ-1266م/ الإعلام: المراكشي، ج9، ص: 285-290.

2- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد بن تاويت، نشر و توزيع دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1402هـ-1982م، ج1، ص: 354-355.

يتصوّر الشاعر في هذه الأبيات الحِمَام عاجله وانتهى به المصير إلى قبره وحيدا رفقة كفنه مستسلما لقدر الله عزّ وجل، تاركا أقاربه وأهله يبكونه بحرقة وبدموع سخيّة، متحسرا على عدم وداعهم، ومعترفا بغربته في قبره غير أنّ ما حزّ في نفسه تركه ابنا صغيرا لايزال يرضع في حضن أمّه، فقد غادر الأحبّة مرغما تاركا المال والولد، وهي سنّة الله في خلقه وقدره الذي لا مفر منه.

وعن رثاء المدن وتصوير أحوالها البائسة في هذه الحقبة نجد أنّ المحنة التي أصابت بلاد الأندلس وعجلت بتهاوي مدنها الواحدة تلوى الأخرى، قد أذكت لوعة الشعراء واستثارت قرائحهم فبكوا مدنهم بكاء حارا، وتفجعوا على ضياعها ووصفوا ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير وما حاق بأهلها من صنوف العذاب وضروب الذلّ والهوان، ولعلّ أشهر مراثي المدن الأندلسية نونية أبي البقاء الرندي*، وهي نونية شهيرة رثى فيها معظم المدن الأندلسية التي سقطت في عصره مثل قرطبة وجيان وشاطبة ومرسية وبلنسية وإشبيلية، وقد نظمت بعد تقوض المدن الأندلسية وسقوطها نهائيا في يد النصارى بخلاف المراثي السابقة التي نظم معظمها أثناء محاصرة النصارى لهذه المدن وخلال سقوطها ما جعلها تأخذ طابع التهويل والتفجع وخلط الرثاء بالاستصراخ وطلب النجدة[1]، يقول أبو البقاء الرّندي من مرثيته:

لِـكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَـا تَـمَّ نُقْـصَـانُ   فَلاَ يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَانُ

---

*صالح بن أبي الحسين يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، رندي، تختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطيب، كان خاتمة أدباء الأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام و منثوره، فقيها حافظا، له- -مقامات بديعية في أغراض شتى، من مؤلفاته "الوافي في علم القوافي"، توفي سنة 684هـ-1285م/ الذيل و التكملة، ج2، ص:128-129، الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تح: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، ج3، ص: 360.

1- ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص: 187.

هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

وَهَذِهِ الدَّارُ لاَ تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ[1]

الملاحظ أنّ أبا البقاء الرّندي استهل نونيته بحكمة تحمل موعظة مفادها التحذير من الاغترار بطيب العيش داعيا إلى أخذ العبرة من الحياة ذاكرا أنّ كلّ شيء يؤول إلى الزوال لأنّ دوام الحال من المحال، ثمّ ينتقل الشاعر ليصف ما حلّ ببلاد الأندلس، فيقول:

دَهَى الجَزِيرَةَ أَمْرٌ لاَ عَزَاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلاَنُ

أَصَابَهَا العَيْنُ فِي الإِسْلاَمِ فَامْتُحِنَتْ حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وَبُلْدَانُ

فَاسْأَلْ بَلَنْسِيةَ مَا شَأْنُ مُرْسِيَةَ وَأَيْنَ شَاطِبَةُ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ

وَأَيْنَ قُرْطُبَةَ دَارَ العُلُومِ فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ

وَأَيْنَ حمّص وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ وَنَهْرُهَا العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلْآنُ

قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانَ البِلاَدِ فَمَا عَسَى البَقَاءَ إِذَا لَمْ تَبْقَى أَرْكَانُ[2]

إنّ مصاب الأندلس عظيم وخطبها أعمّ تداعت له مشارق الأرض، فتهاوى لوقعها أحد وانهد ثهلان، فقد أصابها العين في الإسلام فزالت بزواله بعدما توالت عليها البلايا. إنّ نبرة الحزن والأسى على قواعد الإسلام بادية بين طيّات هذه الأبيات، فقد بكاها شاعرنا وتساءل في حسرة عمّا أصاب هذه القواعد التي كانت منابرا لنشر العلم ومقاصدا للتأمّل في روعة خلق الله، فقد زالت هذه البلاد بزوال هذه الأركان.

1- نفح الطيب، ج4، ص: 487.

2- المصدر نفسه، ج4، ص: 487.

وخلاصة القول إنّ غرض الرثاء في بلاد المغرب الإسلامي غداة القرنين السادس والسابع الهجريين قد كثر عند شعراء هذه الحقبة لتوفر الأسباب المساعدة على ذلك؛ فالمنطقة تعج بالصراعات والحروب فكان من الطبيعي بروز هذا الغرض لوجود دواعيه، كما أنّ "المنطقة كانت تسير ثقافيا في ركاب قطار الثقافة المشرقي موضوعا وشكلا أوبناء ومحتوى"[1]،فكان النص الرثائي مقتفيا آثار المشارقة منسجما مع قصائد الشعر العربي حزنا وتألما، فقد رثى شعراء هذه البلاد الخلفاء والأمراء والعلماء كما رثوا الأهل والأقارب والأصدقاء سيرا على منهج القدماء، بيد أنّ ما ميّز هذا الغرض في هذه البلاد هو تفوق شعرائها في رثاء مدنهم المتساقطة على نحو ما رأينا عند أبي البقاء الرندي، وقد تراوحت أساليب الرثاء بين الندب والنواح الذي يكثر فيه تصوير مشاعر الحزن، وبين التأبين الذي يكثر فيه تعداد مناقب الفقداء على نحو ما رأينا عند ابن باجة، ومهما يكن فغرض الرثاء قد واكب حياة الإنسان المغربي إبّان هذه الحقبة سواء كانت على شكل مصائب أم فتن أم أحداث داخلية أم تقلبات خارجية شهدت زوال دول وقيام أخرى.

الغزل:

يُعدّ الغزل من أقدم الفنون الشعرية عند العرب و أكثرها شيوعا لأنّه متصل بطبيعة الإنسان و بتجاربه الذاتية خاصة و إنّ الحب يحرّك كلّ القلوب، و الشعراء دون غيرهم يصوّرون هذا الحب بعاطفة صادقة فيتدفّق على ألسنتهم من وجدان مرهف ليعبر عمّا يجيش في خاطر الشاعر و عمّا يختلج في قلبه[2].

إنّ ما ذهب إليه سراج الدين محمد في هذا القول صحيح إلى حدّ ما، غير أنّ الشعراء ليسوا وحدهم من يصوّر الحبّ بعاطفة صادقة، فهناك أيضا الرسائل الغرامية بين العشاق

1- مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم: العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت، ص: 81.

2- ينظر الغزل في الشعر العربي: سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية،بيروت، لبنان، د.ط، د.ت،ص: 06.

وقد ذكر مصطفى صادق الرافعي نماذج منها تكاد تعدّ على رؤوس الأصابع غير أنّه يعلل ندرتها بقوله: "...لأنّ الشعر أيسر عملا وأخفّ مؤونة في هذا الباب، إذ يعين بقوافيه على الإبداع في المعاني فإنّ القافية كثيرا ما تخترع المعنى وتلهمه الشاعر، ثمّ الشعر يصحبه الوزن واللحن فيُعين بنسقه أيضا كما يعين بقوافيه، ثمّ تجيء ألفاظه مقدودة مفصلة.،، بخلاف الكتابة: فلا يجدي فيها السطران والأسطر القليلة في رسالة تصف الحب، وما ستر هناك يفضح هنا، وما أعان في الشعر يخذل في النثر، والشعر إجمال والكتابة تفصيل"[1]، فالغزل ينبع من النفس بعد أن يتفجر الحب في أعماقها، وبما أنّ الحب إحساس مشترك بين جميع الناس، فإنّهم يجدون لذة في سماع أشعار الحب فيتخيل كل واحد أنّ هذا الشعر يمثل قصته و يحكي آلامه و آماله.

إنّ هذا التعبير عن الذات عاطفيا حمل مصطلحات عديدة منها: الغزل والنسيب والتشبيب، فمن العلماء من ذهب إلى أنّ الكلمات الثلاث مترادفة وتعني تعبير الشاعر عن جمال المرأة وإبداء مشاعره تجاهها، فهذا ابن منظور يرى أنّ الغزل: حديث الفتيان والفتيات، والغزل أيضا: اللهو مع النساء، ومغازلتهن: محادثتهن ومراودتهن، ورجل غزل: متغزل بالنساء على النسب، و العرب تقول أغزل من الحمى، يريدون أنّها معتادة للعليل متكررة عليه فكأنّها عاشقة له متغزلة به[2]، والنسيب: التشبيب، يقال نسب بالنساء، شبب بهن في الشعر وتغزل، والنسيب رقيق الشعر في النساء[3]، وقال عنه ابن رشيق أيضا: "حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها قريب المعاني سهلها، غير كزّ ولا غامض، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر الماء، ليّن الأثناء، رطب المكر، شفاف

1- أوراق الورد- رسائلها و رسائله - مصطفى صادق الرافعي، الطبعة العاشرة، 1402هـ-1982م، ص: 16-17.

2- لسان العرب، ج10، حرف اللام، مادة(غ ز ل) ص: 61.

3- المصدر نفسه، ج14، ص: 112.

الجوهر، يطرب الحزين، ويستخف الرصين"[1]، ومن الباحثين من ذهب إلى أنّ هناك فرقا بين المفردات الثلاث، فهذا غازي طليمات يعرض لبعض الأقوال:"ومنهم من قال: الفرق بين النسيب والغزل: إنّ الغزل معنى إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهنّ من أجله، فكان النسيب هو ذكر الغزل، والغزل هو التصابي والاشتهار بالمحبة...، والغزل هو الأفعال والأقوال الجارية بين المحب والمحبوب"[2]،ثمّ يعلق على هذا القول مستنبطا أنّ الغزل "قول وفعل فيه وصف الحسن وإطراؤه، ومعايشة المرأة ومراودتها، وفيه الجمع بين التغنيّ بالجمال والمداعبة المفضية إلى الوصال"[3]، أمّا النسيب - ومعناه رقيق الشعر - والتشبيب - وجوهره ترقيق الشعر بذكر النساء - فإنّهما يخصان الشعراء ولا يحسنها غيرهم، فإذا ثبت أنّ هذه الفروق صحيحة فالنسيب والتشبيب بهذا الغرض من أغراض الشعر أولى وتسمية الغزل بهذين الاسمين أو بواحد منهما أدق وأحق[4]، ومهما يكن فالغزل أدب وجداني يعبر عن الأحاسيس في مجالات الحب، لا أدب وصفي يرسم المظاهر الخارجية، إنّه استحضار لماض سعيد أو شقي، ترك في العين دمعة أو في القلب لهفة... فلا غرو أن يتخذ الشعراء من الصّلة الطبيعية التي أوجدها الله عزّ وجلّ بين الرجل و المرأة لإقامة بناية الغزل الكبرى[5]، والمتتبع لهذا الغرض في الشعر العربي يجده بكل أنواعه، التي من أشهرها: العذري و الحسي، فالعذري "هو حب خالص من شوائب الدنس، هو حب طاهر شريف، لا يعرف مخزيات المآثم، و لا منديات الأهواء"[6] لذا كثر

1- العمدة، ابن رشيق القيرواني، ج2، ص: 81.
2- الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه: غازي طليمات، ص: 108-109.
3- المرجع نفسه، ص: 109.
4- الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه: غازي طليمات، ص: 109.
5- الغزل تاريخه و أعلامه: جورج غريب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1960م، ص: 07.
6- العشاق الثلاثة: زكي مبارك، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، مصر، د.ط، د.ت، ص: 13.

الحديث عنه؛ فهو ضرب من الغزل يصوّر خلجات النفس و أفراح اللقاء دون التعرض للمواضع الحسية في المرأة.

أمّا الحسي فيقصد به "ذلك الغزل الذي يُشَرِّح جسم المحبوبة و يصف لنا مواطن الجمال في كل عضو من أعضائها، فهو غزل حسي يُشعر الإنسان بِنَهم صاحبه واهتمامه بالجانب الحسي من المرأة، ثمّ إنّه يتحدث عن المغامرات مع النساء بجرأة و صراحة"[1]، ولا ينبغي أن نغفل نوعا آخر عُرِف كذلك عند شعراء بلاد المغرب الإسلامي ألا وهو الغزل بالمذكر، فقد نقلت كتب الأدب و التراجم و الأخبار بعض الأبيات التي قيلت في هذا الموضوع في هذه الحقبة والمتتبع لمقطوعات الغزل بالمذكر لا يجد فرقا كبيرا بينه وبين الغزل بالمؤنث، فهناك تشابه كبير في نعت هذه الأوصاف، وقد ازدهر هذا النوع ونما في الشعر الأندلسي بخاصة و أضحى له شعراؤه الذين عرفوا به[2].

إنّ شعراء بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس و السابع الهجريين قد عبّروا عن أحاسيسهم تجاه المرأة كغيرهم من الشعراء، فالتفتوا لهذا الغرض ينظمون فيه، مبدعين نصوصا غزلية ضاهت في جمالها أشعار كبار الشعراء المشارقة، ومتطرقين لهذا الضرب بأنواعه ومعانيه العديدة، فهذا أبو بكر بن زهر* يكشف عن مكانة محبوبته قائلا:

رَمَتْ كَبِدِي أُخْتُ السَّمَاءِ فَأَقْصَدَتْ   أَلاَ بِأَبِي رَامٍ يُصِيبُ وَلاَ يُخْطِي

قَـرِيبَـةٌ مَا بَيْنَ الخَـلاَخِيلِ إِنْ مَشَتْ   بَعِيدَةُ مَا بَيْنَ القِلاَدَةِ والقُـرْطِ

1- الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين: علي إبراهيم كردي، ص: 197.

2- ينظر المرجع نفسه، ص: 205.

* أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الإيادي الأندلسي الإشبيلي، حفظ القرآن الكريم و سمع الحديث الشريف، عرف بصناعة الطب و الإكثار من الشعر في القصيد والموشح توفي مسموما في مراكش سنة 595هـ/ ينظر معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت، 1980م، ج8، ص: 216،/ المعجب، المراكشي، ص: 144.

نَعُمْت بِهَا حَتَّى أُتِيحَتْ لَنَا النَّوَى   كَذَا شِيَمُ الأَيَّامُ تَأْخُذُمَا تُعْطِي [1]

إنّ المتأمّل في هذه النتفة يجد الشاعر يزاوج بين صفات محبوبته المعنوية والحسية مبديا أثر ذلك في نفسه، فقد أصاب الشاعر حب قمر السماء فتغنّى بجمالها رافعا من مكانتها لعظيم حبّها في قلبه، مُكنّيا عن حيائها بقِصر خطاها و معبرا عن جمال قدّها من طول عنقها ليختم الشاعر بقضاء الله عزّ وجلّ في التفريق بينهما معبرا عن نفس يئوس يشوبها ألم الفراق، وممّا جاء في الغزل الحسي، ما نجده عند أبي الربيع الموحدي:

يُرْسِلُ اللَّحْظَةَ سَهْمًا نَافِذًا   وَإِذَا اسْتَاءَ فَسَيْفًا مُرْهَفَا

حُبِي الثَّغْرِ مَعْسُولِ اللَّمَى   مَائِسَ القَدِّ رَطِيبًا أَهْيَفَا

حَمَّلَ الأَرْدَافَ خَصْرًا ضَامِرًا   وَاهِيَ الكَشْحِ هَضِيمًا مخْطَفَا[2]

يُبرز الشاعر في هذه الأبيات أوصافا حسية لمحبوبته بدءا بنظراتها المؤثرة والتي شبّهها بالسهم والسيف لينتقل إلى ثغرها معجبا بانتظام أسنانها وسُمرة شفتيها معرجا على رشاقة قدّها ولطافة خصرها، وهذه الأوصاف لا تكاد تخرج عن دائرة الشعراء الحسيين في التراث العربي.

وممّا جاء في التغزل بالغلمان ما ذكره الشاعر ابن العابد الفاسي*في وصفه لغلام وسيم:

وَشَادِنٍ فِي القُلُوبِ مَرْتَعُهُ   مُرْهَفِ القَدِّ أَهْيَفَ الخَصْرِ

1- تاريخ الأدب العربي، عصر المرابطين و الموحدين، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م، ج5، ص: 542.

2- ديوان أبي الربيع، ص: 52.

*أبو عبد الله بن العابد محمد بن علي بن العابد، الفاسي، ولد بفاس و تتلمذ على مجموعة من شيوخها، دخل الأندلس في حدود سنة 630هـ، و كان كاتبا محسنا شاعرا عالما باللغة والأدب والتاريخ، توفي سنة 662هـ-1263م/ الذيل والتكملة، ج5، ص: 227./ الإعلام: ابن إبراهيم السملالي، ج4، ص:243-246.

نَشْوَانُ مَنْ ذَاقَ خَمْرَ مُقْلَتِهِ فَمَا تُفِيقُ أَعْطَافُهُ مِنَ السُّكْرِ

رَمَاهُ قَوْمٌ بِالنَّقْصِ حِينَ غَدَا يُزْرِي جَمَالاً عَلَى سَنَا البَدْرِ

قَالُوا: سَوَادٌ بَدَا بِمَبْسِمِهِ وَمَا عَهِدْنَا السَّوَادِ فِي الدُّرِّ

فَقُلْتُ: مَا ذَلِكُمْ بِعَائِبِهِ كُفُّوا فَعِنْدِي حَقِيقَةُ العُذْرِ[1]

يُبرز الشاعر في هذه الأبيات محاسن الغلام، فهو البدر في طلعته، ممشوق القدّ أهيف الخصر، يشبه الظبي الغرير، فهو بجماله محبوب قلوب النّاس، يملك عينين ساحرتين لهما فعل الخمر، أسكراه هو قبل غيره فما تراه إلا متمايلا، ثمّ ذكر الشاعر حساده وكيف انتقصوه لوجود خال أسود على مبسمه، مدافعا عن جمال غلامه ملتمسا عذر الخال على شفته.

وختاما لهذا الغرض يمكن القول إنّ شعر الغزل في بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة المقصودة بالدراسة قد حافظ على سمات الغزل القديم سواء ما تعلق منه بشكل القصيدة أم معانيها أم لغتها أم أسلوبها، فقد تناول شعراء هذه البلاد العديد من الصّور الغزلية معبرين عن أحاسيسهم و تجاربهم الشعورية، راسمين صور محبوباتهم الحسية والعفيفة متأثرين بعوامل البيئة الثقافية و الظروف الاجتماعية، فكان هذا الغرض صورة عاكسة لذهنية ونفسية الشاعر المغاربي في هذه الحقبة.

الفخر:

يُعدّ الفخر من أغراض الشعر الغنائي يتغنى فيه الشاعر بنفسه أو بقومه انطلاقا من حب الذات كنزعة إنسانية[2]، فهو من أكثر فنون الأدب تأثيرا على فطرة الإنسان،

1- الذيل و التكملة، ج5، ص: 230.

2- الفخر في الشعر العربي: سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص: 05.

"ينطوي على زهو الشاعر واعتزازه بنفسه وقومه، وهو وليد الأثرة والإعجاب بالذات، وإذا كان الإنسان مفطورا على حب نفسه والإدلال بها وبمآثرها، فالشاعر المتميز برهافة الحس وفصاحة اللسان وجمال التعبير والتصوير أقدر من سواه على التفاخر وأجدر به"[1]، يقول عنه ابن رشيق في عمدته: "الافتخار هو المدح نفسه، إلاّ أنّ الشاعر يخص به نفسه وقومه وكل ما يقال فيه ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكلّما قبح فيه قبح في الافتخار"[2]. وقد أورد محمد مرتاض في كتابه الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي تعريفا يبدو شاملا لمفهوم هذا الغرض و دواعيه حين قال: "من العسير ايجاد مرادف مقبول لكلمة الفخر، ولا تثير الكلمة في الذهن فكرة النوع الأدبي، بل موقفا يدفع الشاعر إلى التميز من قبيلته، أو الانتصاب تجاه العدو ذاكرا محاسنه وصنائعه الفردية، أو مآثر أسرته وعشيرته، فيصبح الشاعر لمدة وجيزة مركز عالمه الذاتي، فإنّ أقوال الشاعر تتعلق بعامة بنوع المديح إلاّ أنّه يتميّز من المديح بنغمية و ميل إلى التبجح"[3]، ومن هنا قد يعمد فيه الشاعر إلى المبالغة و التهويل، و إطلاق الخيال الخصيب بعيدا عن الحقائق التاريخية.

وعن هذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس و السابع الهجريين نكاد نجزم أنّه لم يكن موضوعا قائما بذاته، فطالما ذُكر ضمن قصيدة غزل أو رثاء أو زهد أو وصف أو مديح، ولطالما كان في أكثره وليد صراعات نفسية ومادية ألمّت بالشاعر، هذا الأخير الذي وجد في الفخر متنفسا لرد كيد الأعداء والدفاع عن النفس والقبيلة، فمن

1- الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ص: 135.
2- العمدة، ابن رشيق، ج2، ص: 143.
3- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي: أ.د محمد مرتاض، ج1، ص: 211/ عن تاريخ الأدب العربي، بلاشير، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، تونس، ج1، ص:431.

المقطوعات التي تشتم منها رائحة الفخار ما ألفيناه عند بعض شعراء هذه الحقبة من مثل ابن القطاع الصقلي*:

يَا رُبَّ قَافِيَةٍ بِكْرٍ نَظَمْتُ بِهَا   فِي الجِيدِ عِقْدًا بَدْرَ المَجْدِ قَدْ رُصِفَا

يَوَدُّ سَامِعُـهَا لَوْ كَانَ يَسْمَعُهَا   بِكُلِّ أَعْضَائِهِ مِنْ حُسْنِهَا شَغَفَا

يبرز الشاعر في هذين البيتين براعته في نظم القريض مستعرضا صورة تسبي العقول، فقافيته بِكر لم يسبق إليها وكلماته دُرّ مرصوف زين عقد النظم، فمن حسنها يتمنى سامعها لو أنّ كل أعضائه نالت شرف سماعها بشغف.

وهذا ابن خفاجة** يفخر بنفسه وبنَفَرٍ من صحبه الذين يراهم على شاكلته من أهل بلده (شقر):

مَضَاءٌ كَمَا سُلَّ الحُسَامُ مِنَ الغِمْدِ   وَحَزْمٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزِّنْدِ

تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرَ النَّجِيعِ سُلاَفَةٌ   تُـدَارُ وَلاَ غَيْـرَ الأَسِنَّةِ مِنْ وِرْدِ

وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ   لِخِدْنِ العُلاَ تِرْبِ النَّدَى لِدَةِ المَجْدِ

---

*أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب، و يعرف بابن القطاع السعدي الصقلي، كان إماما في اللغة بخاصة وفي الأدب، واسع الاطلاع، وكان له شعر كثير حسن وله أيضا مؤلفات منها "الجوهرة الخطيرة في شعراء الجزيرة"، توفي في الفسطاط سنة 515ه/ خريدة القصر (قسم شعراء المغرب و الأندلس)، ج1، ص: 51./ الأعلام الزركلي، م4، ص: 269./ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح، تح: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1406ه-1986م، ج6، ص: 74.

**أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبيد الله الهواري، ولد بجزيرة شقر سنة 450ه-1058م، أديب أندلسي اشتهر بوصف الطبيعة، حتى لقب بالجنان و شاعر الطبيعة المرح، توفي سنة 533ه/ التكملة، ج1، ص 70./ وفيات الأعيان و أنباء الزمان، أبي العباس شمس الدين بن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1978م، ج1، ص: 56.

أَخُوضُ الظِّبَا تَخْضَرُّ فِي النَّقْعِ بِيضُهَا   فَأَلْقَى الـمَنَايَا الحُمْرَ فِي الحُلَلِ الرَّمْـدِ[1]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يجد ابن خفاجة سائرا على طريقة القدماء في استحضار معاني الفخر والحماسة فالمقطوعة تتكاثر فيها صور البطولة والنّضال وخوض الدماء في مواجهة الأعداء حتى ليُخيّل للقارئ أنها من العصر الجاهلي، فأصدقاء الشاعر لا يقلّون عن السيف حدة ولا عن شرار النار حزما ودمارا، فشرابهم دماء الأعداء ولا ورد لهم غير السهام الفاتكة بهم، والشاعر جزء من صحبه يخوض المنايا معهم فهو صديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، لا يخشى حدة السيوف ولا سحق الحروب.

وفي القرن السابع الهجري نلتقي بسهل بن مالك الأزدي*مفتخرا بعدما نالته محنة الظلم:

وَإِنِّي مِنْ عَزْمِي وَحَـزْمِي وَهِـمَّتِي   وَمَا رُزِقَـتْهُ النَّفْسُ مِنْ كَـرَمِ الطَّبْعِ

لَفِي مَنْصِبٍ تَعْلُو السَّمَـاءَ سِـمَـاتُهُ   فَتُثْبِـتَ نُورًا فِي كَـوَاكِبِـهَا السَّبْعِ

تَدَرَّعْتُ بِالصَّبْرِ الـجَمِيلِ وَأَجْلَبَتْ   صُرُوفُ اللَّيَالِي كَيْ تُـمَزِّقَ لِي دِرْعِي

فَمَا مَلَأَتْ قَلْبِي وَلاَ قَبَضَتْ يَدِي   وَلاَ نَحَتَتْ أَصْلِي وَلاَ هَصَرَتْ فَرْعِي

فَإِنْ عَرَضَتْ لِي لاَ يَفُوهُ بِـهَا فَـمِي   وَإِنْ زَحَفَتْ لِي لاَ يَضِـيقُ لَهَا ذَرْعِي[2]

إنّ المتأمّل في هذه المقطوعة يلمس بين طيّات أبياتها نفسا حزينة عانت ويلات القهر فعلى قدر الألم كان الفخر، فشاعرنا ذو نفس عزيزة كبيرة فرغم ما أصابها من صروف

1- ديوان ابن خفاجة، تح: السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1960م، ص: 346-347.

*أبو الحسن سهل بن محمد بن سهل بن أحمد بن مالك الأزدي، غرناطي، كان محدثا ضابطا، حافظا للقرآن الكريم، كاتبا مجيد النظم، امتحن بالتغريب عن وطنه ببغي بعض حسدته فأسكن مرسية مدة طويلة، توفي سنة 639ه/ الذيل والتكملة، ج2 (السفر الرابع)، ص: 98-99/ سير أعلام النبلاء، ج23، ص: 103.

2- الذيل و التكملة، ج2(السفر الرابع)، ص: 100.

الليالي التي ظلّت ثابتة صابرة صبرا جميلا، و لعلّ الشاعر في هذا متأس بالنبيّ يعقوب عليه السلام في محنته الذي قال الله تعالى على لسانه:﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[يوسف:83]، فهو يفتخر بتجاوز محنته ورباطة جأشه في مواجهتها، فقد ظلّ صامدا أمامها فلم تغير من أصله ولا مبادئه ولم يك للشكوى منها له محل.

الهجاء:

يُعدّ الهجاء من الموضوعات القديمة التي وجدت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، فهو "فن من فنون الشعر الغنائي، يعبر به الشاعر عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أوالاستهزاء، ويمكن أن نسميه فنّ الشتم والسباب، فهو نقيض المدح، ففي القصيدة الهجائية نجد نقائض الفضائل التي يتغنى بها المدح، فالغدر ضد الوفاء والبخل ضد الجود، والكذب ضد الصدق والجبن ضد الشجاعة والجهل ضد العلم"[1]، ففيه يتناول الشاعر بالذم والتشهير عيوب خصمه المعنوية و الجسمية[2]، وأبلغ أنواع الهجاء ما يمس المزايا النفسية كأن يصف الشاعر خصمه بالجبن والبخل والكذب والرذيلة والفحش وكل ما يحط من القيمة الإنسانية، وفي هذا يقول ابن رشيق: "والذي أراه أنا على كل حال أنّ أشد الهجاء ما أصاب العرض ووقع على النكتة"[3]، وقد سُمي الهجاء "شعر التاريخ" لأنّ الهجّاء مؤرخ يذكر مثالب الناس ومناقبهم، ويقص من التاريخ ما يستعين به على إحكام معنى

1- الهجاء في الشعر العربي: سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، ص: 06.
2- ينظر الأدب الجاهلي، قضاياه، أعراضه، أعلامه، فنونه: غازي طليمات وعرفان الأشقر، ص: 179.
3- العمدة، ابن رشيق، ج2، ص: 123.

الهجاء، حتى إنّنا لنقرأ كثيرا من الشعر الذي أُثِر عنهم في ذلك وفيه ذكر العادات وأخبار التاريخ[1].

وعن هذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، نجده أقل شأنا إذا ما قُرِن بالأغراض الشعرية الأخرى، ولعلّ السبب في ذلك هو تحفظ الشعراء عن الخوض فيه إلاّ بما تمليه الحاجة لذلك كاسترداد الكرامة والرد على كيد الأعداء، و لعلّ قِلّتَه في مصادر الأدب راجعة إلى تلك النزعة الأخلاقية التي سيطرت على أفكار بعض مؤرخي الأدب وتحكمت في كتاباتهم فجعلتهم يحجمون عن ذكره، ويضربون صفحا عن إيراده، وقد وجدت هذه النزعة عند ابن بسام من قبل فتحرج من ذكر الهجاء المقذع، وصان كتابه عنه لدوافع دينية وأخلاقية، و أشار إلى ذلك فقال: "وصُنت كتابي هذا عن شين الهجاء وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء"[2]. كما نجد المراكشي يصرح بعدم نقله لشعر الهجاء في ترجمته لابن حزمون فيقول: " وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيرا إلاّ أنّه أقذع فيه فلذلك لم أودعه هذه الأوراق، لأني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عني"[3]،إلاّ أنّ مصادر أخرى قد أوردت عدة قصائد ومقطوعات في هذا الغرض، يبلغ بعضها حد الإسفاف والإفحاش والإقذاع على نحو ما هو موجود في كتاب "زاد المسافر" لصفوان بن إدريس.

والمتتبع لهذا الضرب الشعري يجده متشعب الاتجاهات، فمن القصائد والمقطوعات ما عنيت بهجاء الأشخاص ومنها ما اتجهت إلى هجاء البلدان وأهاليها وأخرى إلى هجاء الجماعات والأحزاب، ذلك أنّ في المجتمع من العناصر من يستحق ذلك، يقول النويري:

1- ينظر مجلة المخبر، أبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، مقال بعنوان: الاستنجاد و أشكاله في الشعر الجزائري القديم، د. فاطمة دخية، العدد الثاني عشر، 2016م، ص: 275.
2- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج1، ص: 61.
3- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: المراكشي، ص: 217.

"ويستحق الهجاء من اتصف بسوء الخصال، واتسم بأخلاق الأرذال والأنذال وجعل اللؤم جلبابه و شعاره، والبخل غطاءه و دثاره"[1].

فمن الذين طرقوا هجاء الأشخاص في القرن السادس الهجري، ما وجدناه عند ابن اللبانة* في هجائه لرجل اسمه ابن السيد:

يَرُوقُكَ فِي أَهْلِ الجَمَالِ ابْنُ سَيِّدٍ   كَتَرْجَمَةٍ رَاقَتْ وَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى

حَكَى شَجَرَ الدَّفْلاَءِ حُسْنًا وَمَنْظَرًا   فَمَا أَحْسَنَ المَجْلَى وَمَا أَقْبَحَ المَجْنَى[2]

يصوّر الشاعر في هذين البيتين مهجوه منطو على سريرة وباطن خلاف ظاهره، فظاهره يسر الناظرين كما تسرّ مقدمة الكتاب قارئيها، فهو يشبهه في منظره بشجيرة الدّفلاء ذات الزهر الحسن غير أنّ لا رائحة ولا ثمر لها، وكأني بالشاعر يتهمه بالنفاق الذي يظهر صاحبه خلاف ما يبطن، وفي السياق نفسه تقريبا، يقول ابن صارة الشنتريني مخاطبا جماعة من فقهاء السوء، الذين تستروا بالرياء، وتظاهروا بالصلاح جاعلين من الدين قناعا لقضاء مصالحهم الدنيوية:

أَهْلَ الرِّيَاءِ لَبِسْتُمْ نَامُوسَكُمْ   كَالذِّئْبِ أَدْلَجَ فِي الظَّلاَمِ العَاتِمِ

فَمَلَكْتُمُ الدُّنْيَا بِمَذْهَبِ مَالِكٍ   وَقَسَمْتُمْ الأَمْوَالَ بِابْنِ القَاسِمِ

1- نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري، ج2، ص: 267.

*أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، ولد في مدينة دانية و نسب إلى أمه التي كانت فيما يبدو تبيع اللبن، كان أديبا كاتبا شاعرا مكثرا و مجيدا في الشعر، جال في معظم أقطار بلاد المغرب الإسلامي، و توفي بميورقة سنة 507هـ/ المعجب،ص: 147-149./ شذرات الذهب، ج4، ص: 20./ الأعلام الزركلي م 7، ص: 214.

2- ديوان ابن اللّبانة الداني، مجموع شعره، جمع و تحقيق: محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر و التوزيع، عمان، ط2، 2008م، ص: 138.

وَرَكِبْتُمْ شُهْبَ الدَّوَابِّ بِأَشْهَبٍ   وَبِأَصْبَغَ صُبِغَتْ لَكُمْ فِي العَالَمِ[1]

لقد علّق شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله: "وهو يتهمهم بالمراءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنّهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمته المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدرا لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم (191هـ)، وأشهب بن عبد العزيز (204هـ)، وأصبغ بن الفرج (225هـ)[2]. ومهما يكن فهو هجاء لاذع يشوه سمعة هؤلاء الفقهاء. وإذا ما جئنا إلى القرن السابع الهجري وجدنا أبا العباس الجراوي يهجو قومه وبلاده،فيقول:

يَا ابْنَ السَّبِيلِ إِذَا مَرَرْتَ بِتَادِلاَّ   لاَ تَنْـزِلَنْ عَـلَى بَـنِي غَـفْـجُـومْ

أَرْضٌ أَغَارَ بِهَا العَدُوُّ فَلَنْ تَرَى   إِلاَّ مُـجَـاوَبَـةَ الـصَّـدَى لِلبُـومْ

قَوْمٌ طَوَوْا ذِكْرَ السَّمَاحَةِ بَيْنَهُمْ   لَكِنَّهُمْ نَشَـرُوا لِـوَاءَ اللُّـــومْ

لاَ حَـظَّ فِي أَمْوَالِـهِمْ وَنَـوَالِـهِمْ   لِلسَّـائِلِ العَـافِي وَلاَ الـمَحْرُومْ

لاَ يَمْلِكُونَ إِذَا اسْتُبِيحَ حَرِيمُهُمْ   إِلاَّ الـصُّـرَاخَ بِدَعْـوَةِ الـمَظْلُومْ

يَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِهِمْ وَلَوْ أَنَّنِي   مِنْ أَهْلِ فَاسَ مِنْ بَنِي المَلْجُومْ[3]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يجد الشاعر يسلط لسانه على قومه بني غفجوم، مُوصٍ عابر السبيل ألا ينزل بهم، فديارهم خالية، فقد جعلهم من شرار الناس لا سماحة بينهم ولا فضل ولا كرم كما عيّرهم بضعفهم و ذلهم، فهم لا يستطيعون حماية أعراضهم إذا ما استبيحت نساؤهم، وفي الأخير تمنى لو لم يكن من هذه القبيلة و كان من غيرها.

1- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، العماد الأصفهاني الكاتب، ج2، ص: 330.
2- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول و الإمارات- الأندلس، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1، ص: 227.
3- نفح الطيب، ج2، ص: 502.

ومن لطائف الهجاء في هذا العصر ما نجده عند ابن حزمون* حين هجا نفسه فيقول:

تَأَمَّلْتُ فِي المِـرْآةِ وَجْهِي فَخِلْتُهُ ... كَوَجْهِ عَجُـوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهْوِ

كَأَنَّ عَـــلَى الأَزْرَارِ مِـنِّي عَــوْرَةً ... تُنَادِي الوَرَى غُضُّوا وَلاَتَنْظُرُوا نَحْوِي

فَلَوْ كُنْتُ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ لَمْ أَكُنْ ... مِنَ الرَّائِقِ البَاهِي وَلاَ الطَّيِّبِ الحُلْوِ

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلَ خَلِيقَتِي ... فَـإِنَّ بِهَا مَـا قَـدْ أَرَدْتَ مِـنَ الهَجْوِ[1]

إنّ الدارس للأدب العربي القديم والمتأمّل في هذه الأبيات يجد ابن حزمون قد ركب طريق الحطيئة، الذي هجا أمّه وأباه ونفسه، وهذا التقليد دليل على تأثّر شعراء هذا العصر بمن سبقهم من شعراء العصور السالفة، فشاعرنا قد صوّر نفسه بأقذع الصور وأبشعها حتى جعل من خليقته منبع استلهام معاني الهجاء لمن أراد ذلك.

الشوق والحنين:

يُعدّ الحنين من الموضوعات التي طرقها الشعراء قديما و حديثا، فهو سمة ملازمة للشعر العربي نسبة لظروف حياة الإنسان العربي التي تبعث على أن يظلّ متشوقا للدّيار والأهل حين مغادرتها، فهو نزعة وجدانية إنسانية، يعبّر الشاعر فيها عن رغبة ذاتية صادقة في رؤية من تغرّب عنهم، فقد كانت العرب تقول: "الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد"[2] وقد ذكره ابن رشيق في عمدته فقال: "وكانوا قديما أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر

*علي بن حزمون شاعر أندلسي من أهل مرسية، كان هجاء، في شعره عنف و إقذاع، فخافه القضاة و الولاة و بذلوا له العطايا، توفي 614ه/ الأعلام الزركلي، ج4، ص: 271/ المعجب، ص: 216.

1- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: المراكشي، ص: 216.

2- الحنين إلى الأوطان: أبي منصور محمد بن سهل المرزباني الكرخي، تح: جليل عطية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ص:54.

فلذلك أوّل ما تبدأ به أشعارهم بذكر الديار، ومقاصد الناس تختلف، فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال، وتوقّع البين والاشفاق منه، وصفة الطلول والحمول، والتشوق بحنين الإبل ولمع البرق، ومر النسيم وذكر المياه التي يلتقون عليها، والرياض التي يحلون بها"[1]. إذن هو تجربة شعورية يخوضها الشاعر معبرا فيها عن أشواقه وحنينه لمن فارق بنفس يشوبها الحزن والتأمّل، ولكل شاعر أفقه في طرق هذا الغرض، وتلوين أفكاره وأسلوبه وطريقة تناوله...، فهو غرض ينضح بالروح الوثّابة، والعاطفة المشبوبة، يسجل خطرات النفس في هواجسها، ودمعات المُقل في انسيابها، وزفرات الشوق في تصعيدها[2].

إنّ بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، كسائر الأقطار قد عرف شعراؤها هذا الغرض وأبدعوا فيه، لتظافر عدة عوامل طرأت على حياتهم، فجعلتهم يفتقدون نعيم التواصل مع أهلهم وذويهم وأماكنهم، فراحت عواطفهم تتدفق صادقة نابعة من أعماق ذواتهم، فينفثونها زفرات حرّى تحت وطأة الظروف الصعبة التي يعيشونها، وفي هذا يشير رضوان الدّاية إلى أنّ شعراء الأندلس بخاصة في هذه الفترة لهم شعر كثير في هذا الغرض، "من حيث الوفرة، أو قوة العاطفة، أو رنة الأسى، أو لهفة اللقاء نظرا لظروف الأندلس التي كانت في حال استنفار متواصل.."[3]، لأنّ الأندلسيين قد عاشوا محنة اغتراب مريرة بعد سقوط مدنهم، "فقوّض كثير منهم خيامهم، ورحلوا عن وطنهم وتركوا معاهدهم وديارهم، وفارقوا أهلهم وأحبابهم، وتقاذفتهم البلاد والفلوات، وذاقوا مرارة التشتت والضياع، فألقى بعضهم عصا التسيار في المغرب ورحل بعضهم إلى المشرق

1- العمدة: ابن رشيق، ج3، ص: 225.
2- ينظر: في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر للطباعة و النشر، دمشق، ط1، 2000م،ص: 133.
3- المرجع نفسه، ص: 133.

وكانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم، فجرى على لسانهم شعر كثير يصور هذه النزعة ويصف ما كان يضطرم في نفوسهم من مشاعر الشوق والحنين إلى ديارهم"[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشوق والحنين يكون للأوطان كما يكون للزمان والإنسان هذا الأخير الذي كثيرا ما يكون محبوبا للشاعر، وبذلك يمتزج شعر الحنين بأغراض شعرية أخرى كالرثاء والغزل و غيرهما، ومن نماذج هذا الغرض في القرن السادس الهجري ما وجدناه عند ابن خفاجة مصرحا بحنينه لمسقط رأسه "شقر":

وَحَنَّ إِلَى شُقَرٍ فَحَنَّ عَلَى السُّرَى   يَخُوضُ خَلِيجًا أَوْ يَجُوبُ كَثِيبَا
يَــؤُمُّ بِــهَا أَرْضًـا عَـلَيَّ كَرِيمَـةً   وَمُـرْتَبِعًا فِــيـهَا إِلَيَّ حَبِيبَا
وَنَهْرًا كَمَا ابْيَضَّ الـمُقْبِلُ سَلْسَلاً   وَجَزْعًا كَمَا اخْضَرَّ العَذَارُ خَضِيبَا
وَرُبَّ نَسِيمٍ مَرَّ يَخْطُـرُ عَاطِرًا   رَقِيقَ الحَوَاشِي لاَ يُحِسُّ دَبِيبَا
وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ بَـلَّةً   وَمِنْ نُورِ هَاتِيكِ الأَبَاطِحِ طِيبَا[2]

إنّ هذه المقطوعة تفيض شوقا وحنينا لبلدة الشاعر مدينة شقر، فابن خفاجة وإن تغرّب عن الديار وقطع الخلجان وجاب الصحاري القفار لا زال مرتبطا متعلقا بموطن أحبائه متذكرا لمناظره الخلابة التي كانت يوما ما ملهمة أشعاره ذاكرا نهرها الجاري، وأشجارها الوارفة الظلال، آملا مرور نسيم يذكره بها ويخفف من وطأة أشواقه بما يحمله من ريح بلدته الطيّبة، ويشير رضوان الداية إلى أنّ الشاعر ابن خفاجة قد خرج مضطرا عن بلدته شقر وعن شرق الأندلس جملة حين سطا القمبيطور الإسباني على تلك المنطقة وجعل بلنسية مركزا له متجها إلى المغرب[3]، وكانت نزعة الحنين تتأجج في نفس الشاعر أيضا حين يتذكر

1- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، ص: 156.
2- ديوان ابن خفاجة، ص: 112-113.
3- ينظر، في الأدب الأندلسي: محمد رضوان الداية، ص: 134.

أبناءه الذين تركهم ورحل عنهم بعيدا بحثا عن الرزق أو نحوه من الأسباب، وفي مصادر الأدب كثير من هذا الضرب الذي يصوّر حنين الآباء إلى أبنائهم وأهلهم، فمن ذلك قول الشاعر أبي بكر بن زهر متشوقا إلى ابنه:

وَلِي وَاحِدٌ مِثْلُ فَرْخِ القَطَاةِ   صَغِيرٌ تَخَلَّيْتُ قَلْبِي لَدَيْه

أَحِنُّ إِلَيْهِ فَيَا وَحْشَتِي   لِذَاكَ الشُّخَيْصِ وَذَاكَ الوُجَيْه

تَشَــوَّقَنِي وَتَشَــوَّقْتُهُ   فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْه

وَقَدْ تَعِبَ الشَّوْقُ مَا بَيْنَنَا   فَمِنْهُ إِلَيَّ وَمِــنِّي إِلَــيْه[1]

إنّ المتأمّل في المقطوعة يلحظ كيف يعتصر الشاعر ألما وشوقا وحنينا جراء فراقه لفلذة كبده مصوّرا هذا الأخير صغيرا يبادل ألم الفراق والشوق أباه، وهي سنّة الله في خلقه أن يحن كل منهما للآخر.

والمتتبع لهذا الضرب الشعري في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين يجده مزدهرا زاخرا بالمعاني الجياشة، آخذا بعدا عميقا في نفوس شعراء هذه البلاد بخاصة الأندلسيون، كما نلاحظ الإحساس بالغربة حين يرحل الشاعر من موطنه مجسدا في قصائده شحنة كبيرة من العواطف المتدفقة والمشاعر الحادة، ومعاني الحنين التي طرقها شعراء هذه البلاد لم تخرج عن المعاني التي طرقها شعراء المشرق غير أنّ ظروفا وعوامل خاصة جعلته متقدما ومزدهرا عمّا هو عند المشارقة.

1- زاد المسافر و غرّة محيا الأدب السافر: لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، تح: عبد القادر محداء، بيروت، 1358هـ- 1939م، ص: 29-30.

الوصف:

يُعدّ الوصف من أقدم موضوعات الشعر العربي وأكثرها حظّا من عناية الشعراء العرب في مختلف العصور، فقد " انتشر هذا الغرض بشكل واسع على أيدي الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى يوم النّاس هذا ولكنّهم مختلفون في الإجادة والإتقان وقليل منهم من يجيد الأوصاف كلها"[1].

إنّ القول بقدم الوصف لا يعني أنّه كان منذ ظهوره غرضا بارزا، تخصص له قصائد مستقلة، وإنّما كان يخالط الموضوعات الأخرى ويتسرب بين تضاعيفها ذلك أنّنا نجده مصاحبا لجل أغراض الشعر، فقد أشار إلى ذلك ابن رشيق في قوله: "الشعر إلا أقلّه راجع إلى باب الوصف، فلا سبيل إلى حصره واستقصائه...، وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثّله للسامع"[2]. وهذا يعتمد على براعة الشاعر، وقد ذكر الباحثون تعاريف كثيرة للوصف منها قول قدامة بن جعفر على أنّه "ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات"[3]، فهو يرسم أحوال الموصوف ويبين هيئته، وقد ذكر عمر فروخ أنّ" الوصف في كل شيء نوعان: خيالي وحسي، فالخيالي يعتمد الصوّر الفنية و يحاول أن يستحضر الموصوف من الذاكرة، أمّا الوصف الحسي: فهو تصوير للموصوف"[4]، وقد ذكر أبو هلال العسكري أنّ أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينيك"[5].

1- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي: أ.د محمد مرتاض، ج2، ص: 477.

2- العمدة، ابن رشيق، ج2، ص: 294.

3- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي: أ.د محمد مرتاض، ج2، ص: 477/ عن نقد الشعر لقدامة بن جعفر، مكتبة الخانجي بمصر، ص: 134.

4- تاريخ الأدب العربي-الأدب القديم- عمر فروخ، ج1، ص: 81.

5- المصدر نفسه، ص: 81.

وأمّا عن هذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين فأبوابه عديدة ومجالاته متنوعة، ولعلّ أبرزها وصف الطبيعة، وجمال العمران، ومجالس الأنس والطرب، فقد صوّر شعراء هذه البيئة الطبيعة ووقفوا عند كل جزء من أجزائها واصفين الرياض والأزهار والمتنزهات والأنهار وغيرها من مناظر الطبيعة، ولم يتركوا منظرا منها إلا وصفوه وتغنّوا به في أشعارهم[1] جاعلين بذلك وصف الطبيعة بأنواعها غرضا مستقلا بذاته، ولعلّ أهل الأندلس بخاصة قد برعوا في وصف الطبيعة وأحرزوا قصب السبق فيها دون غيرهم من الشعراء، وهذا ما ذكره المقّري في نفح الطيب حين قال: "وهم - يعني الأندلسيين - أشعر النّاس فيما كثره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس لا ينازعهم أحد في هذا الشأن"[2]، فانعكست هذه المناظر الخلابة في أشعارهم، فهاموا شوقا بما أبدعه الخالق المصوّر - سبحانه و تعالى - في هذا الكون.

إنّ موضوع وصف الطبيعة في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري لا يمكن أن نتجاوزه دون ذكر جنّان الأندلس ووصّاف الطبيعة المرح الشاعر ابن خفاجة فقد نعته المقّري بقوله:" أوصف النّاس للأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين"[3]. يقول من قصيدة يصف فيها نهرا:

لِلّهِ نَهْـرٌ سَـالَ فِي بَطْحَـــــاءَ   أَشْهَى وُرُودًا مِنْ لَمَى الحَسْنَاءِ

مُتَعَطِّفٌ مِثْـلَ السِّـوَارِ كَـأَنَّهُ   وَالزَّهْـرُ يَكْنُفُهُ مُجْرِ السَّمَاءِ

قَـدْ رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قُرْصًا مُفْرَغًا   مِـنْ فِضَّـةٍ فِي بُـرْدَةٍ خَضْـرَاءِ

1- ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، ص: 128.

2- نفح الطّيب، ج3، ص: 155.

3- المصدرنفسه، ج1، ص: 681.

وَغَدَتْ تَحُفُّ بِهِ الغُصُونُ كَأَنَّهَا   هُدْبُ يَحُفُ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ

وَالرّيحُ تَعْبَثُ بِالغُصُونِ وَقَدْجَرَى   ذَهَبُ الأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ المَاءِ[1]

يبدو شكل النهر في مستهل قول الشاعر، متعطفا متعرجا لكنّه يصوّره بعد ذلك مستديرا كالقرص أمّا لونه، فأبيض كالفضة غير أنّه في البيت ما قبل الأخير يغدو أزرقا وإن دلّ هذا على شيء إنّما يدلّ على أنّ الشاعر لم يكن يعنى بالمشهد، فيصوّره كما يراه بقدر ما يهمّه أن يتّخذ منه منطلقا لعرض فنّه وإبراز براعته، فابتعاد ابن خفاجة عن تصوير المشهد كما هو في الواقع والتضحية بحقيقة صفاته، واختيار صور من صنع خياله لدليل على تفوقه في هذا المجال، ويقول في فرس:

تَرَى بِهِ وَالنَّشَاطُ يُلْهِبُهُ   مَا شِئْتَ مِنْ فَحْمَةٍ وَمِنْ شَرَرِ

لَوْ حَمَلَ اللَّيْلُ حُسْنَ دُهْمَتِهِ   أَمْتَعَ طَرْفَ المُحِبّ بالسَّهَرِ

أَحْمَى مِنَ النَّجْمِ يَوْمَ مَعْرَكَةٍ   ظَهْرًا وَأَجْرَى بِهِ مِنَ القَدَرِ

كَأَنَّهُ وَالنُّفُوسُ تَعْشَقُهُ   مُرَكَّبٌ مِنْ مَحَاسِنِ الصُّوَرِ[2]

يرمز الشاعر في هذا الوصف لقوة نشاط الفرس بالشرر الملتهب، ومثل ذلك نراه عادة في النّار القوية اللّهب كالتي يستعملها الحداد، وسواد هذا الفرس ممتع للساهرين إذ ما كان لونا لليل، وفي البيت الثالث اختار الشاعر عبارة (أحمى من النّجم) أي شديد الضياء وهو رمز لبروز هذا الفرس وسط ساحة الوغى المزدحمة، فإن كان النّجم باديا وسط دجى الليل العتيم فإنّ الفرس في خفته ورشاقته وسرعته وسط المعركة نجم ساعة الظهر، فهو سريع كالقدر الذي لا توقفه قوة أمام نزوله وحلوله بالبشر، فهو معشوق النفوس لأنّه جمع

1- ديوان ابن خفاجة، ص: 13.

2- المصدر نفسه، ص: 124.

محاسن الصّور، وكثيرا ما يلجأ ابن خفاجة إلى التشخيص في وصفه للطبيعة، فيقول في الليل مثلا:

وَاللَّيْلُ قَدْ نَضَحَ النَّدَى بِسِرْبَالِهِ   فَانْهَلَّ دَمْعُ الطَّلِّ فَوْقَ صَدَارِ

لَبِسَ المَجَرَّ عَلَى السَّوَادِ فَخِلْتُهُ   مُتَرَهِّبًا قَدْ شُدَّ مِنْ زُنَّارِ[1]

لقد صوّر الليل راهبا نصرانيا يشد زنّاره على وسطه وجعل سربال الليل أو لباسه مزخرفا برشّات النّدى وإنما اختار هذا الراهب النصراني صورة للتشبيه لصفة واحدة تجمعهما هي صفة السواد فالليل بسواده يشبه لباس الراهب، وإذا ما جئنا إلى القرن السابع الهجري، وجدنا أبا الربيع سليمان يصف الطبيعة وما حوته من بديع خلق الله تعالى فيقول:

حَيِّ الرَّبِيعَ بِمَا وَشَتْ أَزَاهِرُهُ   وَنَظَمَتْ مِنْ أَكَالِيل عَلَى الشَّجَرِ

وَدَبَّجَتْ فَوْقَ مَتْنِ الرَّوْضِ مِنْ حُلَلٍ   ونَمَّقَتْهُ بِأَلْوَانٍ مِنَ الزَّهْرِ

مِنْ نَرْجِسٍ سَاحِرِ الأَلْحَاظِ ذِي غَنَجٍ   وَمِنْ أَقَاحٍ نَقِيِّ الثَّغْرِ ذِي أَشَرِ

هَذَا يُضَاحِكُ وَقْعَ الطَّلِّ عَنْ شَنَبٍ   وَذَا يُلاَحِظُ عَطْفَ النَّهْرِ عَنْ حَوَرِ

بِمَا تَضَوَّعَ رَوْضُ الزَّهْرِ غِبَّ حَيَا   تَأَكَّدَ الشُّكْرُ لِلنُّعْمَى عَلَى البَشَرِ

لاَ يَحْسِبِ النَّاسُ أَنَّ الرَّوْضَ فَاحَ لَهُمْ   طَوْعًا وَلَكِنَّهُ يُثْنِي عَلَى المَطَرِ[2]

النّص الذي بين أيدينا عبارة عن لوحة فنية جميلة يصف من خلالها الشاعر روضة في فصل الربيع ملمًّا بكل جزئياتها، وُرودها، ونداها وأزهارها ونهرها، وروائحها العطرة، فقد ازيّنت الأشجار بألوان مبهجة من الزهور والخضرة، وليست الأرض قشبا بديعية من

1- المصدرالسابق، ديوان ابن خفاجة ص: 124.
2- ديوان أبي الربيع، ص: 71.

العشب الأخضر والنرجس والأقاح فانتشرت في الأرض الروائح العطرة التي تملأ الأنوف، وقد لجأ الشاعر في هذا الوصف البديع إلى التشخيص والتجسيم بصور فنية رائعة حين شبّه النرجس بالألحاظ والأقاح بالثغر، وجعل الأقاح يضاحك الندى والنرجس يلاحظ النهر بعين حوراء، وكلها نِعم تستحق الشكر من البشر.

إنّ المتأمّل في نصوص أوصاف الطبيعة يكاد يجزم أنّها من أرقى وأروع النصوص في الأدب العربي وهذا ما ذهب إليه محمد مرتاض في قوله: "ممّا لا شك فيه أنّ من أجمل النصوص في الأدب العربي وفي الآداب العالمية كلّها - إن لم تكن أجملها - هي تلك التي تعنى بوصف مناظر الطبيعة وجمال ولادة الأرض المتجلي في التعبير عمّا يشتمل عليه فصل الربيع وما يحمله من صحو للأرض، وحياة للطبيعة ونماء للورود والزهور، وخيرات كثيرات لكل المخلوقات فالأرض في أثنائه تزدان بحلل سندسية وتتّمق بسرابيل زاهية، لأنّه يحدث انقلابا في الكون ويفجر عواطف الكائنات فلا ترى مانعا من التجاوب معه، والاستكانة لحكمه الذي لا يحمل قسرا أو إجبارا"[1]، وكلّ هذه المعاني المعبرة بحق عن وصف الطبيعة، يزخر بها نص أبي الربيع الموحدي.

ومن مواضيع الوصف التي كثرت في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين: وصف الحروب والمعارك وتسجيل وقائعها وأحداثها، ذلك أنّ هذه الفترة كانت مسرحا لأحداث سياسية كثيرة، فقد اتسعت رقعة الدولة الموحدية وبسط الموحدون قبضتهم على إفريقية والمغرب والأندلس وبذلوا جهودا مضنية للدفاع عن تلك المملكة

1- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي: محمد مرتاض، ج2، ص: 495.

المترامية الأطراف، فخاضوا حروب جهاد ضارية ضد النصارى وواجهوا فتنا داخلية أجهضت قوتهم و عجلت بالقضاء عليهم[1].

فمن شعراء القرن السادس الهجري الذين طرقوا هذا الباب، نجد الشاعر أبا حفص بن عمر يُصوّر التحاما بين الأبطال في ساحة الحرب قائلا:

يَتَعَانَقُـونَ إِذَا لَقَوْا أَعْـدَاءَهُـمْ   يَـوْمَ الكِفَـاحِ تَعَـانُقَ الإِخْـوَانِ

هَـا إِنَّمَـا ذَاكَ التَّعَانُقُ بَيْنَهُـمْ   مِـنْ شِـدَّةِ البَغْضَـاءِوَالشَّـنَآنِ[2]

يشتمل البيتان على صورة طريفة رسمها الشاعر لأبطال المعركة دون أن يكشف عن هويتها، فقد جعلهم إخوة يتعانقون بحرارة يوم الكفاح بعد طول غياب، ليستدرك أنّ هذا التعانق بسبب شدة الكره والبغضاء.

ومن القرن السابع الهجري، نجد الشاعر أبا العباس الجراوي يصف فتحا وانتصارا للمسلمين ضد النّصارى قائلا:

هُوَ الفَتْحُ أَعْيَا وَصْفُهُ النَّظْمَ وَالنَّثْرَا   وَعَمَّتْ جَمِيعَ المُسْلِمِينَ بِهِ البُشْرَى

وَأَنْجَـدَ فِي الدُّنْـيَا وَغَـارَ حَـدِيثُهُ   فَرَاقَتْ بِهِ حُسْنًا وَطَابَتْ بِهِ نَشْـرَا[3]

في البيت الأول يبدو الشاعر سائرا على نهج أبي تمام في وصفه لفتح عمورية:

فَتحُ الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ   نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ[4]

1- ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، ص: 78.
2- زاد المسافر، صفوان بن ادريس، ص: 144.
3- ديوان الجراوي، ص: 90-91.
4- ديوان أبي تمام، تقديم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1414هـ-1994م، ج1، ص: 35.

فالفتح الذي وصفه الجراوي عظيم كفتح عمورية لدرجة أنّ وصْفه قد أتعب الشعر والنّثر وأنّ خبر هذا الفتح قد وصل مشارق الأرض، فسمع به أهل نجد وغور تهامة في الجزيرة العربية، ومن قصيدة أخرى عن هذا الفتح يقول:

فَتْـحٌ مُبِيـنٌ جَـلَّ أَنْ يُتَخَيَّـلاَ ... جَاءَ الزَّمَانُ بِهِ أغـرُّ مُـحَجَّلاَ

بَهَرَتْ عَجَائِبُهُ الـخَوَاطِرَ فَاسْتَوَى ... مَنْ كَانَ فِيهَا مُجْمَلاً وَمُفَصَّلاَ

لاَ يَبْلُـغُ الـبُلَغَـاءُ غَايَةَ وَصْـفِهِ ... إِلاَّ إِذَا بَلَغُوا السِّمَاكَ الأَعْزَلاَ[1]

فذاك الفتح عظيم دائما مبجلا حسن يخلو من كل عيب، لا يبلغ وصفه البلغاء إلاّ إذا بلغوا النجم الأعزل، ولن يبلغوه أبدا.

وإذا ما أردنا الجمع بين الموضوعين البارزين في بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة -وصف الطبيعة ووصف الحروب- وجدنا أبا الربيع سليمان يجمع بينهما في صورة رائعة:

بَيْنَ الـرِّيَاضِ وَبَيْنَ الجَوِّ مُعْتَرَكٌ ... بِيضٌ مِنَ البَرْقِ أَوْ سُمْرٍ مِنَ السُّمُرِ

إِنْ أَوْتَرَتْ قَوْسَهَا كَفُّ السَّمَاءِ رَمَتْ ... نَبْلاً مِنَ الْمُزْنِ فِي دِرْعٍ مِنَ الغَدْرِ

فَتَحَ الشَّقَائِقُ جَرْحَاهَا وَمَغْنَمُهَا ... وَشْيَ الرَّبِيعِ وَقَتْلاَهَا مِنَ الشَّجَرِ

فَاعْجَبْ لِحَرْبٍ سِجَالٍ لَمْ تُثِرْ ضَرَرًا ... نَفْعُ الـمُحَارِبِ فِيهَا غَـايَةَ الظَّفَرِ

مِنْ أَجْلِ هَذَا إِذَا هَبَّتْ طَلاَئِعُهَا ... تَدَرَّعَ النَّهْرُ وَاهْتَـزَّتْ قَنَـا الشَّجَرِ[2]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يدرك براعة الشاعر في نقل صورة الحرب بأدواتها وجندها من خلال استعمال ألفاظ:(معترك، بيض، أوترت قوسها، الدرع، رمت نبلا، جرحها،

1- ديوان الجراوي، ص: 94.

2- ديوان أبي الربيع، ص: 140.

مغنمها، قتلى، السجال، المحارب، تدرع، اهتزاز القنا)، إلى وصف الطبيعة وتصوير المعركة قائمة بين الروض والجو المبرق وتشبيه قطرات المطر بالنّبال وتفتح الشقائق بالجراح والقتلى من الشجر، يقول محمد مرتاض معلقا على هذه الأبيات: "إنّ هذا الوصف الذي يدلّ على انغماس كلي، وذوبان روحي في الطبيعة جعله يضفي عليها من الصّور ما جعلها ترقى إلى الحس والتجسيد أحيانا على غرار ما كان يفعله الشاعر العباسي (البحتري)"[1]. ولعلّ ذلك التوظيف اللامتناهي للصور الفنية والذي يجعل القارئ يسبح في عالم من الخيال لخير دليل على دقة وبراعة وتفوق في هذا المجال، غير أنّ هذا الوصف ليس محدثا فقد سبق إليه جهابذة الشعراء أمثال البحتري و أبي تمام.

الموشحات:

الموشحات[2] هي لون خاص من النّظم، "ولدت في أحضان الطبيعة الأندلسية المترفة وتخلّقت أنغامها في بيئة المغنين والمغنيات، ووجدت رواجا كبيرا في أوساط الأمراء والحكام، وكانت في حقيقتها تعبيرا عن شخصية الأندلس الفنية واستقلالها الأدبي؛ كما كانت انعكاسا لما شاع في البيئة الأندلسية من ترف وتحضر"[3]، ويُعدّ القرنان السادس والسابع الهجريان من أزهى العصور التي ازدهرت فيها الموشحات الأندلسية، فقد احتفت هذه الحقبة بعدد كبير من الوشاحين البارزين الذين تركوا موروثا كبيرا من الموشحات ضاع معظمه ولم تبق المصادر منه إلا نحو مئة وثلاث وخمسين موشحة[4]، وقد عانى المغاربة

1- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي، ج2، ص: 514.
2- نشأة الموشحات الأندلسية، تطورها و أقسامها و لغتها، كتاب الموشحات الأندلسية: محمد زكريا عناني، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1980م، ص: 11.
3- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، ص: 325.
4- المرجع نفسه، ص: 330.

كذلك فنّ التوشيح، فكان محبوبا عند غير ملك من ملوك هذه الفترة، فقد توافد على المغرب عدد من الوشاحين الأندلسيين و اتصلوا بأهله وأقام غير واحد منهم به[1].

فمن الذين اشتهروا بفن التوشيح في القرن السادس الهجري نجد "الأعمى التطيلي" يقول:

ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانْ   سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ

ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانْ   وَحَوَاهُ صَدْرِي

آهٍ مِمَّا أَجِدْ   شَفَّنِي مَا أَجِدْ

قَامَ بِي وَقَعَدْ   بَاطِشٌ مُتَّئِدْ

عَابَثَتْهُ يَدَانْ   لِلصَّبَا وَالقَطْرِ[2]

إنّ مما يذكره رواة الأدب عن هذه الموشحة أنّ جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كلّ واحد منهم قد صنع موشحة وتأنّق فيها وبالغ في إحكامها وتنسيقها، فقدّموا الأعمى التطيلي للإنشاد، فلمّا افتتح موشحته هذه، خرق ابن بقي ما كان قد صنع وتبعه في ذلك الباقون[3]. وهذا دليل على براعته في هذا الفن.

ومن وشاحي القرن السابع الهجري "ابن حنون أبو العباس أحمد الإشبيلي" الذي قال عنه ابن سعيد في المغرب: "من بيوت إشبيلية و أغنيائها، آل أمرُه إلى أن اتُهم بالقيام على

1- العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين: محمد المنوني، دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، 1397هـ-1977م، ط2، ص: 147.
2- ديوان الأعمى التطيلي، ص: 277.
3- الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز محمد عيسى، ص: 166.

السلطان ففرّ على وجهه ثم عفي عنه"[1]، توفي سنة 640ه[2]، ذكره في كتاب زاد المسافر[3]، من موشحاته:

أَبَى أَنْ يَجُودَ بِالسَّلاَمْ فَكَيْفَ يَجُودُ بِالوِصَالْ

مَنْ كَانَتْ تَحِيَّةُ الوَدَاعْ مِنْهُ قُبْلَةً عِنْدَ الزَّوَالْ

عَنَاءُ المُتَيَّمِ المَعْنَى

أَثَابَ إِلَيْهِ أَوْ تُجْنَى

يَرُوقُكَ مَنْظَرًا وَحُسْنًا

وتجدر الإشارة إلى أنّ الموشحات في نشأتها ارتبطت بالأغراض المناسبة لنشأتها الفنية الموسيقية الشعبية كالغزل والنسيب والتشبيب، ومن الطبيعة ومجالسها، ثمّ وجد الوشاح هذا النمط الجديد من النظم ملائما لغرض المديح، وشيئا فشيئا صار يستخدم في سائر أغراض الشعر كالرثاء والهجاء والعتاب والشكوى والحنين وغير ذلك من الموضوعات والأغراض، ووجد أهل الزهد والتصوف في الموشح وفي الزجل أيضا وعاء طريفا لآرائهم وأفكارهم وقضاياهم[4]، وقد ذكرت المصادر عددا من الوشاحين الذين حفلت بهم بلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، فمن القرن السادس نجد: أبا بكر محمد بن أحمد الأنصاري الملقب بالأبيض(ت525ه)، وأبا بكر بن اللبانة(ت507ه)، وأبا القاسم المنيشي(ت557ه)، وأبا عامر بن بنق(ت547ه)، وأبا بكر محمد بن عبد الله بن زهر

1- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، حققه و علق عليه: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، ج1، ص: 249.

2- نفح الطيب، ج2، ص: 137.

3- زاد المسافر، صفوان بن ادريس، ص: 50.

4- ينظر، في الأدب الأندلسي: محمد رضوان الداية، ص: 190.

الحفيد(ت525هـ)[1]، ومن القرن السابع الهجري نجد ابن الياسمين أبا محمد عبد الله بن حجاج الإشبيلي(ت601هـ)، والسلمي أبا حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر(ت603هـ)، والجيلاني أبا الفضل عبد المنعم بن مظفر الغساني(ت603هـ)، وابن جبير أبا الحسن محمد بن أحمد الكناني(ت614هـ)، والأدريسي الجزائري أبا عبد الله ابن أحمد بن محمد بن أحمد(توفي أواسط القرن السابع)، وابن ميمون القلعي أبا عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي(ت673هـ)، وابن غيّاث أبا عمرو(620هـ)، وابن حريق أبا الحسن بن علي(ت622هـ)، وابن الهيثم الأديب الهيثم بن أحمد بن أبي غالب(ت630هـ)، وابن عتبة الطبيب الوشاح أبا يوسف(ت636هـ)[2].

الأزجال:

الزّجل والموشح أخوان غير أنّ للزجل سمات خاصة به تميّزه عن الموشح[3]، فهو شعر العامة اهتدوا إليه حين كان لا بدّ من التزام الإعراب في غالب أحوال الموشحات ولم يتيسر للعامّة السير في هذا الطريق، ولعلّ سبب تسميته بالزّجل ما رُوي: أنّ ابن قزمان القرطبي وهو صغير بالمكتب دخل عليه صبي مثله فأجلسه إلى جانبه وتشاغل بالحديث معه عن أداء واجبه، فلما رآه أستاذ المكتب على هذه الحال نهره وضربه فأخذ لوحه وكتب في أعلاه:

المـِلاَحْ أَوْلاَدْ إِمَـــــارَهْ وَالـوْحَـاشْ أَوْلاَدْ نْـصَـارَهْ

وَابَنْ قَزْمَانْ جَا يَغْفَرْ مَا قْبَلْ لَهْ الـشّيـخْ غْفَارَهْ

1- المرجع السابق، في الأدب الأندلسي ص: 192.

2- الموشحات الأندلسية: محمد زكريا عناني، ص: 135.

3- ينظر: في الأدب الأندلسي: محمد رضوان الداية، ص: 178.

فلمّا اطّلع الشيخ على اللّوح عجب وقال له: "هجوتنا بكلام مزجول" يعني مقطعا يترنّم به، إذ الزجل في اللّغة التطريب ورفع الصوت، ثمّ بقي له هذا الاسم لأنّه صار مما يتلذذ ويتغنى به بين جمهرتهم[1]، وقد أشار ابن خلدون إلى نشأة هذا الفن فقال: "ولمّا شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتميق كلامه، وتصريع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا على طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، واستحدثوا فنّا سمّوه بالزجل"[2]، وقد ازدهر هذا الفن في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، فراجت سوق الزجالين ولعلّ أكثر من مثل هذا الفن في هذه الفترة ابن قزمان*: فقد كان أهل الأندلس يقولون:" ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء"[3]. يقول من أحد أزجاله مادحا:

مِثْلْ ابْنْ تَشْـفِينْ يُقَالْ أَمِيـرْ وَالـخِلاَفَة مِنْ بَعْدْ عَادَتْ تْسِيرْ

بَـــارَكَ اللهُ فِي هَـاذَا الأَيَّــامْ

تَـجِي أَعْـوَامْ إِذَا مَضَـتْ أَعْوَامْ

وَيَجْعَلْهُمْ سَــــلاَطِينْ الإِسْلاَمْ

وَنَصَــرَهُـمْ كَمَا هُوَ نِعْمَ النَّصِيرْ[4]

1- ينظر: الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز محمد عيسى، ص: 173-174.

2- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، ص: 441/ عن مقدمة ابن خلدون، ص: 527.

*أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد نحو 480ه و توفي سنة 555ه، نشأ في قرطبة نشأة علمية أدبية، ونظم الشعر والموشح والزجل ولكنّه مال إلى الزجل وصار إمام أهل الزجل المنظوم/ المغرب، ج1، ص:100و167./ الوافي بالوفيات، ج4، ص: 300.

3- نفح الطيب، ج3، ص: 356.

4- المصدر نفسه، ج3، ص: 357 .

ومن القرن السابع الهجري نجد أبا الحسن الششتري*، فقد كان يطوف في البلاد ويردد أشعاره وموشحاته وأزجاله ويتبعه الأشياع والأصحاب ممن تسميهم المصادر بالفقراء[1]. ومن نماذج زجله قوله:

اسْـمَعْ كَـلاَمًـــا مُلْتَقَطْ　　افهمني قَطْ　　افْهَمْنِي قَطْ

إيـشْ قَـالْ لي وَاحَـدْ عَـلَّهْ

ذَا الـمَعْنَى افْـهَمْ شَـرْحَـهْ

إيـشْ اسْـمْ حُبَّكْ قُلْتْ: هُو

اسْـمْ الـمْلِيحْ مَـا يَخْتْلَطْ　　افْهَمْنِي قَـطْ　　افْهِمْنِي قَـطْ[2]

يقول محمد رضوان الدّاية معلقا على هذه المقطوعة: "زجل يجري على نسق الموشح من حيث شكله بترتيب الأقفال والأغصان، يبدأ بالمطلع و ينتهي بالخرجة ويلاحظ على الأقفال أنهّا تتألف من ثلاثة أجزاء يتجدد الأول في كل قفل ويتكرر الثاني والثالث على نهج يساعد الزّجال على تقريب مقصده إلى من حوله وتابعيه، ويساعده في التوكيد اللفظي والمعنوي"[3]، وتجدر الإشارة إلى أنّ الشعر التقليدي قد سيطر على موضوعات الزجل، فتناول الزجالون أغلب الموضوعات التي تناولها الشعراء كالغزل والمدح والطبيعة والخمر، وقد تميز الزّجل في هذه الفترة بتطويع موضوعين جديدين لأغراضه هما:

* أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري الأندلسي، ولد سنة 601هـ، درس علوم عصره وخصوصا القرآن والحديث و الفقه والأصول، نظم القصيد والموشح و الزجل وذاع صيته شرقا وغربا، توفي 668هـ/ عنوان الدّراية، الغبريني، ص: 140.

1- ينظر: في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 207.

2- ديوان أبي الحسن الششتري (شاعر الصوفية الكبير في الأندلس و المغرب)، تح: علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط1، 1960م، ص: 177.

3- في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 208.

الهجاء،والتصوف[1]، ومهما يكن فإنّ الزّجل أدب موضعي مؤقت يروّج بين ناظميه ومتكلمي لغتهم وفي بيئتهم، ويظلّ باقيا ومؤديا كل أغراضه ما بقي هؤلاء، ثمّ لا يلبث - حين تتغير لغة التخاطب وتتخذ ألفاظا غير ألفاظها وبيئة غير البيئة التي نشأت فيها - أن يضمحلّ ويتلاشى أو يكون أدبا أثريا على أنّه صورة مما كان، سواء أفهمت ألفاظه أم لم تفهم[2].

ختاما لهذه الإطلالة الموجزة على أهم المضامين الشعرية التي طرقها شعراء بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين يمكننا القول إنّ الشعر في هذه الفترة قد ازدهر ازدهارا كبيرا وتألقت في سمائه كوكبة من أشهر الأدباء والشعراء أمثال: الأعمى التطيلي(ت527هـ)،وأميةبن أبي الصلت(ت529هـ)، أبي حفص بن عمر الأغماتي(ت530هـ)،وأبي مدين شعيب التلمساني(ت594هـ)،وأبي الربيع الموحدي(ت604هـ)، وأبي العباس الجراوي(ت609هـ)، وعمر المرتضى(ت665هـ)، وابن العابد الفاسي(ت662هـ)، وأبي الحسن الششتري(ت668هـ)، وإبراهيم بن أبي بكر التلمساني(ت690هـ)، وغيرهم كثير ممن أسهم في النهضة الأدبية في هذه البلاد، فقد واكب الشعر في هذه الفترة الأحداث في شتى جوانبها وعبّر عنها في كل صورة من صورها بدء بتسجيل تلك النهضة العلمية عن طريق المتن المنظوم الذي أعطانا صورة عن الحياة الثقافية والفكرية في هذه الحقبة بعيدا عن الخيال والعاطفة إلى الاحتفاء بالشعر الديني ممثلا في الزهد الذي استمد معانيه من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثمّ التصوف الذي كانت قصائده جلّها في الحب الإلهي مبنية على لغة الرمز والإشارة مستمدة معانيها وأفكارها من شعر الغزل. أمّا فنّ المديح النبوي فقد شكل غرضا مستقلا بذاته، كما عرفت

1- ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 446.

2- ينظر: الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز محمد عيسى، ص: 180.

قصيدة المدحة انتشارا واسعا بخاصة في الطبقة الحاكمة، وقد واكب شعر الرثاء أحداث هذه البيئة مقتفيا آثار المشارقة منسجما مع قصائد الشعر العربي حزنا وتألما ومتفوقا عليها في رثاء المدن، وفي حديثنا عن الغزل وجدناه قد حافظ على سمات الغزل القديم سواء ما تعلق منه بشكل القصيدة أم بمعانيها أم بلغتها أم بأسلوبها عاكسا ذهنية ونفسية الشاعر المغاربي في هذه الحقبة، وقد طرق شعراء هذا العصر الهجاء فألموا بموضوعاته الفرعية كهجاء الأفراد والجماعات، كما وجدنا غرض الوصف مرآة عاكسة لطبيعة بلاد المغرب الإسلامي من خلال وصف مناظرها الجميلة وتسجيل أحداثها السياسية ممثلة في المعارك والفتوح التي خاضتها دول هذه البلاد في هذين القرنين، ولم نكتف بدراسة الشعر التقليدي وحده بل عرّجنا على الشعر الدّوري ممثلا في فن الموشح الذي عرف ازدهارا كبيرا في هذه الفترة على يد نخبة من الوشاحين أمثال: ابن اللّبانة(ت507هـ)، وأبي بكر بن زهر الحفيد(ت525هـ)، وأبي الحسن الششتري(ت668هـ)، كما عرضنا لفن الزجل كاشفين بعض خصائصه من مثل اقتفاء موضوعات ومعاني الشعر التقليدي.

ومن ثمَّ فإنّ هذه الأغراض قد كشفت لنا عن جانب من سمات شعر هذه الحقبة، كسهولة اللّغة وبساطة المعاني، كما كشفت لنا عن جانب من نفسية هؤلاء الشعراء التي تراوحت بين الحماسة والعاطفة الجياشة والانفعال الصادق، وهو ما وجدناه مجسدا في نماذجنا المدروسة.



الفصل الثاني:

المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرن السّادس الهجري:

أوّلا: وَقْفَة موجزة عند أهم المعالم الحضارية في المغرب الإسلامي

ثانيا: المدن و الحصون

ثالثا: القصور

رابعا: الرياض

خامسا: مجالس الأنس والتسلية

سادسا: العناية بالعلم ومظاهره

لقد شهدت بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري حياة مزدهرة حيث أصبحت هذه الحقبة من أخصب فترات حياتها في العصور الوسطى، "فقد نشأت على هذه الأرض أضخم دولتين عرفتهما هذه المنطقة، و في ظلال هاتين الدولتين برزت شخصية بلاد المغرب الإسلامي، باسطة نفوذها على مناطق شاسعة من الشمال الإفريقي فضلا عن الأندلس، ومشاركة غيرها في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية في غرب الدولة الإسلامية الكبرى"(1)، بما قدمته من نظم ومعالم مزدهرة في شتى جوانب حياتها، ونحن في هذا الفصل نحاول أن ننقل ما وصل إليه الإنسان العربي في هذه المنطقة الجغرافية وفي هذا القرن من مظاهر دلّت على رقيّه و تحضره معتمدين على الشعر الذي يُعَدّ سجلا أمينا مخبرا عن الحياة التي ترعرع فيها سواء أكانت عمرانية أم اجتماعية أو ثقافية علمية بلغة تناسب البيئة الحضارية التي تلهمه بألفاظ ومفردات وأغراض تلائم طبيعتها وبمواضيع نابعة من الوسط الذي نشأت بين أحضانه، وهذا ما نرمي الوصول إليه بالوصف والتحليل عبر هذه النماذج التي سنطرقها والتي بدت لنا أنّها تعكس الجوانب الحضارية لبلاد المغرب الإسلامي في هذا القرن.

أوّلا: وَقْفَة موجزة عند أهم المعالم الحضارية في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري:

وقَبل التّطرق للأشعار التي تناولت المظاهر الحضارية في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري، ارتأينا أن نعرّج على ذكر بعض أشهر و أهمّ الأعمال الحضارية التي عرفتها هذه البلاد في القرن المذكور، والتي بقيت معالمها إلى يومنا هذا شاهدة على رقي المستوى الحضاري -في جانبه المعماري بخاصة- في هذه الحقبة، فقد شهد القرن السادس

1- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين: حسن علي حسن، ص: 03.

الهجري أعمالا معمارية بارزة ظلّت باقية على مَرّ الدهور لتُعَرّف الأجيال المتعاقبة على السموّ الحضاري للدّول التي عاشت في هذا القرن، ومن أشهر تلك الأعمال:

أ- توسعة جامع القرويين:

يُعدّ جامع القرويين من أهمّ المساجد الجامعة في بلاد المغرب الإسلامي وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ[1]، وقد كانت هذه الجامعة تُضاهي الأزهر الشريف في العلم وتخريج الدعاة والعلماء والفقهاء[2]، ولقد مَرّ جامع القرويين بثلاثة أدوار، الأوّل عند تأسيسه سنة 254هـ/859م، والثاني عند الزيادة فيه سنة 345هـ/956م، والثالث عندما زيدت مساحته في القرن السادس الهجري على عهد علي بن يوسف سنة 530هـ/1135م[3]، وتولى مشروع زيادة مسجد القرويين و توسيعه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بسبب ضيق المسجد بالنّاس واضطرارهم للصلاة في الشوارع والأسواق في يوم الجمعة، وحرص أن يكون المال من أوقاف مساجد المسلمين*، وأشرف القاضي أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحضاري العظيم، ولقد تخرجت في جامع القرويين على مرّ العصور أفواج عديدة من فقهاء الأمّة وعلماء الملّة ودعاة الشريعة والمجاهدين الأبرار والقادة العظام، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة في نفوسهم، وتذكر كتب التاريخ أنّ منبر جامع القرويين من أجمل منابر الإسلام، وهذا يَدلّ على روعة المغاربة في اختياراتهم الذوقية الرفيعة[4] كما يعكس تطوّرهم ورقيهم الحضاري.

1- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/2009م، ص: 207.

2- ينظر المرجع نفسه، ص: 207.

3- المرجع نفسه، ص: 207.

*وهذه سنة باقية إلى يومنا هذا في بناء بيوت الله وتوسعتها.

4- ينظر المغرب العربي في العصر الإسلامي: محمد حسن العيدروس، دار الكتاب الحديث للنشر، القاهرة، ط1، 2009م، ص: 506-507.

ب- المسجد الجامع بتلمسان:

ويُعدّ مسجد تلمسان الكبير في الجزائر من أجمل و أهم الأعمال الحضارية المتبقية منذ القرن السادس الهجري، فقد كان مقرا لنشر العلوم الإسلامية وتربية المسلمين على معاني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وقد تمّ بناؤه عام 530ه في زمن إمارة علي بن يوسف، وكانت هندسته المعمارية في غاية الجمال و دقة الإتقان[1]، فقد بُنِي من الحجارة والطوب والجصّ، أمّا الزخارف المعمارية فاعتمد فيها على الرخام والجصّ المنحوت والمرمَر، والخزف والخشب والزليج، ويرى بعض المؤرخين أنّ البنية المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمسات أندلسية وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أنّ عُرفاء مسجد تلمسان قلّدوا جامع قرطبة تقليدا مباشرا في لوحتي الرخام اللتان تكسوان واجهة المحراب بتلمسان، وكذلك سقف المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط شبيها به أيضا[2].

ومسجد تلمسان هو المسجد الوحيد من بين مساجد المرابطين الذي يتوفر على محراب من الحقبة المرابطية، يأخذ جوفه شكلا متعدد الأضلاع، وهو شكل شاع في الهندسة المعمارية الإسلامية قبل القرن السادس الهجري في المشرق والمغرب و الأندلس، والذي يظهر أنّ دولة المرابطين انصهرت في بوتقتها حضارة المغاربة والأندلسيين والأفارقة، فنجد تلك المعالم الحضارية المختلفة في كافة بقاع دولة المرابطين، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعمارية الأندلسية في كافة أقطار دول القرن السادس الهجري[3].

1- ينظر دراسات في تاريخ المغرب: محمد زروق، دار البيضاء، ط1، 1991م، ص: 149.

2- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي، ص: 208.

3- ينظر المرجع نفسه، ص: 208.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجامع الكبير بتلمسان هو أحد ثلاثة مساجد بناها المرابطون في الجزائر إضافة إلى مسجد الجزائر ومسجد ندرومة، ولم يكن المرابطون وحدهم من اهتم بالمسجد الجامع، بل اعتنى الموحدون به أيضا منذ أن جعلوا تلمسان مقرّ ولاية المغرب الأوسط، فقد جدّده الخليفة عبد المؤمن وبنى لنفسه قصر المشور سنة 540هـ/1145م[1]، وبهذا الاهتمام شكّل المسجد الجامع بتلمسان منارة إسلامية وحضارية استقطبت العلماء والأدباء وجعلت من مدينة تلمسان - آنذاك - قطبا حضاريا وعلميا شامخا.

ج- الجامع الكبير بإشبيلية:

يُعدّ الجامع الكبير بإشبيلية من أهم الأعمال الحضارية التي أُنجزت في القرن السادس الهجري وبالضبط في عهد الخليفة أبي يعقوب سنة 567هـ/1171م، فقد شُيّد لاستيعاب الأعداد الكبيرة من المصلين وقام على البناء المهندس أحمد باسه مع فريق من المتخصصين في شؤون البناء من المغرب والأندلس[2].

وقد بُني هذا الجامع بالآجر والجير والحصى والأحجار وجُعِلت أُسس الدعائم على عمق كبير في باطن الأرض وزُوّد بقبة فوق محرابه من الجبس وقبو يسار المحراب سابطا في الحائط معدا لخروج الخليفة عليه من القصر إلى الجامع لأداء الصّلاة، يقع بابه على يسار المحراب و على يمين المحراب قبو في الحائط مبني يحفظ فيه المنبر الجميل الصنع والنقش المحكم بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل، مرصعا

1- المغرب الأوسط في عهد الموحدين: علي عشي، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، السنة الجامعية 1433هـ-1434هـ/2011م-2012م، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية والإسلامية، تخصص: تاريخ وعلم الآثار، ص: 70.

2- ينظر المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، ليلى أحمد نجار، إشراف: أحمد السيد دراج، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية، 1409هـ/1989م، ص: 553.

بالصندل، مجزعا بالعاج والأينوس، يتلألأ كالجمر بالشعل وبصفائح من الذهب والفضة[1]، ثمّ صنعت له المقصورة من أحسن أنواع الخشب لحجبه، وواصل العمال متابعة البناء فيه حتى اكتملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس منه بالأقباء وكمل التسقيف، وسرّح العمال والبناؤون سنة 571ه/1175م، وقد كان الخليفة يتطلع بناءه في أكثر الأيّام بنفسه، فيصل لرؤيته ويشير على العمال بالجدّ في البناء والوثاقة فيه والاستعلاء، والعكوف بعمل الأمانة والديانة وترك الأهواء ويعطيهم البركات، ويعدهم على ذلك العمل بالصلات[2]. وأقيمت أوّل خطبة فيه سنة 577ه/ 1181م.

ومن عجائب الأعمال الحضارية في هذا الجامع تزويده بالتفافيح المذهّبة، التي وصفها ابن صاحب الصلاة، فقال: "... أمر بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة الكبيرة الجرم المذهبة الرسم الرفيعة الاسم و الجسم، فرفعت في منارها بمحضره وحضر المهندسون في إعلائها على راية وبلوغ وطره مركبة في عمود عظيم من الحديد مرسى أصله في بنيان أعلى صومعة، الصومعة أعلاها زنة العمود مئة وأربعون ربعا من حديد موثقا في تلاؤم البنيان بارزا طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء، يكابد من زعازع الرياح وصدمات الأمطار ما يطول التعجب منه، من مقاومته وثباته وكان عدد الذهب الذي طُليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقالا كبارا يعقوبية* عملها الصنّاع بين يدي أمين أمير المؤمنين وحضوره، ولما كُلت سُترة بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار وحملت على العجل مجرورة إلى الصومعة بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت ورفعت بالهندسة إلى أعلى صومعة الصومعة المذكورة،

3- ينظر المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، عبد الملك بن صاحب الصلاة، تح: د. عبدالهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987م، ص: 387.

1- ينظر المصدر السابق، المن بالامامة ص: 388.

*يعقوبية نسبة إلى الخليفة يعقوب المنصور وزنة المثقال هي درهم وثلاثة أرباع الدرهم/ ينظر التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين: محمد علي أحمد قويدر، مكتبة الثقافة الدينية، الفصل الرابع، المعاملات المالية والتجارية.

ووضعت في العمود وحصلت فيه وحصّنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور... وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر وبموافقة التاسع عشر من مارس من عام أربعة وتسعين وخمسمائة، ثمّ كشفت أغطيتها فكادت تغشي الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وبشعاع رونقها[1].

إنّ هذا العمل المعماري يكشف لنا عن مستوى التطوّر الحضاري في مجال البناء والهندسة والزخرفة كما أنّ استعمال الذهب والفضة بتلك المقادير المذكور ينبيء عن الترف والغنى الذي شهدته الدولة الموحدية في هذا القرن، ولمّا سقطت إشبيلية في يد الإسبان سنة 646هـ/1248م، تحوّل المسجد الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا"، وأمّا المئذنة ففقدت تفافيحها الأربع إثر زلزال في سنة 756هـ/1355م، وتهاوى القسم الأعلى من الصومعة سنة 900هـ/1494م على إثر صاعقة، كما سقط جانب كبير منها في زلزال سنة 910هـ/1504م، فشيّد الإسبان برجا علويا في سنة 966هـ/1558م، ونصبوا في أعلاه تمثالا من البرونز بحيث يدور مع الرياح، وارتفاعه أربعة أمتار ومن هنا أطلق عليه اسم "خرالديو" (giraldillo) و تعني دوارة الرياح ومن هنا جاءت التسمية "لا خرالد" والجزء الإسلامي الباقي منها ارتفاعه 69.65 مترا[2].

د- جامع الكتبية بمراكش:

يُعدّ هذا الجامع من الأعمال الحضارية البارزة في القرن السادس الهجري، فقد شرع في تشييده الخليفة عبد المؤمن سنة 533هـ/1157م، وحشد له مجموعة كبيرة من الصنّاع وتمّ بناؤه في فترة قصيرة[3]، وسمي بجامع الكتبية لوجود باعة الكتب الذين كانوا يروجون

1- ينظر المنّ بالإمامة، ص: 519-521.

2- العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها: عبد العزيز سالم، عالم الفكر، الكويت، 1984م، ص: 396-397.

3- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: حسن علي حسن، ص: 397.

بضاعتهم بجانب المسجد[1]. وقد أنشئ هذا المسجد على أبدع طراز وفن، فقد كان به مخارج وأروقة بديعة الصنع، وممرات سرية تمتد خفية إلى القصر، بحيث يستطيع أمير المؤمنين أن يزور المسجد وأن يغادره دون أن يراه أحد، وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة، صنع من خشب الصندل الأحمر والأصفر، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزالج ومقاطيع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة، وكانت المقصورة التي يجلس بها أمير المؤمنين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب، فقد كانت حسب أقوال المؤرخين المسلمين تتسع نحو ألف شخص، وكانت تتحرك بواسطة عجلات ثبتت في أسفلها، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة، وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت، بل تدور جميعا في أتم سكون، ونظمت المحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعا في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين المسجد عند صلاة الجمعة، وكانت المقصورة تبرز من جانب، ويبرز المنبر من الجانب الثاني، وتلتف الجوانب في الوقت نفسه حول مجلس أمير المؤمنين، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب، ويغلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر هذه المحركات[2]، ويوجد على باب هذا الجامع ساعات مرتفعة في الهواء بطول خمسين ذراعا ترمى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زِنتها مائة درهم تتحرك لنزولها أجراس تسمع من بُعد كبير وتسمى بالبجّانة، وأمّا منار جامع الكتبية فهي صومعة مربعة الشكل، تجاوز طولها سبعة وستين مترا وطول كل جانب 12.5 مترا ويعلوها برج مربع صغير، وتتكون المئذنة من ستة

4- المغرب عبر التاريخ: إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1420هـ-2000م، ج1، ص: 345.

1- ينظر تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: يوسف أشباخ، ترجمه وعلق عليه: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1417هـ-1996م، ج1، ص: 253.

طوابق، ويحتوي كل منها على غرفة الواحدة فوق الأخرى، تنوعت أشكال أقبائها وهي بمثابة بروج صغيرة ومغطاة بقبة مضلعة وينتهي آخر المئذنة بثلاث كرات مموهة بالذهب[1].

وقد ذكر المقّري هذا الجامع متعجبا من سرعة إنجاز هذا العمل الحضاري وإنهائه على أكمل وجه، فقال:" أمروا -أي الموحدون- ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش فبدئ ببنائه وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور، وعلى أكمل الوجوه وأغرب الصنائع، وأفسح المساحة وأبعد البناء والنجارة، وفيه من شمسيات الزجاج، ودرجات المنبر والمقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب إتمامه فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه فضلا عن بنائه؟[2]فقد شكّل هذا الجامع المحكم البناء معلما حضاريا دالا على مستوى الرقي العمراني الذي شهدته هذه البلاد في القرن السادس الهجري.

هـ- الأسوار والحصون والقلاع:

إنّ من أهم الأعمال الحضارية التي عرفها القرن السادس الهجري إنشاء الأسوار والقلاع والحصون، إذ إنّ الحاجة قد دعت إليها وقت ذاك -في هذا القرن- أكثر من أي وقت مضى، فقد كان المرابطون في أوّل أمرهم لا يحصنون المدن بالأسوار ويرون ذلك ضعفا عن الدفاع ثمّ لم يلبثوا أن أخذوا ببنائها بعد اتصالهم بالأندلس وإدراكهم فائدة ذلك في الدفاع عن المدن[3] بخاصة في زمن علي بن يوسف الذي أكثر من بناء الأسوار والقلاع والحصون

2- ينظر تاريخ أفريقيا الشمالية: شارل أندري جوليان،(Charles-André Julien) تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1978م، ج2، ص: 216.

1- ينظر نفح الطيب، المقري، ج2، ص: 145.

2- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب: الحسن السائح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط2، 1406هـ-1986م، ص: 191.

للدفاع عن دولته في المغرب من الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين، وواصل الأمير علي اهتمامه بهذا الأمر كذلك في الأندلس[1].

ويذكر حسن العيدروس نقلا عن البيذق أنّ المرابطين" أقاموا حصونهم في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكي ينتصروا بها على الموحدين"[2]، ومن أروع الأعمال الحضارية في هذا القرن أسوار مراكش، حيث بدأ الأمير علي بن يوسف في بناء سور المدينة سنة 520ھ وكمل بناء السّور عام 522ھ[3].

أمّا عن الحصون في هذا القرن فقد استكثروا منها في مختلف أجزاء المغرب والأندلس، حيث بنوا حصن تاكرارت* بمكناس وتاكرارت تلمسان، كما بنوا سلسلة أخرى من الحصون الجبلية التي كانوا يتخذونها للإشراف على تنقلات ونشاط المصامدة، كما بنوا حصن أمركو على وادي ورغة وقصبة النصراني عند جبل زرهون وحصن تاسغيموت عند الأطلس الكبير، واشترك في هذا البناء أسارى النصارى وتقنيوهم أحيانا[4]، وانتشرت كذلك في الأندلس فكرة بناء الأسوار وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الدفاعي، فمن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس، أسوار ألمرية وأسوار قرطبة التي امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة ، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادي الكبير[5].

3- ينظرتاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي: علي محمد الصلابي، ص: 208.

1- المغرب العربي في العصر الإسلامي: محمد حسن العيدروس، ص: 166.

2- ينظر تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين: د.حمدي عبد المنعم محمد حسين، مؤسسة شباب الجامعة، ط1986م، ص: 372..

*تاكرارت تقابل لفظ مُعَسْكَر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

3- ينظر المغرب عبر التاريخ: إبراهيم حركات، ج1، ص: 225.

4- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي: علي محمد الصلابي، ص: 208.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الحصون كانت تشيد من الحجارة والطوب ذات جدران سميكة وتتخللها أبراج نصف دائرية للمراقبة، ولم تكن الحصون حول النواحي الجبلية فقط بل تشيد بعضا منها في الصحراء، وكانت الحصون تتوفر على حامية قوية تتراوح بين مئة وخمسمئة فارس، وبخندق حولها أحيانا، كما كانت تشحن بالأسلحة والذخائر، وقد يسكن فيها قائد المنطقة كما كان الشأن في تاكرارت مكناس عندما ظهر الموحدون(1)، والعديد من هذه الحصون لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا.

ولم يكن المرابطون وحدهم من قام بهذه الأعمال الحضارية، بل نجد كذلك في هذا القرن اهتمام الخلفاء الموحدين بإنشاء الأسوار والقلاع والحصون ولكنها لم تكن بالكثرة التي شيّدها المرابطون وذلك لانضمام المصامدة إلى الدعوة الموحدية في بدء عهدها(2)،فقد وجد الموحدون حصونا كثيرة بالمغرب والأندلس من بناء المرابطين فرمموها وأضافوا إليها حصونا جديدة(3).

فمن الحصون التي شيّدها الموحدون في القرن السادس الهجري، قصبة المهدي التي بناها عبد المؤمن سنة 545ه/1150م عند مصب واد أبي الرقراق(4)، كما بنى حصن جبل طارق سنة 555ه، ولم يقتصر الموحدون في بناء الحصون على المغرب فقط، بل شيّدوا عددا منها في سائر إمبراطوريتهم، فقد أنشأ عبد المؤمن في تونس حصنا مثلث الزوايا في أعلى مكان منها (5) وحصنا قريبا من تلمسان، وأيضا بنى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

1- ينظر المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ج1، ص: 225.
2- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: حسن علي حسن، ص: 394.
3- ينظرالمغرب عبر التاريخ، ج1، ص: 347.
4- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 394.
5- ينظر تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص: 496.

حصنا بالسوس الأقصى للإشراف على معدن الفضة الذي ظهر بالمنطقة وحمايته من استلاء السكان عليه[1].

أمّا في الأندلس فقد أمر الخليفة المنصور بِنَاء حصن الفرج في إشبيلية "حتى يكون رسم نزول المجاهدين ورهبة في نفوس الكافرين، وأمر أن يكون بتاج الشرف ليأخذ بمخنق بحرها ويكون كالطالع بين سحرها ونحرها، فقامت في أدنى مدة أشخاص الأسوار ومثلت مواضع الديار وكمل القصر الكبير بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح والأنظار إلى منتهى الأبصار وكان بناؤه ذلك كله من أضخم ما عمل وفوق ما أمل والمنصور بالحضرة يتشوق إلى أبنائه ويوالي السؤال عمّا يتزيد من بنائه حتى برح به الشوق إلى التشفي من صفاته وإلى معاينة كيفية الوضع ببيانه فوجه عن الأنظار فيه فوصل إليه وعرفه بكيفيته فزاد شوق المنصور له وسمّاه بحصن الفرج..."[2].

وقد اهتم الخلفاء الموحدون أيضا في هذا القرن بإنشاء الأسوار لأغراض عديدة منها حماية المدن، فهذا المنصور الموحدي يحيط مدينة رباط الفتح بسور كبير ضخم الجدران بلغ دورانه 5.5 كيلومترا وذلك أواخر القرن السادس 591هـ/1194م، ومن أبوابه باب الرواح هو أهم المداخل فيه، ويحف بعقد* المدخل في الجانبين جسمان بارزان، وأمّا طريق المدخل فيمتد في التواءات أربع عن طريق أحواز تغطيها قباب مفصصة شبه دائرية[3].

إنّ تأسيس هذه المنشآت المعمارية والتي تمثّل بحق جانبا حضاريا في القرن السادس الهجري -لا شك- أنها كانت نتيجة للظروف المضطربة والنزاعات العسكرية التي كانت بين

6- ينظر وصف المغرب، الإدريسي، ص: 80.

1- البيان المغرب، ابن عذارى المراكشي، ج4، ص: 214-215.

*العقد هو قوس من البناء مؤلف من قطع حجرية ملتصقة فيما بينها على أشكال مختلفة / ينظر المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، ص:547 عن الفن الإسلامي في إسبانيا: مانويل مورينو، ص:489.

2- ينظر المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، ص:547، عن الفن المرابطي والموحدي، ليوبولد توريس بالباس، ص:90.

الفينة والأخرى، كما أنّها تعكس الجانب الاقتصادي للدول التي نشأت في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري.

و- قصور الموحدين:

إنّ مما يدل على الازدهار والرقي الحضاري الذي شهدته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري تشييد القصور والمنازل الفخمة، فقد بنى الموحدون في هذا الحقبة قصورا عديدة اندثرت كلها بسبب تعاقب الأيام والفتن، وتغير الدول[1]، ومن أهم هذه القصور قصور مراكش التي قال عنها صاحب المعجب:"لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك"[2]. وذكر ابن سعيد أنّه لم ير ما يشبه الأندلس في حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شُيّد بمراكش على عهد الموحدين، فالعاصمة مراكش زخرت بقصور الأمراء والقادة وكبار رجال الدولة، يقول الإدريسي:" ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنّها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جمعهم، وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة"[3]، ومما يدل على اهتمام الموحدين بتشييد القصور ما ذكره المراكشي عن العناية بها يقول:" وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتبا للأمور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور وإعداد سلاح..."[4]، وقد ابتنى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن القصور على الطريق من مراكش العاصمة حتى مدينة سلا قاعدة الجيوش الموحدية المتجهة إلى الأندلس[5].

1- ينظر المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص: 348.

2- المعجب، المراكشي، ص: 360.

3- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين: حسن علي حسن، ص:389/ عن وصف المغرب، الإدريسي، ص:68.

4- المعجب، المراكشي، ص:207.

5- ينظر المن بالإمامة: ابن صاحب الصلاة، ص:347.

وكانت القصور الكبرى بمراكش أشبه شيء بالمدن المستقلة لتعدد مرافقها وعظم بساتينها، وكان قصر الخلافة يتكون من عدة دور يطلق على كل منها اسم خاص وضمّنها دار خصصت للوزارة بالإضافة إلى قاعات الاجتماع المخصصة للحُفّاظ والطلبة، ومن أشهر قصور الموحدين بمراكش قصر أبي الربيع، ومن قصور الرباط قصر عبد المؤمن الذي بناه قبل تأسيس المدينة، ومن قصور الأندلس قصر أبي يحي بن أبي يعقوب الذي بناه خارج قرطبة، ورفعه على أقواس فوق نهر الوادي الكبير، ثم قصر المأمون بمالقة وكان يدعوه بالقصر السعيد[1].

وقد وصفت قصور الموحدين على أنّها كانت مزوّدة بكل ما يلزمها ذات أسوار عالية وبها مقر الخلافة بالإضافة إلى عدّة ديار منها دار البلور ودار الريحان، فكل دار محاطة بالبساتين، وأمام الديار رحبة عظيمة تحمل طراد الخيل وفي رحبة القصر دار الكرمة والأضياف وفي هذه الرحبة المدرسة وهي مكان جليل به خزائن الكتب وفي ناحية من الضاحية المنشأة مقابر أكابر رجال الدولة[2].

ولعلّ شغف الخلفاء الموحدين في هذه القرن السادس بالبناء والتعمير والتشييد كان وراء هذه الأعمال الحضارية التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة والتي أعطت صورة واضحة للحياة الحضارية في جانبها المعماري التي عرفتها البلاد في هذه الحقبة.

ثانيا: المدن والحصون:

يُعدّ تشييد المدن والحصون مظهرا حضاريا عرفته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، فقد تأسست عدة مدن في مناطق مختلفة من هذه البلاد، قامت بدورها الحضاري في دفع عجلة التقدم والازدهار بما تحويه من منشآت؛ ومن بين هذه المدن:

1- ينظر المغرب عبر التاريخ: إبراهيم حركات، ص: 248-249.

2- المرجع نفسه ، ج1، ص: 396.

أ- مدينة مراكش*:

تطرّق شعراء القرن السادس الهجري إلى ذكر مدينة مراكش كونها تمثل قطبا حضاريا عرفته بلاد المغرب الإسلامي، فوصفوها ضمن مدحهم لحكامها مبرزين في ذلك قيمتها الحضارية، يقول الشاعر ابن حربون[1]:

وَأَصِـخْ لِذِكْـرِ اليُـوسُـفِيَّةِ إِنَّـهَا ... مَنَعَتْ مَغَانِي الشِّعْبِ مِنْ أَنْ تُذْكَرَا[2]

دَبَّجْتَـهَا مِنْ حُسْـنِ خُلُقِكَ جَـنَّةً ... وَسَقَيْتَهَا مِنْ جُودِ كَفِّـــكَ كَوْثَـرَا

فَإِذَا سَقِيـطُ الطَّلِّ رَفَّ بِزَهْـرِهَا ... لَقَطَتْ بِهَا كَـفُّ النَّسِيمِ الجَوْهَـرَا

كَانَتْ كَظَهْرِ التّرْسِ مَرِيًا صَحْصَحًا ... فَنَسَـجْتَـهَا لِلْحِينِ رَوْضًـا أَخْضَرَا[3]

جَلَّتْ علا لكم أَنْ يُحَـاطَ بِوَصْفِهَا ... حَـتَّى تَسَـاوَى مَـنْ أَطَالَ وَقَصَّرَا[4]

جسّد الشاعر في هذا الوصف مدينة مراكش، فهي أثر حضاري لبلاد المغرب الإسلامي، تمثلت فيها مظاهر الرخاء التّي عمّت الدولة الموحدية، فتحولت هذه المدينة من

*لفظ مراكش في لغة المصامدة معناه: امش مسرعا حيث إنّ المكان الذي انشأت فيه كان مكمنا للصوص، فكان المارة يقولون لرفقائهم تلك العبارة، فعرف الموضع بها، وقيل إنّ مراكش هي اسم لعبد أسود كان يقيم في المنطقة ويقطع الطريق على المارّة، ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس-عصر المرابطين والموحدين- حسن علي حسن، ص:381.

1- هو أبو عمرو أحمد بن عبد الله بن حربون الشلبي، عمل كاتبا عند ابن قسي ثم انتقل إلى بلاط الموحدين ليعمل كاتبا عند أبي حفص الموحدي، ويعد واحدا من أهم الشعراء الذين انقطعوا بشعرهم لخدمة البلاط الموحدي، توفي سنة 564ه/ ينظر البيان المغرب-قسم الموحدين-، ج3، ص48، زاد المسافر، ص:131.

2- أصخ: أصاخ لكلامه استمع وأمعن، لسان العرب، حرف الخاء، مادة(ص خ خ)، ج8، ص:39/ شعب بوان موضع كثير الشجر والمياه، يعد من جنان الدنيا، من أرض فارس وهو أحد المواضع المتنزهة المشتهرة بالحسن، ينظر معجم البلدان: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت، نشر سنة 1397ه/1977م، ج1، ص:503.

3- التّرس: من السلاح يتوقى بها، جمعه أتراس وتراس، لسان العرب، حرف السين، مادة (ت ر س)، ج2./المرو: حجارة بيض براقة تكون النار فيها وتقدح منها، لسان العرب، حرف الألف، مادة (م ر ا)، ج14، ص:63.

4- المن بالإمامة، عبدالملك بن صاحب الصلاة، ص: 253/252.

أرض صلبة غليظة إلى بساتين خضراء، وذلك لأنّ يد الخليفة هي الّتي زيّنتها، وسقتها الكوثر من جودها فأصبحت جنّة وارفة الضّلال، فاقت في جمالها واحدا من أجمل متنزهات الدنيا، وهو شعب بوّان، ويقر الشاعر في البيت الأخير بعجزه عن الإحاطة بوصفها.

ب- حصن شقّورة*:

تُعدّ الحصون هي الأخرى مظهرا حضاريا شهدته بلاد المغرب الإسلامي، دلّ على تطوّر وازدهار الجانب العسكري في هذا العصر، ومن بين تلك الحصون، حصن شقّورة، الذي قال أبو بكر بن عمار[1] في وصفه:

بِمَعَارِجَ أَدَّتْ إِلَى حَـــرَجٍ   حَتَّى مِـنَ الأَنْـوَاءِ وَالقَـطْـرِ[2]

عَالٍ أَظُنُّ الجِـنَّ إِذْ مَـرَدَتْ   جَعَلَتْهُ مِــرْقَاةً إِلَى النَّسْـرِ

وَحْشٌ تَنَاكَـرَتِ الوُجُوهُ بِـهِ   حَتَّى اِسْتَرْبَتْ بِصَفْحَةِ البَـدْرِ

حِصْنٌ تَمَهَّدَ بَـيْنَ خَـافِقَيْ   نَسْـرَيْنِ مِنْ فَلَكٍ وَمِنْ وَكْـرِ

مُتَـجَـبِّرٌ سَـالَ الوَقَـارُ عَلَى   عِطْفَيْـهِ مِـنْ كِـبَرٍ وَمِـنْ كِـبْرِ

*شقورة: مدينة من أعمال جيان بالأندلس اشتهرت بوردها الزكي العطر، والسنبل الرومي الطيب، ومنها الشاعر أبو بكر بن مجبر شاعر دولة بني عبدالمؤمن، ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي: محمد عبد المنعم الحميري، تح: إحسان عباس، مطابع هيدربلغ، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، مادة (شقر)، ص:349.

1- محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري أبوبكر، من أهل شلب، صحب المعتمد بن عباد بن الصباحي، كانت له مكانة خاصة عنده، إلى أن داخله العجب فسمت به نفسه إلى المُلك وكان أن قتله المعتمد بيده/ ينظر: المغرب، ج1، ص389، نفح الطيب، ج1، ص:652.

2- الأنواء: جمع نوء وهو النجم إذا مال للغروب/ ينظر الرائد : معجم لغوي عصري: جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، آذار/مارس1992م، مادة (النواء)، ص:825.

مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ رَاحَتُهُ فَجِيَادُهَا مِنْ تَحْتِهَا تَجْرِي(1)

يصوّر الشاعر هذا الحصن مرتفعا موحشا، كأنّه علق بين السماء والأرض، وكأنّه عش بين خافقي نسر، ملك عنان الريح وسيطر عليها، والحصن يبدو عال فوق تل صخري لا تؤدي إليه إلا طريق وعرة، يصعد فيها المسافر وحيدا، فهذا الحصن يعكس جانبا حضاريا عسكريا تمثل في تشييد الحصون والقلاع على قمم شاهقة، فضلا عن ضيق مسالكها ووعورتها، فالموقع المرتفع للمدن والحصون يسهل الدفاع ويجعل منها قلاعا صعبة عصية على الأعداء.

ثالثا: القصور:

لقد كان الفنّ المعماري أو الهندسة المعمارية من أشهر ما عُرف من نواحي التقدم الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، حيث عرفت هذه الحقبة معالم عمرانية في غاية الأبهة والحسن ممّا جعلها تنال حظها من وصف الشعراء وعنايتهم الأدبية، فنوّهوا بالقصور الرائعة والبرك والنوافير والدور الفريدة والصهاريج والخمائل والحدائق الوارفة لما وجدوه فيها من تأنّق وإحكام صنع، مخصصين لها حيزا كبيرا من خطابهم كما هو الشأن عند أميّة بن أبي الصّلت وابن حمديس الصقلي* وغيرهم.

أ- قصر المُلك ببجاية:

تُعدّ القصور واحدة من أبرز المعالم الحضارية تعبيرا عن مفهوم التحضر في الشعر، ويُعدّ الشاعر ابن حمديس الصقلي من أشهر شعراء القرن السادس الهجري في بلاد المغرب

3- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان، ج1، ص:274.

*أبو محمد عبدالجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي الأسدي، الشاعر المشهور ولد ونشأ في صقلية ثمّ انتقل إلى المغرب الأوسط وإفريقية، توفي في جزيرة ميورقة سنة 527هـ/ ينظر وفيات الأعيان، ج3، ص:215.

الإسلامي الذين برعوا وتفوّقوا في وصفها ووصف ما يتّصل بها من برك وتماثيل، ولا أدلّ على ذلك من وصفه لقصر المُلك لسيّده المنصور الحمادي[1]:

أَعْمِرْ بِقَصْرِ المُلْكِ نَادِيكَ الَّذِي ... أَضْحَى بِجَدِّكِ بَيْتُهُ مَعْمُورًا[2]

قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنُورِهِ ... أَعْمَى لَعَادَ إِلَى المَقَامِ بَصِيرًا

وَاشْتَقَّ مِنْ مَعْنَى الجِنَانَ نَسِيمَهُ ... فَيَكَادُ يُحْدِثُ بِالعِظَامِ نُشُورَا

نَسِيَ الصَّبِيحُ مَعَ الفَصِيحِ بِذِكْرِهِ ... وَسَمَا فَفَاقَ خَوَرْنَقًا وَسَدِيرَا[3]

لَوْ أَنَّ بِالإِيوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ ... مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورَا[4]

استهلّ الشاعر قصيدته في وصف هذه التّحفة المعمارية بتقديم التهاني للمنصور على حوزته لهذا القصر الذي بناه وعمره بعزم وجدية، فجمال هذا القصر يدهش الناظر إليه لدرجة أنّه يبصر الأعمى إذا نظر إليه ويحيي الميّت بنسيمه، ثمّ ينتقل الشاعر مباشرة إلى ذكر مكانة القصر رافعا من شأنه أمام قصور بني ساسان: الخورنق والسدير، فقد أعيا الفرس وأعجز الروم في الإتيان بمثيله، وذِكْرُ الشاعر لهذين القصرين دليل على سعة ثقافته في هذا المجال لأنّه عاش شبابه في بلاد الأندلس، ثمّ تنقل بعدها في أماكن عدة قبل أن يستقر في المغرب الأوسط، ولعلّه زار خلال أسفاره قصور الفرس والروم، ليستطيع بعد ذلك أن يقول:

أَعْيَتْ مَصَانِعُهُ عَلَى الفُرْسِ الأُلَى ... رَفَعُوا الْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا التَّدْبِيرَا

1- المنصور بن علناس بن حماد بن بلكين الصنهاجي، سادس ملوك الدولة الحمادية بالقلعة وبجاية بالمغرب الأوسط/ معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان، ط2، 1400ه-1980م، ص:322.

2- قصر الملك من قصور القلعة/ بجدك: برعايتك وفي رواية أخرى بمجدك.

1- الخورنق والسدير قصران عظيمان من قصور الفرس/ ديوان ابن حمديس، ص:545.

2- ديوان ابن حمديس، صحّحه وقدم له د: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، ص: 545.

وَمَضَتْ عَلَى الرُّومِ الدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا لِمُلُــوكِهِمْ لَهُ شَبِيهًا وَنَظِـيرَا[1]

والشاعر حين أبصر هذا القصر عاش في أحلام وخيالات وردية حتى ظنّ أنّه في جنّة الخلد لما فيه من جمال ورونق وبهجة وسحر:

أَذْكَرْتَنَا الفِـرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا غُـرَفًا رَفَعْتَ بِنَـاءَهَا وَقُصُورَا

أَبْصَـرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَـنْظَرٍ ثُمَّ انْثَنَيْتُ بِنَاظِرِي مَحْسُورَا[2]

فَظَـنَنْتُ أَنِّي حَـالِمٌ فِي جَـنَّةٍ لَمَّـا رَأَيْتُ الْمُلْكَ فِيـهَا كَبِيرَا[3]

فالظاهر من هذه الأبيات أنّ الشاعر قد تجوّل رفقة المنصور في بهو القصور وحدائقه كما أطلعه بنفسه على غرف القصر وتصاميمه الفريدة بدليل قوله"أذكرتنا" "أريْتنا"، فقد انبهر الشاعر به فتألّقت نفسه وانشرح صدره لتتفتح مشاعره على هذا الجمال الذي أرست معالمه أبواب القصر الضخمة وقد احتوت حلقاتها على أسود مكشرة عن أنيابها تبدو وكأنّها تحرس القصر:

وَإِذَا الوَلاَئِـدُ فَتَحَـتْ أَبْــوَابَهُ جَعَلَتْ تُرَحِّبُ بِالعُفَاةِ صَرِيرَا[4]

عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهِنَّ ضَرَاغِمٌ فَغَرَتْ بِـهَا أَفْـوَاهَـهَا تَكْشِيرَا[5]

فَكَأَنَّهَا لَبَدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْدَهَـا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهَا مَأْمُـورَا[6]

3- المصدر نفسه، ص:546.

4- محسورا: حسر النظر بمعنى ضعف وكلَّ، لسان العرب، حرف الراء، مادة (ح س ر) ج4، ص:117.

1- اقتباس من قوله تعالى:" **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا** ". سورة الإنسان، الآية:20.

2- الولائد: الشواب من الجواري، لسان العرب، باب الواو، مادة (ولد) ص4916/ العفاة: كل طالب رزق أو فضل.

3- فغرت: فغر فاه: فتحه/ الرائد (الفظاظة)، حرف الفاء، ص:605.

4- لبدت: أقامت المصدر نفسه، حرف اللام، مادة (لبد)، ص:683/ الهصر: الهصور، الأسد (تدفع)، المصدر نفسه، ص:841.

فالخدم إذا فتحت أبواب القصر جعلت ترحب بقاصديه وطالبي فضل المنصور، وهذا يدل على كرمه، وفي هذه الأبيات وصف دقيق لأبواب القصر وقد عضت على حلقاتها أسود مكشرة عن أنيابها على من لم يؤذن له بدخول القصر وكأنّها في مشهد حيّ، وتجول الخواطر مطلقة أعنّتها لترسوا أمام بهو ساحة مرخّمة وموشحة بالكافور وكأنّها فُرشت بالدّر المضيء حتى في لجج الظلام:

تَجْرِي الْخَوَاطِـرُ مُطْلَقَاتِ أَعِنَّـةٍ   فِيهِ فَتَكْبُوا عَنْ مَدَاهُ قُصُـورَا

بِمُـرَخَّـمِ السَّـاحَـاتِ تَحْسِـبُ أَنَّهُ   فُرُشُ الـمَـهَا وَتَرْشَحُ الكَافُورَا

وَمُحَصَّـبٍ بِالـدُّرِّ تَحْسِـبُ تُـرْبَهُ   تَضَـوَّعَ نَشْـــرُهُ وَعَـــبِيرَا

يَسْتَخْلِفُ الإِصْبَاحُ مِنْهُ إِذَا انْقَضَى   صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الظَّلاَمِ مُنِيرَا[1]

ويستمر الشاعر في وصف كل شيء تقع عليه عينه، وإن بالغ في ذلك أحيانا غير أنّه حين توالي الصور الجميلة لا تكاد تشعر بوزن المبالغة التي تتستر بلين وراء جمال الوصف وزخرف الخيال.

1- وصف أبواب القصر وسقفه:

يعمد ابن حمديس إلى ذكر أجزاء من القصر فيقول:

وَمُصَفَّـحِ الأَبْـوَابِ تِبْرًا نَظَرُوا   بِالنَّقْشِ بَـيْنَ شُـكُولِهِ تَنْظِيرَا

تَبْدُو مَسَامِيرُ النُّظَارِ كَمَا عَلَتْ   تِلْكَ النُّهُودُ مِنَ الحِسَانِ صُدُورَا[2]

خَلَعَـتْ عَلَيْـهِ غَلاَئِلاً وَرْسِيَّةٍ   شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِـيرَا[3]

1- غسق الظلام: اشتداد الظلام، لسان العرب مادة (غ س ق).

2- النظار: الذهب أو الفضة وغالبا ما يطلق ويراد به الذهب، المصدر السابق مادة(ن ظ ر).

3- ورسية: مخضرّة/ حسيرا: ضعيفا كليلا/ غلائل جمع غلالة وهي شبه القميص يلبس على الجسد والمراد هنا الطلاء.

يسترسل الشاعر في توشيح قصيدته بالتشبيهات و الصّور الرائعة ليزيد من قيمة القصر ومحتوياته، فهو يريد أن يجعل منه قصرا غير كلّ القصور، فأبوابه مصفحة عليها نقوش أشكال مذهبة تعلوها مسامير من فضّة تزينها كما زينت صدور الحسان نهود، وعلى تلك الأبواب بريق لمعان مخضر حيث لا تستطيع العين النظر إليه وكأنّه شمس تُتعب الطرف إذا نظر إليها فترده حسيرا، وهنا اقتباس من قوله تعالى:﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾[الملك الآية:04]، وكأنّ الشاعر يريد القول إنّ الناظر إلى هذه الأبواب المنقوشة والمزخرفة يبغي التماس العيب فيها، يرجع إليه بصره ذليلا صاغرا عن أن يرى نقصا، وهو متعب كليل.

ثمّ يعمد الشاعر إلى وصف سقف هذا القصر فيصوّره تصويرا دقيقا، يقول:

وَإِذَا نَظَـرْتَ إِلَى غَـرَائِبِ سَقْـفِـهِ   أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءَ نَضِيرَا

وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَّافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي   حَـامَتْ لِتَبْنِي فِي ذَرَاهُ وُكُـورا[1]

وَضَعَـتْ بِـهِ صُنَّـــاعُهُ أَقْـلامَـهَا   فَأَرَتْـكَ كُلَّ طَـرِيـدَةٍ تَصْـوِيرَا

وَكَأَنَّــــمَا لِلشَّـمْسِ فِـيهِ لُـقْـيَـةٌ   مَشَقُـوا بِهَا التَّزْوِيقَ وَالتَّشْـجِيرَا[2]

وَكَأَنَّــــمَا اللاَّزَوْرَدُ مُـحَـــــــزَّمٌ   بِالخَطِّ فِي وَرَقِ السَّمَاءِ سُطُورَا

وَكَأَنَّــــمَا فَــرَشُوا عَلَـيْهِ مُـلاَءَةً   تَرَكُـوا مَكَانَ وِشَاحِهَا مَقْـصُـورَا

إنّ براعة الشاعر في رسم هذه اللّوحة الفنية جعلتنا نرى المشهد قائما أمامنا متجسدا في خيالنا، فسقف القصر حوى طبيعة خلابة تضمّ روضا مزيّنا بصور الحيوانات والطيور التي اتخذت من زخارف الذهب أعشاشا لها، ثمّ يعمد الشاعر إلى الإشادة بمهارة الفنانين

1- خطّاف: طائر من فصيلة السنونيات.

2- اللقة: ما يكون في الدواة لاصقا بصوف أو نحوها، والفعل منها كباع ومشق الكتابة: مد حروفها، والتشجير أن تشكل على هيئة الشجر/ ينظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط27، 1389هـ-1969م، ص:358.

الحماديين الذين قاموا بتنميق هذا السقف المزيّن بمناظر الصيد وشتى أنواع اللآلئ والأحجار الكريمة، وهذا السقف المزين بمناظر الحيوانات يشبه سقف قصير عمرة الذي يقع على نحو خمسين كلم شرقي عمان ويرجع تشييده للعصر الأموي[1].

2- وصف بركة القصر وبساتينه:

إذا خرجنا من قصر المنصور نجد بساتين عامرة بالأزهار والأشجار في وسطها بركة محاطة بتماثيل تمثل مختلف الحيوانات:

وَضَرَاغِمُ سَكَنَتْ عَرِينَ رِئَاسَةٍ   تَرَكَتْ خَـــرِيرَ الْمَـاءِ فِيهَا زَئِيرَا[2]

فَكَأَنَّمَا غَشِيَ النُّظَّارَ جُسُومُهَا   وَأَذَابَ فِي أَفْـوَاهِـهَـا البـلُّـــورَا[3]

أُسْـدٌ كَأَنَّ سُكُـــونَهَا مُتَحَرِّكٌ   فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا

وَتَـذَكَّـرَتْ فَتَـكَـاتِهَا فَكَأَنَّمَا   أَقْعَـــتْ عَلَى أَدْبَـارِهَا لِتَـثُـورَا[4]

وَتَخَالُهَا وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا   نَـارًا وَأَلْسُـنُهَا اللَّوَاحِسُ نُـــورَا[5]

يصوّر الشاعر في هذه الأبيات -حول البركة الموجودة في ساحة القصر- تماثيل على هيئة أسود تسكن المكان وكأنّه عرين الأسود الحقيقية، يندفع الماء من أفواهها فيحدث صوتا كأنّه زئير حقيقي، وقد صنعت هذه الأسود من معدن أصفر يشبه الذهب الخالص وسال الماء من فمها صافيا كالبلور، وقد بلغت دقة صنعها أنّنا نظنها أسودا حقيقية ولكنّها ساكنة في الظاهر، فقط إذا هيجها وأثارها أحد ثارت وتحركت، فاستعادت ذكريات عهدها

3- ينظر الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، رشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر،1397هـ/ 1977م، ص:248.

4- ضراغم: أسود مصنوعة/ عرين الأسد: مأواه.

1- غشي: غطى/ البلّور: نوع من الزجاج.

2- فتكاتها: بطشها/ أقعت: جلست على إستها/ أقعى الكلب والسبع: جلس على مؤخرته ناصبا يديه.

3- اللواحس: المراد المتدلية والمفرد لاحس.

في الغابة حين كانت تهجم على الفريسة، فتهيّأت لذلك بأن جلست على أدبارها وهمّت بالوثوب عليها، ثمّ يذكر الشاعر لونها في شدّة توهجه عند انعكاس الشّمس عليه وكأنّه نار، بينما نرى المياه المندفعة مثل الألسنة المتدلية نورا منبثقا من هذه النّار، ثمّ يسترسل الشاعر في وصف ما يتعلق بها من جداول ونسيم فيقول:

فَكَأَنَّمَا سُلَّتْ سُيُوفُ جَدَاوِلٍ ذَابَتْ بِلاَ نَارٍ فَعُدْنَ غَدِيرَا

وَكَأَنَّمَا نَسَجَ النَّسِيمُ لِمَائِهِ دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَهَا تَقْدِيرَا[1]

فالجداول والقنوات تجري بين أيديها فكأنّها تمسك سيوفا مسلولة قد ذابت بلا نار وتجمّعت فصارت غديرا، ويمر النسيم برفق على سطح البركة فيجعله متتابعا منسجما كالدّرع المحكمة، ففيهما مضى من أبيات يرسم الشاعر صورة كلّية عبر لوحة فنية لجانب من البركة التي تحيط بها الأسود، فيها حركة تتجلى في اندفاع الماء ومرور النسيم ولون نراه في (النضارة، البلور، النار، نورا)، وصوت نسمعه في خرير الماء وزئير الأسود، وأشكال نمثلها(أقعت على أدبارها، ألسنها اللواحس، سيوف جداول، غدير، درعا)، وكأنّنا نشاهد ذلك المنظر كما شاهده الشاعر.

ثمّ يعمد الشاعر إلى وصف بساتين القصر المحيطة بالبركة وما تحويه من ثمار بديعة، تجود بها أشجار دائرة بالبركة، وكأنّها مصنوعة من ذهب أو فضة، وقد هيئت أغصان هذه الأشجار لتبني الطيور عليها أعشاشها:

وَبَدِيعَةِ الثَّمَرَاتِ تَعْبُرُ نَحْوَهَا عَيْنَاي بَحْرَ عَجَائِبٍ مَسْجُورَا[2]

شَجَرِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ نَزَعَتْ إِلَى سِحْرٍ يُؤَثِّرُ فِي النُّهَى تَأْثِيرَا[3]

4- سردها: تتابعها.

1- بديعة الثمرات: شجرة القصر المذهبة/ المسجور: المملوء، لسان العرب مادة (س ج ر).

2- نزعت: نزع إليه أشبهه ويقال فلان ينزع إلى أبيه أي يشبهه/ النهى: العقول.

قَدْ سَرَّجَتْ أَغْصَانَهَا فَكَأَنَّمَا قَبَضَتْ بِهِنَّ مِنَ الفَضَاءِ طُيُورَا[1]

وَكَأَنَّمَا تَأْبَى لِوَاقِعِ طَيْرِهَا أَنْ تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِهَا وَتَطِيرَا

مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ تُرِي مِنْقَارَهَا مَاءً كَسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ نَمِيرَا[2]

خُرْسٌ تُعَدُّ مِنَ الفِصَاحِ فَإِنْ شَدَتْ جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بِالمِيَاهِ صَفِيرَا[3]

يذكر الشاعر في هذه الأبيات عددا من الأشجار العجيبة الثّمار على حافة هذه البركة الرائعة، فتلك الأشجار تنعكس عليها الأضواء فتجعلها ذهبية اللون تسحر العقول بجمالها وتأثيرها وقد زيّنت أغصانها مصابيح وتماثيل كأنّها جذبتها بأنوارها من الفضاء، غير أنّ هذه الطيور لا تستطيع أن تنهض وتطير لأنّها مثبتة على الأغصان، فترى الماء مندفعا من مناقيرها صافيا كأنّه فضة تنساب في تسلسل وترقرق، وهذه الطيور خرساء لا تغرد لأنّها تماثيل ولكن صوت الماء في اندفاعه منها يعوضها عن التغريد ويجعلها فصيحة النطق كأنّها حقيقية، فالمتأمّل في هذه الأبيات يجد لوحة فنية رائعة لمنظر شجرة ذهبية بجانب البركة ترصع أغصانها طيور بمناقيرها مياه كمتناثر اللآلئ الصافية، فالشاعر جعلنا نحس الحركة في (تعبر، نحوها، قبضت بهن، تأبى لواقع طيرها، تطير) ونسمع الصوت في (الفصاح، شدت، تغرد، صفيرا) ونرى اللون في (الثمرات، ذهبية، سرجت أغصانها، سلسال اللجين) فإذا جمعت هذه اللوحة الفنية تكامل المنظر الرائع للبركة وما حولها كأنّ رساما بارعا صوّرها، فجعلنا نتخيلها بأحاسيسنا ووجداننا، فوصف هذه البركة مرآة عاكسة للتقدم الحضاري والعمراني الذي عاشته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري والمتمثل في روعة التصميم الهندسي للبركة الذي أبدع في توظيف عناصر الطبيعة من أشجار وماء وشمس

3- سرجت: زينت وحسنت.

4- اللّجين: الفضة الذائبة / النمير: الناجع من الماء.

5- ديوان ابن حمديس، ص: 547-548.

ونسيم مع الإبداع في فن النحت المتمثل في الأسود والطيور، وفن الرسم المتمثل في الظلال والألوان ليخرج لنا بركة في غاية الأبهة والحسن، وفن الموسيقى المتمثل في صوت الماء الذي يشبهه زئير الأسود تارة وتغريد الطيور تارة أخرى، فأتت القصيدة لوحة فنية تضافرت فيها فنون الجمال من رسم وتصوير ونحت وموسيقى، فدلّت بذلك على قدرة أدبية عجيبة لهذا الشاعر "فهو عفيف اللفظ نبيل الفكرة، لغته واضحة وأسلوبه مشرق إذ تألق في وصف الطبيعة ولذّات الحياة وعجائب الكون.. وكل ذلك يرسمه بلفظ أنيق وتصوير دقيق وعبارة بيّنة"[1].

وبعد وصف هذه البركة يختمها الشاعر كما استهلها بمخاطبة المنصور الحمادي بكل تواضع وأدب مهديا إيّاه هذه القصيدة التي خلت من كل تملق أو خنوع أو استعطاف مع أنهّا ربما نظمت من أجل التكسب، فيقول:

يَا مَالِكَ الأَرْضِ الَّذِي أَضْحَى لَهُ ... مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى العُدَاةِ نَصِيرَا

كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ ... وَاسْتَوْجَبْتَ بِقُصُورِكَ التَّأْخِيرَا

فَعَمَرْتَهَا وَمَلَكْتَ كُلَّ رِيَاسَةٍ ... مِنْهَا وَدَمَّرْتَ العِدَا تَدْمِيرَا[2]

وأبيات القصيدة كلّها درر نفيسة، حتى ليقول المقّري بعد ذكره لها في كتابه نفح الطيب:"لم أر لهذه القصيدة من نظير، في معناها اليانع النضير، ولفظها العذب النمير، الذي شمّر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أي تشمير، غير أنّ فيها عندي عيبا واحدا وهو ختمها بلفظ التدمير"[3]، هذا التدمير الذي تحقق في عمران وحضارة القرن السادس الهجري كما

1- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسين الزيات، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،د.ط، د.ت، ص: 336.
1- ديوان ابن حمديس، ص: 549.
2- نفح الطيب، المقري، ج1، ص: 494.

هو الشأن في آثار كل القرون السابقة، سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

ب- قصر النّجم:

وبالمعاني نفسها تقريبا يصف لنا ابن حمديس قصرا آخر من قصور المنصور اسمه النّجم، فيقول[1]:

أَعْلَيْتَ بَيْنَ النَّجْمِ وَالدَّبَرَانِ قَصْرًا بَنَاهُ مِنَ السَّعَــادَةِ بَانِ[2]

فَضَحَ الخَوَرْنَقَ وَالسَّدِيرَ بِحُسْنِهِ وَسَمَا بِقِمَّتِهِ عَلَى الإِيــوَانِ

قَصْرٌ يُقَصِّرُ وَهُوَ غَيْرُ مُقَصِّرٍ عَنْ وَصْفِهِ فِي الحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

وَكَأَنَّهُ مِنْ دُرَّةٍ شَفَّافَةٍ تُعْشِي العُيُونَ بِشِدَّةِ اللَّمَعَانِ

لاَ يَرْتَقِي الرَّاقِي إِلَى شُرُفَاتِهِ إِلاَّ بِمِعْرَاجٍ مِنَ اللَّحَظَانِ

إنّ هذه القصيدة كسابقتها في الوصف بدأها الشاعر بمدح المنصور على أن شيّد قصرا عاليا فاق في حسنه قصور بني ساسان: الخورنق والسدير وكذا الإيوان، مستقيا ألفاظا مأنوسة رقيقة من بيئة حضرية صرفة ملائمة لأجواء القصور المترفة مثل:(درة، شفافة، شرفاته، اللّمعان). فالقصر درة شفافة يخطف البصر بريقها المتوهج والعيون لا تقدر أن ترتقي إلى شرفاته المنيفة إلا بمعراج من النظر، ثمّ يعرج شاعرنا على ذكر مكانه، فيقول:

عَرِّجْ بِأَرْضِ النَّاصِرِيَّةِ كَيْ تَرَى شَرَفَ المَكَانِ وَقُدْرَةَ الإِمْكَانِ

فِي جَنَّةٍ غَنَّاءَ فِرْدَوْسِيَّةٍ مَحْفُوفَةٍ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

وَتَوَقَّدَتْ بِالخَمْرِ مِنْ نَارِنْجِهَا فَكَأَنَّمَا خُلِقَتْ مِنَ النِّيرَانِ[1]

3- ديوان ابن حمديس، ص: 494-495.

4- الدبران: منزل للقمر وهو مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور، سمي بذلك لأنّه يتبع الثريا/ ينظر لسان العرب، مادة (دبر)، ص: 352.

وَكَأَنَّهُــنَّ كُـرَاتُ تِـبْرٍ أَحْـمَـرَ　　جُعِلَتْ صَوَالِجُهَا مِنَ القُضْبَانِ[2]

إنّ البيئة الحضرية التي احتوت ابن حمديس قد جعلت من أشعاره التي يصف فيها الطبيعة لوحات فنية مرصّعة بأنواع الدّر والياقوت وهذه هي:"مجاملة الترف الخالي من كل بصيرة إنسانية باطنة على حساب البداوة أو الفطرة الساذجة التي تحتضن فيها النفس أهون المخلوقات وتشبع فيها الدائم إلى التنصل من وثائق البريق المتوهج النافع، وشواهد الحضارة المادية ولوازم التّرف الثقيل الذي يخلط بين المعايير"[3]، ثمّ انتقل الشاعر إلى وصف بركة القصر قائلا:

فِي بِرْكَةٍ قَـامَتْ عَـلَى حَـافَتِهَا　　أُسْـدٌ تَـذِلُّ لِعِـزَّةِ السُّلْـطَانِ

نَزَعَتْ إِلَى ظُلْمِ النُّفُوسِ نُفُوسُهَا　　فَلِذَلِكَ انْتُزِعَـتْ مِــنَ الأَبْـدَانِ

وَكَأَنَّ بَرْدَ الـمَـاءِ مِنْهَا مُطْفِيءٌ　　نَـارًا مُضَـرَّمَةً مِـنَ العُـــــدْوَانِ

وَكَأَنَّمَا الحَيَّـاتُ مِنْ أَفْــوَاهِـهَا　　يَطْـرَحْنَ أَنْفُسَهُـنَّ فِي الغُدْرَانِ

وَكَأَنَّمَا الحِيتَـانُ إِذَا لَـمْ تَخْشَـهَا　　أَخَذَتْ مِنَ الـمَنْصُورِ عَقْدَ أَمَانِ[4]

لقد سار ابن حمديس على خطى البحتري في وصف القصور والبرك، وسعى وراء التشابيه والاستعارات يتصيدها بأحاسيسه، وقد حاكاه بذلك ابن خفاجة، فآفة الشعراء سيرهم وراء بعضهم كالقوافل على الطرق المعبدة[5]، فالمتأمّل في هذه الأبيات يجد صاحبها ذا خيال لا حدود له من خلال ما يتصيده من صور جميلة يعرضها في أبهى حلة، معتمدا على التشبيه كأسلوب بلاغي وما يشتق عنه من استعارة ومجاز فيحرك المشاهد والمشاعر.

1- نارنج: ضرب من الليمون.

2- صواج: جمع صولج، الفضة الخالصة.

3- الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م، ص: 05.

1- ديوان ابن حمديس، ص: 496.

2- ينظر أدب العرب، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، 1978-1979م، ط3، ص: 247.

إنّ المطّلع على قصيدتي وصف القصرين يلمس فيهما إلى جانب قيمتهما الفنية قيمة تاريخية كبرى كونهما تؤرخان لفنّ العمران الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري، وتنقلان لنا حرفا حضارية عُرفت وقتذاك كالنّقش على الخشب ونحت التماثيل وما إلى ذلك ممّا تزخر به قصور ومباني الأمراء و الملوك.

رابعا: الرياض:

تُعدّ الرياض من المظاهر الحضارية الطبيعية التي افتتن بها شعراء بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، فعمدوا إلى وصفها وبثّ الحياة فيها، فوصفوا منتزهاتها وأنهارها وانسياب المياه بين أشجارها وأغصانها، وقد لقيت هذه الرياض اهتماما كبيرا من قبل مجتمعات هذه الحقبة بخاصة الأندلسيين الذين وجدوا فيها متنفسا لهم إذ كانت موطن مجالسهم المختلفة فصوّروا ما فيها من مواطن الجمال والفتنة، ولم يتركوا منظرا حضاريا ساحرا إلاّ وصفوه وتغنّوا به في أشعارهم، وكثيرا ما ارتبطت هذه الرياض بالحضارة العمرانية في القصور عند الأمراء والسلاطين فكانت تُعدّ من العناصر الجمالية المكملة للصورة الإبداعية الموجودة في عمارة البناء عند الخلفاء والسلاطين(1).

أ- الحدائق والمتنزهات:

تفرّدت بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري بكثرة الحدائق والمتنزهات، فلا نكاد نجد مدينة في الأندلس بخاصة تخلو من حديقة أو متنزه جميل، وباعتبارهما مظهرين حضاريين فقد رسم الشعراء لهما لوحات كثيرة وتغنّوا بهما في قصائدهم واصفين اللحظات السعيدة التي قضوها في جنباتهما، نظرا للمعطيات الطبيعية التي تتوفران عليها،

1- ينظر التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي: سعد العنيزي، ص: 128.

فشاطبة تميّزت بالحسن وبمتنزهاتها التي منها البطحاء والغدير والعين الكبيرة[1]، واشتهرت غرناطة بحور مؤمل ونجد، وازدانت قرطبة بفحص السرادقي والسّد والمرج النضير وغيرها[2]. ولم تخل مرسية من الغابات والبساتين والنواعير، حيث استقطبت كل من يرغب في الفرحة والاستجمام، كما تعددت في بلنسية البساتين، حتى عرفت بمطيب الأندلس، وفيها البحيرة المشهورة كثيرة الضوء والرونق، يسبح فيها الجميع وأهلها أميل الناس للراحات[3]، فهذا ابن خفاجة واصفا إحدى الحدائق التي شُيّدت بين أحضان الطبيعة:

وَصَقِيلَةِ الأَنْـوارِ تَـلْوِي عِـطْفَهَا ... رِيحٌ تَلُـفُّ فُرُوعَـهَا مِعْطَارُ[4]

عَاطَى بِهَا الصَّهْبَاءَ أَحْوَى أَحْوَرٌ ... سَحَّابَ أَذْيَالِ السَّرَى سِحَارُ[5]

وَالنُّورُ عِقْدٌ، وَالغُصُونُ سَـوالِفٌ ... وَالجِذْعُ زِنْدٌ، وَالخَلِيـجُ سِوَارُ

تبدو الحديقة في هذه الأبيات الثلاثة وكأنّها امرأة لها من الصفات ما لهذه الأخيرة حيث تحنو المرأة على الرجل لترويه عطفها وحنانها، وفي الأبيات تلوي الحديقة عطفها على الأرض لتحضنها بين أحضانها، فقد شخّصها بامرأة لأنّها تتميز بعطرها الأخاذ وكأنّها سرقت عطرها من الزهرة البيضاء، ذات عينين سوداوين مرتدية ثوبا طويلا يلامس الأرض، ثمّ توحدت نفس الشاعر مع نفس الطبيعة "وهو الذي وصفها بكل مظاهرها فكانت مستولية

2- ينظر القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق: الإدريسي، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 1983م، ص281.

3- ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: فوزي عيسى، ص:129.

4- ينظر نفح الطيب، ج3، ص:221.

1- صقيلة الأنوار أي بيضاء الأزهار.

2- الصهباء: الخمر/ أحوى ذو الحوة وهي سمرة مستحبة في الشفة/ الأحور: من كان بياض عينيه شديد البياض وسوادها شديد السواد.

على حواسه ولم يستطع أن ينساها في كل أغراضه"[1]، ليجعل الحديقة تتميز بميزات إنسانية، فالنّور عِقْد يبرز جمالها والغصون المتفرعة شعرها المتدلي، والجذع زند يحميها والتفاف الأزهار حولها سوار ترتديه، وذكر الشاعر لحلي المرأة دلالة حضارية عرفها المجتمع وقتذاك، ثمّ يواصل الشاعر هذا التشخيص عاكسا مظاهر عصره، فيقول:

بِحَـــدِيقَـةٍ ظَـلَّ اللَّمَى ظِـلاًّ بِهَـا   وَتَطَـلَّعَـتْ شَـنْبًا بِهَا الأَنْــوَارُ[2]

رَقَصَ القَضِيبُ بِهَا وَقَدْ شَرِبَ الثَّرَى   وَشَدَا الحَمَـامُ وَصَفَّـقَ التَّيَّـارُ

غَنَّـاءُ أَلْحَفَ عِطْفَـهَا الـوَرَقُ النَّدِيُّ   وَالْتَـفَّ فِي جَنَبَـاتِـهَا النُّـــوَارُ[3]

فَتَطَلَّعَتْ فِي كُلِّ مَوْقِـعٍ لَحْـــظَةً   مِنْ كُلِّ غُصْنٍ، صَفْحَةٌ وَعِذَارُ[4]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يجد نفسه وكأنّها أمام امرأة سوداء الشفاه ذات أسنان بيضاء، فقد جعل الشاعر الحديقة وكأنّها في حفل، فنرى القضيب راقصا بعد ثمالته على أنغام الحمام وتحت تصفيقات أوراق الأشجار، وعلى ما يبدو قد صوّر لنا واقع حفلاته في ذلك العصر فكان للاستعارات دلالات حضارية وكأنّ الشاعر ضرب عصفورين بحجر واحد، فقد أهدى صفات تتعلق بالروح لمن لا روح له وذلك لإبراز جمال الحديقة في عيوننا والعودة بالذكرى إلى أيّام أُنْسه وقت شبابه، وفي البيتين الأخيرين ينهي الشاعر الحفل القائم في هذه الحديقة بعودة السكون إليها، فيجعل من الورق الندي غطاء تلتحف به بعد أن التفت في جنباتها الأزهار البيضاء، إذن نلاحظ مما سبق أنّ الشاعر قد عكس

3- الطبيعة في الشعر الأندلسي، جودت الركابي، مطبعة دار الشرقي، دمشق، ط2، 1970م، ص:50.

4- اللمى: سمرة أو سواد في باطن الشفة يستحسن/ الشنب: صفاء الأسنان وابيضاضها.

5- غنّاء: مكان أغنّ كثير الشجر والعشب.

1- العذار: عذار الشجر: خط منه مستطيل، يقال: غرس في كرمه عذارا من الشجر، سكة مصطفة.

في وصفه بعض المظاهر الحضارية المستمدة من واقع بيئته، فتحدث عن الرقص و شرب الخمر وغير ذلك ممّا شاع في ذلك العصر مبرزا جمال الطبيعة الأندلسية وعاكسا حالته النفسية عليها.

أمّا فيما يخص المتنزهات فقد كانت منتدى الشعراء ومسارح لهوهم ومدار أنسهم يقضون فيها أجمل أوقاتهم، ومعهم من الوجوه الفتّانة ما يعين القرائح ويأتي من المحاسن والبدائع بكلّ غاد ورائح[1]، فهذا الشاعر أبو جعفر أحمد بن سعيد* يذكر المنتزه الحضاري المعروف بحَوْرِ مُؤَمّل فيقول:

عَـرِّجْ عَلَى الحُورِ وَخَيِّمْ بِهِ حَيْثُ الأَمَانِي ضَافِيَاتِ الجَنَاح[2]

وَاسْبَقْ لَهُ قَبْلَ اِرْتِحَالِ النَّدَى وَلاَ تَــزُرْهُ دُونَ شَـادٍ وَرَاح[3]

وَكُنْ مُقِيمًا مِنْهُ حَيْثُ الصَّبَا تَمْتَارُ مِسْكًا مِنْ أَرِيجِ البِطَاح[4]

إنّ جمال هذا المتنزه جعل الشاعر ينصح من يريد أن يحقق بغيته بزيارته والتخييم به، محددا له وقتا رائعا حيث قطرات النّدى لم تجففها الشمس وهو وقت البكرة وقت ابتهاج النفوس وصفاء الجو، ناصحا إيّاه باصطحاب طير مغن يؤنسه وخمرة يمرح بها، محددا له مكان الجلوس من هذا المتنزه حيث ريح الصبا تهب جامعة الروائح الطيبة من كل مكان، ثمّ يواصل الشاعر واصفا هذا المتنزه، فيقول:

2- ينظر اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى، اختصره أبو عبدالله بن عبدالله بن خليل، تح: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959م، ص:73.

*أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد كان أديبا بارعا في الشعر والنثر وناقدا بصيرا، صنف جزء من كتاب المغرب، استوزره عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة، قتل سنة 559هـ-1164م، المغرب، ج2، ص:164.

1- الضفا: الجانب والناحية ولكل شيء ضفوان.

2- الشادي: مغن (طير شاد).

3- الصَّبَا: ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار/ الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه/ البطاح: مكان متسع منبسط يسيل فيه الماء فيخلف فيه التراب والحصى الصغار.

وَالقُضْبُ مَالَ البَعْضُ مِنْهَا عَلَى ... بَعْضٍ كَمَا يُثْنِي القُدُودَ اِرْتِيَاح[1]

وَشَقَّ جَيْبَ الصُّبْحِ نُورٌ كَمَا ... شَقَّتْ جُيُوبَ الطَّلِّ مِنْهَا الرِّيَاح

لَمْ أُحْصِ كَمْ غَادَيْتُهُ ثَابِتًا ... وَاسْتَرْقَصَتْنِي الرَّاحُ عِنْدَ الرَّوَاحِ

ففي هذا المتنزه من المناظر ما يبهج النفس ويجعلها تنعم بالراحة والطمأنينة، حتى إنّ الشاعر يُقرّ بكثرة زياراته له لدرجة أنّه نسي عددها، بينما لم ينس نشوة الراح عند استرقاصها إيّاه، وبالمعاني نفسها يشيد الشاعر بهذا المنتزه مغيرا من قافيته ووزنه، فيقول:

أَلَا حَبَّذَا رَوْضٌ بَكَّرْنَا لَهُ ضُحًى ... وَفِي جَنَبَاتِ الرَّوْضِ لِلطَّلِّ أَدْمُعُ

وَقَدْ جَعَلَتْ بَيْنَ الغُصُونِ نَسِيمَةٌ ... تُمَزِّقُ ثَوْبَ الطَّلِّ مِنْهَا وَتَرْقَعُ

وَنَحْنُ إِذَا مَا ظَلَّتْ القُضْبُ رُكَّعًا ... نَظَلُّ لَهَا مِنْ هِزَّةِ السُّكْرِ نَرْكَعُ[2]

يؤكّد الشّاعر مرة أخرى على وقت الاستمتاع في هذا المتنزه، أين تكون قطرات النّدى تباكي الأزهار ونسمات الرياح تداعب الغصون ممزقة الطلّ تارة ومرقعة إيّاه تارة أخرى، ولعلّنا نلاحظ أنّ تصغير لفظة (نسيمة) كان بغرض التملح والتلطّف، وفي ظلّ هذه المناظر الخلاّبة الّتي تسبي العقول، يقرّ الشّاعر بمجونه الّذي كان هدفا من زياراته المتكرّرة لهذا المتنزّه، ولجمال هذا المتنزّه قد ذكره أبو جعفر في موشّحته البديعيّة، فقال[3]:

هُوَ كَالعَضْبِ الصَّقِيلِ حُفَّ بِالشَّفْرِ[4]

مُضْحِكًا ثَغْرَ الكِمَامْ[5]

4- القضب: جمع قضيب (الأغصان).

1- نفح الطيب، ج3، ص:517.

2- المُغرب، ج2، ص:103-104.

3- العضب الصقيل: السيف الحاد القاطع/ الشفر: اسم جمع للشفرة (حد السيف).

4- الكمام: غطاء الزهر/ المدام: الخمر.

مُبْكِـــيًا جَفْـنَ الـغَـمَامْ

فَبِهَـذَا لِلْقَـبُـــــولِ خُـطَّ كَالسَّطْرِ

حَبَّـذَا بِالـغَـــوْرِ مَـغْنَى[1]

هِيَ لَـفْـظٌ وَهُـــوَ مَـعْنَى

مُـذْهِـبُ الأَشْـجَـانِ عَـنَّا[2]

كَمْ دَرَيْـنَا كَـيْفَ سِـــرْنَا

ثُـمَّ فِي وَقْـتٍ لَمْ نَكُنْ نَدْرِي

وقبل أن يذكر الشّاعر منتزه "حور مؤمل" ذكر النّهر المجاور له وشخّصه باثا فيه الحركة والحياة، فهو كالسيف الحادّ يضاحك أكمام الأزهار فيه من دواعي الأنس وشرب الخمر ما يدع لذلك ثمّ يعمد الشاعر إلى ذكر مكان المتنزه الواقع بأرض منخفضة بها ماء ونبات مهيأة لدواعي اللّهو والشراب ذاكرا ما فعله بهم هذا الأخير في هذا المتنزه، وعلى ما يبدو أنّ أبا جعفر بن سعيد قد قضى شبابه بين هذه المتنزهات، فقد ورد في نفح الطيب: "أنّ ثلاثة من الشعراء أرادوا أن يخرجوا لنجد أو لحور مؤمل، وهما منتزهان من أشرف وأظرف منتزهات غرناطة، ليتفرجوا ويصقلوا الخواطر بالتطلع في ظاهر البلد"[3]، فكتبوا إلى أبي جعفر للخروج معهم قصيدة منها:

بَعَثْنَا إِلَى رَبِّ السَّمَـاحَةِ وَالْمَجْـدِ وَمَنْ مَـالَهُ فِي مِـلَّةِ الظَّرْفِ مِنْ نِدِّ

لِيُسْعِدَنَا عِنْدَ الصَّبِيحَةِ فِي غَـدٍ لِنَسْعَى إِلَى الحُـورِ الْمُؤَمَّـلِ أَوْ نَجْدِ

5- الغور: المكان المنخفض يكون فيه ماء ونبات/ مغنى: مكان للسكنى.

6- الشجن: الحزن.

1- نفح الطيب، ج3، ص:513.

نُسَرِّحُ مِنَّا أَنْفُسًا مِنْ شُجُونِهَا ثَوَتْ فِي شُجُونٍ هُنَّ شَرٌّ مِنَ اللَّحْدِ

عَلَى جَدْوَلٍ مَا بَيْنَ أَلْفَافِ دَوْحَةٍ تَهُزُّ الصَّبَا فِيهَا لِـوَاءً مِنَ الرَّنْدِ

نَظَمْنَا مِنَ الخِلاَّنِ عَقْدَ فَرَائِدٍ وَلَمَّا نَجِدْ إِلاَّكَ وَاسِطَةَ العِقْدِ[1]

ندرك من هذه الأبيات أنّ هذين المنتزهين الحضاريين كانا مقصدا لتفريج الأحزان، وندرك جانبا من نفسية هؤلاء الشعراء الذين شكّلوا عقدا كان أبو جعفر واسطته، هذا الأخير الذي أجابهم بقصيدة ذاكرا فيها بعضا من الجوانب الحضارية لهذا المنتزه، يقول منها:

فَيَا مَنْ بِهِمْ تُزْهَى المَعَالِي وَمَنْ لَهُمْ قَيْدُ الْمَعَانِي مَا سِوَى قَصْدِكُمْ قَصْدِي

فَسَمْعًا وَطَوْعًا لِلَّذِي قَدْ أَشَرْتُمْ بِهِ لاَ أَرَى عَنْهُ مَدَى الدَّهْرِ مِنْ بُدِّ

فَقُومُواْ عَلَى اِسْمِ اللَّهِ نَحْوَ حَدِيقَةٍ مُقَلَّدَةِ الأَجْيَادِ مُوشِيَةَ البُرْدِ[2]

بِهَا قُبَّةٌ تُدْعَى الكِمَامَةَ فَاطَّلَعُوا بِهَا زَهْرًا أَذْكَى نَسِيمًا مِنَ النَّدِّ[3]

وَعِنْدِي مَا يَحْتَاجُ كُلُّ مُؤَمِّلٍ مِنَ الرَّاحِ وَالمَعْشُوقِ وَالكُتْبِ وَالنَّرْدِ[4]

لقد بدا الشاعر موافقا لخلّانه فمقصدهم واحد، ملبيا لدعوتهم نحو هذا المتنزه الذي فيه من مظاهر التحضر ما يبهج النّفس، فإضافة إلى منظره الخلّاب الذي شخّصه في امرأة عليها من الحلي والكساء ما يزيد جمالها، به قبّة عليها أجود أنواع الزهور الفواحة بعيدانها ثمّ كشف الشاعر عن مبتغى زائري هذا المتنزه؛ فهو قبلة للهو ومطالعة الكتب ولعب النرد، وكلها مظاهر حضارية تعكس جانبا من الحياة الاجتماعية في القرن السادس الهجري.

2- المصدر نفسه، ج3، ص:514.

1- مقلّدة: مقلد بوسام: من وضع على صدره أو عنقه وسام/ الأجياد:جمع جيد،مقدم العنق/البرد: كساء مخطط يلتحف به.

2- النَّدُّ: ضرب من النبات يتبخر بعوده.

3- النَّرْدُ: لعبة ذات صندوق وحجارة وفصين، تعتمد على الخط وتنقل فيها الحجارة على حسب ما يأتي به الفص (الزهر).

إنّ المتأمّل في الأشعار التي قيلت في وصف الحدائق و المنتزهات يكاد يجدها لا تخلو من عادات حضارية تقام في وسطها ولعلّ أبرزها شرب الخمر والغناء، فهذا الشاعر أبو بكر بن رحيم يؤكد ذلك، فيقول:

لِلَّـــهِ يَـوْمٌ ضَرَبْـنَا لِلْـمُـدَامِ بِـهَا   رِوَاقَ لَـهْـوٍ بِطَاسَاتٍ وَجَـامَـاتِ[1]

وَلِلْبَـــلاَبِلِ أَلْحَـــانٌ مُرَجَّعَـةٌ   تُجِيبُـهُنَّ غَـوَانِيـنَا بِأَصْـوَاتِ[2]

وَلِلرَّيَاحِـينِ أَنْفَـــاسٌ مُعَـنْـبَرَةٌ   مَعَ الرِّيَـــاحِ تُـوَافِينَا لِأَوْقَاتِ

حَدَائِـقُ أَحْدَقَتْهَا لِلْمُنَى شَجَرٌ   خُضْرٌ وَأَوْدِيَةٌ حُفَّتْ بِرَوْضَاتِ[3]

جِنَانُ أُنْسٍ رَعَى الرَّحْمَنُ بَهْجَتَهَا   حَسِبْتُ نَفْسِي مِنْهَا وَسْطَ جَنَّاتِ

مَنَازِلٌ لَسْتُ أَهْوَى غَيْرَهَا سُقِيَتْ   حَيًّا يَعُمُّ وَخُصَّتْ بِالتَّحِيَّاتِ[4]

يصرّح الشاعر بأيّام الأنس وشرب الخمر التي قضاها وسط هذه الحديقة، ذاكرا مظاهر حضارية تمثّلت في أواني شرب الخمر (طاسات، جامات)، كما ذكر الغواني التي تصاحب هذا اللهو وسط المنتزهات ثمّ عرّج على ذكر المناظر الخلابة لهذه الحدائق وما يحفها من أشجار خضراء وأودية عذبة المياه متخيلا نفسه وسط جنان الخلد ومعلنا حبه لهذه المنتزهات الحضارية.

وقد أورد المقّري في نفح الطيب مقطوعة شعرية زاخرة بالمظاهر الحضارية في وصف إحدى الحدائق:

وَحَـدِيـقَةٍ مُخْضَـرَّةٍ أَثْـوَابُـهَا   فِي قُضْـبِهَا لِلطَّـيْرِ كُلَّ مُـغَـــرِّدِ

4- الرواق: جانب البيت (ممر مسقوف)، رواق لهو: مدة طويلة من اللهو/ الطاس والجام: وعاءان تشرب بهما الخمر.

5- الألحان المرجعة: المترددة في الحلق/ الغواني: النساء الجميلات.

6- أحدقتها: أحاطت بها.

1- مختارات من الشعر الأندلسي، جمعها وحققها د أ ر نيكل، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1949م، ص:173-174.

نَادَمْتُ فِيهَا فِتْيَةً صَفَحَاتُهُمْ مِثْلَ البُدُورِ تُنِيرُ بَيْنَ الأَسْعُدِ

وَالجَدْوَلُ الفِضِّيُّ يَضْحَكُ مَاؤُهُ فَكَأَنَّهُ فِي العَيْنِ صَفْحَ مُهَنَّدِ

وَإِذَا تَجَعَّدَ بِالنَّسِيمِ حَسِبْتَهُ لَمَّا تَرَاهُ مُشْبِهًا لِلمُبْرَّدِ

وَتَنَاثَرَتْ نُقَطٌ عَلَى حَافَاتِهِ كَالعِقْدِ بَيْنَ مُجْمَعٍ وَمُبَدَّدِ

وَتَدَحْرَجَتْ لِلنَّاظِرِينَ كَأَنَّهَا دُرٌّ نَثِيرٌ فِي بِسَاطِ زَبَرْجَدِ[1]

لقد وصف الشاعر هذه الحديقة وما تشتمل عليه من مظاهر تُبهج النّفس موظفا صورا بلاغية ومستعيرا ألفاظا دالة على البيئة الاجتماعية لعصره، فالسيف والمبرد والعقد والدرّ وبساط الزبرجد كلّها تحمل دلالات اجتماعية تنّم عن مستوى التقدم الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري، ولقد كان الخروج إلى هذه الحدائق والمنتزهات يتمّ في كثير من الأحيان عبر زوارق شراعية، ممّا جعل كثيرا من الشعراء يسجلون هذه المظاهر الحضارية، ومن هؤلاء الشاعر محمد بن سفر*الذي وصف نزهة لبعض الشباب في زورق شراعي بنهر، فقال:

لَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ زَوْرَقَ فِتْيَةٍ يُبْدِي لَهُمْ بَهَجَ السُّرُورِ مَرَاحَه

وَقَدْ اسْتَدَارُوا تَحْتَ ظِلِّ شِرَاعِهِ كُلٌّ يَمُدُّ بِكَأْسِ رَاحٍ رَاحَه

لَحَسِبْتَهُ خَوْفَ العَوَاصِفِ طَائِرًا مَدَّ الحَنَانَ عَلَى بَنِيهِ جَنَاحَه

2- نفح الطيب، ج1، ص: 533.

*أبو الحسين محمد بن سفر من شعراء عصر الموحدين في المئة السادسة، شاعر ألمرية في عصره، الذي يغني ما أنشده من شعره، عاش بإشبيلية/ ينظر رايات المبرزين وغايات المميزين لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م، ص: 190.

تُشكّل هذه الأبيات خيالا بارعا، إذ يجعل الشاعر الفتية مترافقين في زورق مرحين مسرورين لم يلبثوا أن تجمعوا في ظل شراعه يتهادون كؤوس الخمر وكل منهم يمد بها لصاحبه، ويغوص في الخيال، فيقول: لكأنّ الزورق وهم مجتمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر في عشه دفعه الحنان إلى أن يمد جناحه على أولاده خوفا عليهم من العواصف المباغتة.

إذن فمجتمعات القرن السادس الهجري في بلاد المغرب الإسلامي قد عرفت حياة التحضر في ظلّ هذه المنتزهات والحدائق التي كانوا يقضون أوقاتهم بين ظلالها الوارفة ومياهها الجارية وخضرتها المتصلة وطيورها المغردة، وشعراء هذه البلاد قد سجلوا هذه المناظر وما تحويه من دلالات حضارية.

ب- النّواعير والدّواليب:

إنّ ممّا يتصل بوصف الحدائق والمنتزهات، وصف الدّواليب والنّواعير التي انتشرت في بلاد المغرب الإسلامي بانتشار البساتين والحقول، والنّاعورة هي آلة مائية تستخدم لسقاية الرياض، فتعمل على رفع المياه من الأنهار إلى مستوى الأراضي الزراعية، وهي عبارة عن عجلة خشبية كبيرة مجهزة بزعانف مستطيلة الشكل، وتضمّ إطارا خشبيا يقع داخل الزعانف، وتعمل الزعانف على زيادة قدرة الدّولاب على الحركة ورفع الماء، ويقسم الإطار على مجموعة من الدّلاء التي تسمى (فروغ، أو كيزان أو قواديس أو أوعية فخارية) حول دائرته، بحيث تكون مربوطة بشكل منظم على طول دائرته، وعادة تركب النّواعير على الأنهار أو الجداول الدائمة الجريان[1].

1- ينظر الدّواليب والنواعير في شعر المشارقة والأندلسيين، دراسة مقارنة، محمد يوسف بنات، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، م4، ع1، جمادى الآخرة 1438هـ-آذار 2017م، ص02./ عن النّواعير في التراث العربي، عماد الحفيظ، ص:10.

أمّا الدُّولاب بضم الدّال وفتحها له معان منها الساقية المعروفة، وتسميها العامة ناعورة أو هي الناعورة بنفسها، وهو معرّب[1]، والدُّولاب لا يختلف عن الناعورة شكلا، إلا أنّه أصغر منها حجما، ويختلف عنها في التقنية والعمل، فيدار بوساطة واحد من الحيوانات كالثور أو البغل أو الحصان، وقد يستخدم لإدارته عدة حيوانات في آن واحد، وغالبا ما يستخدم الدّولاب لرفع المياه إلى الأراضي الزراعية من الآبار أو الجداول والأنهار الصغيرة عبر قناة محفورة تحت سطح الأرض[2].

إنّ هذه النّواعير والدّواليب قد نالت اهتماما من قِبل العديد من شعراء بلاد المغرب الإسلامي كونها تمثل مظهرا حضاريا، غير أنّ وصفها في هذه البلاد قد عُرِف قبل القرن السادس الهجري بأكثر من قرن ونصف، فقد أورد الكتاني (ت420هـ) في كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس عددا من المقطوعات في هذا الموضوع، منها قول الشاعر محمد بن الحسين الطاري:

لِحَنِينِهَا حَـنَّ الفُـــؤَادُ التَّـائِــقُ وَبَكَى الكَئِيبُ المُسْتَهَامُ الوَامِقُ[3]

أَنَّتْ أَنِـينَ مُـغَـرَّبٍ عَـنْ إِلْـــفِهِ وَدُمُـوعُـهَا مِثْلُ الجُمَانِ سَـوَابِقُ

تَبْكِي وَيَضْحَكُ تَحْتَ سَيْلِ دُمُوعِهَا زَهْـرٌ تَبَسَّـمَ نُـورُهُ وَشَـقَائِقُ[4]

إنّ الشاعر قد مال في أبياته هذه إلى التشخيص فمنح النّاعورة صفات الأحياء وإحساساتهم، فجعلها تحن، وتئن وتبكي، أمّا الزهر فيبتسم لبكائها.

2- ينظر شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل، الخفاجي شهاب الدين أحمد بن عمر، تح: محمد كشاش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ-1998م، ص:155.

3- ينظر الدّواليب والنّواعير في شعر المشارقة والأندلسيين، ص:02.

1- التائق: المشتاق / الواصف: المحب.

2- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دط، ص:79- 80.

إنّ وصف الدّواليب و النّواعير في بلاد المغرب الإسلامي قد بلغ أوجّه في القرن السادس الهجري باعتبارهما مظهرين حضاريين نالا اهتماما واسعا من قِبل شعراء هذه الحقبة، فهذا الشاعر ابن منير الطرابلسي[1] يصف ناعورة، فيقول:

فَهْيَ مِثْلُ الأَفْلاَكِ شَكْلًا وَفِعْلاً   قُسِمَتْ قَسْمَ جَاهِلٍ بِالحُقُوقِ
بَيْنَ عَالٍ سَامٍ يَنْكُسُهُ الحَظُّ   وَيَعْلُو بِسَافِلٍ مَرْزُوقِ[2]

شبّه الشاعر النّاعورة التي تدور في مكانها وهي مُثبة على النهر بالأفلاك التي تدور حول المجرّة في السّماء، ففي قوله: "مثل الأفلاك شكلا وفعلا" دلالة حضارية علمية تنّم عن معرفته بعلوم الفلك.

إنّ للنّاعورة صوتا عند دورانها وسُمّيت بذلك لنعيرها أي صوتها الذي يخرج منها[3] وهذا الصوت تزداد قوته وتقل بحسب قوة تدفق الماء، فإذا كان تيّار الماء سلسا شُبّهت بصوت النّاقة الذي فيه حنان، وإذا اشتدّ هذا التيّار يكون الصوت قعقعة كزئير الأسد، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن السّيد البطليوسي (ت521هـ):

وَالدُّولاَبُ كَنَاقَةٍ إِثْرَ الحُوَارِ   أَوْ كَثَكْلَى مِنْ حَرِّ الأُوَارِ[4]

وقال آخر:

تَحِنُّ حَنِينَ العُودِ فِي نَغَمَاتِهِ   وَتَزْأَرُ أَحْيَانًا زَئِيرَ المُزَعْفَرِ

وعلى ما يبدو أنّ صوت النّواعير قد أخذ بمجامع المسامع فأطرب الرائي والسامع، فساهم ذلك في توسيع الخيال لدى الشعراء فتأمّلوا فيها وتفننوا وأغربوا، فهذا الشاعر أبوجعفر أحمد بن مسلمة بن وضّاح[1] (ت530هـ)، يقول:

3- أبو الحسن أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي يلقب بعين الزمان، شاعر ولغوي من طرابلس، توفي سنة 548هـ/ الأعلام، ج1، ص:255.

4- ديوان ابن منير الطرابلسي، تح: عمر عبدالسلام، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1426هـ-2005م، ص:181.

5- لسان العرب، ابن منظور، مادة (نفر).

1- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج3، ص:715.

وَبَاكِيَةٍ وَالرَّوْضُ يَضْحَـكُ كُلَّمَا   أَلَحَّتْ عَـلَيْهِ بِالدُّمُـوعِ السَّـوَاجِمِ

يُرُوقُكَ مِنْهَا إِنْ تَأَمَّلْتَ نَحْـوَهَا   زَئِـيرُ أُسُـودٍ وَالْـتِفَـاتُ أَرَاقِمِ

تُخَلِّصُ مِنْ مَـاءِ الغَـدِيرِ سَبَائِكًا   فَتُشْبِهُهَا فِي الرَّوْضِ مِثْلُ الدَّرَاهِمِ[2]

لقد بدا الشاعر ذا خيال جامح، فرأى النّاعورة باكية وصوت مائها يشبه زئير الأسد، ويلفت الأنظار إلى الماء فيراه منسابا انسياب الأفاعي بخفة ورشاقة، والماء حين يغرفه الدّولاب يشبه سبائك الفضة، فينبت أزهارا بيضاء تشبه الدراهم.

وهذا الشاعر محبوب النحوي لم يخرج عن سابقيه في وصف الناعورة إذ يقول:

وَذَاتِ حَنِينٍ مَا تَغِيضُ جُفُـونُهَا   مِنَ اللُّجَجِ الخُضْرِ الصَّوَافِي عَلَى شَطِّ

وَتَبْـكِي فَتُحْيِي مِنْ دُمُـوعِ جُفُونِهَا   رِيَـاضًـا تَبَـدَّتْ بِالأَزَاهِـرِ فِي بَسْطِ

فَمِنْ أَحْـمَرَ قَـانٍ وَأَصْفَرَ فَـاقِعٍ   وَأَزْهَـرَ مُبْيَضٍّ وَأَدْكَـنَ مُشْمَـطِ

كَأَنَّ ظُرُوفَ المَاءِ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهَا   لَآلِـئُ جُمَانٍ قَدْ نُظِمَنْ عَـلَى قِـرْطِ[3]

إنّ صوت النّاعورة غالبا ما يجذب انتباه الشاعر، فيرجعه إلى الحنين الذي تعانيه، فيصوّرها باكية غير أنّ دموعها المنسكبة من جفونها تسقي الرياض فتحييها، فتتزين بشتى ألوان الزهور، ثمّ يلتفت الشاعر إلى الدّلاء المربوطة على ظهر هذه الناعورة بانتظام، فيأتي بصورة طريفة في وصفها، مصورا إيّاها باللآلئ المنظومة في القرط.

2- أبو جعفر أحمد بن مسلمة بن وضاح، أديب شاعر من فحول الشعراء، مرسي الأصل/ ينظر الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج3، ص:426.

3- نفح الطيب، ج3، ص:601.

1- المصدر السابق، ج3، ص: 330-331.

ولا شك في أنّ الدّواليب هي الأخرى قد كان لها حظ وافر في أوصاف شعراء القرن السادس الهجري، ولعلّ أبرزهم الرصافي البلنسي*، الذي تُعدّ أبياته السينية محتذى كثير ممن أتوا بعده، تأثروا بها واستغلوا صورها وتشبيهاتها[1]،منها قوله[2]:

وَذِي حَنِيـنٍ يَـــكَادُ شَـوْقًا   يَخْتَلِسُ الأَنْفُسَ اِخْـتِلاَسَا[3]

لَمَّا غَـدَا لِلـرِّيَـــاضِ جَـارًا   قَالَ لَهَا الْمَحَلُّ لاَ مِسَاسَا[4]

يَبْـتَسِمُ الرَّوْضُ حِينَ يَبْكِي   بِـأَدْمُـعٍ مَـا رَأَيْــنَ بَـاسَا[5]

مِنْ كُلِّ جَفْنٍ يَسُـلُّ سَـيْفًا   صَـارَ لَـهُ غِـمْـدُهُ رِئَـاسَا[6]

لقد صوّر الشاعر هذا الدّولاب في حنين دائم بصوته الشّجي مشتاقا يأخذ بالأنفس، مبرزا مكانته بين الرياض فوجوده بجانبها يمنع الجدب والقحط عنها ولا يمسها جفاف، وفي قوله "لا مساس" اقتباس من قوله تعالى:﴿**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ**﴾[طه: 97]، وكأنّ هذا الدّولاب عقاب للقحط وإحياء للروض بعد أن يسقيه بمائه الذي شبهه بالدمع، ففي هذه الأبيات أضفى الشاعر كثيرا من الصفات الإنسانية على الدّولاب إذ جعله يحن ويشكو ويبكي ويتنفس مقابلا بين ضحك الزهور وبكائه.

---

*أبو عبدالله محمد بن غالب الرفاء الرصافي شاعر وقته في الأندلس وأصله من رصافة بلنسية، وعرفه صاحب المعجب بالوزير الكاتب الذي استوطن مالقة، توفي سنة 572هـ-1177م/ الأعلام، ج6، ص:324/ المعجب، ص:159.

2- ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، دار الرشيد، بغداد، 1980م، ص: 143.

3- ديوان الرصافي البلنسي، جمعه وقدم له: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م، ص:100/ المعجب، المراكشي، ص: 164.

4- اختلس الشيء: أخذه أو استلبه في نزهة.

5- المحل: الجذب، القحط.

6- الباس: البأس الشدة أو المشقة.

7- رئاس السيف: مقبضه أو قائمه.

إنّ المتأمّل في مقطوعات وصف الدّواليب، يجد معاني الحنين والشوق والبكاء قد تناقلها الشعراء في أبياتهم، فهذا الشاعر أبو الحسن بن سعد الخير[1]، يصف دولابا، فيذكر معاني الحزن والفراق، فيقول:

لِلَّـهِ دُولَابٌ يَفِـيـضُ بِسَـلْسَـلٍ فِي رَوْضَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ أَفْـنَانَا

قَدْ طَارَحَتْهُ بِـهَا الحَمَائِمُ شَجْوَهَا فَـيُجِـيبُهَا وَتُرَجِّـعُ الأَلْحَـانا

وَكَأَنَّـهُ دَنَـفٌ أَطَـافَ بِمَـعْـهَدٍ يَـبْكِي وَيَسْأَلُ فِيهِ عَمَّنْ بَـانَا

ضَاقَتْ مَجَارِي طَرْفِهِ عَنْ دَمْعِهِ فَتَفَتَّحَتْ أَضْــــلاَعُهُ أَجْفَانَا[2]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يجد الشاعر قد عبّر عن معان تثير الأحزان فجمع بين حنين الدّولاب وأنين المريض، فشخّص هذه المعاني وجعلها تنبض بالحركة، فالحمام يشارك الدّولاب حزنه ويردد ألحانه، ويرد الدّولاب الجواب بصوت فيه كثير من الحزن، وقد شبّهه أيضا في أنينه وبكائه وشكواه برجل براه المرض وأتعبه من شدة الحب، وكثرة طوافه في الديار بحثا عن الذين فارقوه وابتعدوا عنه، ومن عجائب الوصف لهذا المظهر الحضاري ما ذكره المقّري في نفح الطيب من مقطوعتين لشاعرين تباريا في وصف دولاب كان قد أخذ منظره بمجامع قلبيهما، وملأ أبصارهما وأسماعهما مسرة والتذاذا، فجلسا يتذاكران ما في تركيبه من الأعاجيب، ويتناشدان ما وصف به من الأشعار حتى كمل لديهما ما أرادوا من غير أن يقف واحد منهما على ما صنعه الآخر، فقال أحدهما:

حَـبَّذَا سَـاعَةُ العَـشِيَّةِ وَالدُّو لاَبُ يُهْدِي إِلَى النُّفُوسِ الْمَسَرَّهْ

أَدْهَـمُ لاَيَـزَالُ يَعْـدُو وَلَكِنْ لَيْـسَ يَـعْـدُو مَـكَانَهُ قَـدْرَ ذَرَّهْ

1- علي بن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخير أبو الحسن البلنسي الدار أنصاري، كان عالما بالعربية واللغة والآداب إماما في ذلك وأقرأها حياته كلها، وكان بارع الخط كاتبا بليغا شاعرا مجيدا، توفي بإشبيلية في ربيع الآخر 571هـ/ زاد المسافر، صفوان بن إدريس، ص:103.

2- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج2، ص317/ زاد المسافر، ص:104.

ذُو عُيُونٍ مِنَ القَوَادِيسِ تَبْكِي　　كُلُّ عَيْنٍ مِنْ فَائِضِ الدَّمْعِ ثَرَّهْ

فَـــلَكٌ دَائِــرٌ يُرِينَا نُجُومًا　　كُلُّ نَجْمٍ يُبْدِي لَدَيْنَا الْمَجَرَّهْ[1]

لقد جعل الشاعر هذا الدّولاب مصدر سرور النفوس مشبها إيّاه بالحصان في سرعة دورانه، غير أنّه يعدو مسرعا في مكانه بخلاف الحصان، ثمّ التفت إلى عيون دلاء الدّولاب التي يسيل منها الماء حين يرفعه فشبهها بالعين التي ينسكب دمعها من البكاء، وقد زاد صورة أخرى للدّولاب حين شبهه بالفلك الدائر الذي ترى المجرة بجانبه، وفي سياق هذا الوصف الحضاري وظّف الشاعر مصطلحات حضارية أخرى (فلك، نجوما، المجرة) وهذا يدل على أنّ القرن السادس الهجري قد عرف علم الفلك الذي هو مظهر حضاري آخر عرفته بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة.

أمّا الشّاعر الآخر فردّ واصفا الدّولاب من نفس وزن وقافية صاحبه، فقال:

وَدُولاَبٍ يَــئِنُّ أَنِــينَ ثَكْلَى　　وَلاَ فَقْدًا شَكَاهُ وَلاَ مَضَرَّهْ

تَرَى الأَزْهَارَ فِي ضَحِكٍ إِذَا مَا　　بَكَى بِدُمُوعِ عَيْنٍ مِنْهُ ثَرَّهْ

حَكَى فَلَكًا تَدُورُ بِهِ نُجُومٌ　　تُؤَثِّرُ فِي سَرَائِرِنَا الْمَسَرَّهْ

يَظَلّ النَّجْمُ يُشْرِقُ بَعْدَ غَمٍّ　　وَيَغْرُبُ بَعْدَمَا تَجْرِي الْمَجَرَّهْ[2]

إنّ صوت الدُّولاب عادة ما يجعل الشعراء يستلهمون معاني الحزن والحنين، فقد شُبّه في هذه المقطوعة بأنين المرأة التي فقدت ابنها، غير أنّه لم يفقد ولم يضرّه شيء، وهو دائما مصدر سعادة وسبب حياة الرّياض، ثمّ يَعمد الشاعر لذكر مصطلحات حضارية (فلكا، النجم، المجرّه)، في تشبيه لدوران هذا الفلك مبديا تأثيره في النفوس.

1- نفح الطيب، ج3، ص:501.

1- المصدر السابق، نفح الطيب ج3، ص:502.

إنّ غالبية شعراء هذه الحقبة حين حديثهم عن الدّولاب جذبهم صوته وشكله فتداولوا معاني مكررة في وصفه، فهذا ابن سعيد يقول فيه[1]:

وَمَحْنِيَّةِ الأَصْلاَبِ تَحْنُو عَلَى الثَّرَى   وَتَسْقِي بَنَاتِ التُّرْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[2]

تُـعَـدُّ مِنَ الأَفْـلاَكِ أَنَّ مِـيَاهَــهَا   نُجُــومٌ لِرَجْـمِ الْمحْـلِ ذَاتِ ذَوَائِبِ[3]

فهذا الدّولاب حنّ على التراب يسقي زهور الرّوض، مدافعا عنه وحاميه من الجدب والقحط، وفي المعنى نفسه تقريبا يقول الشريف الطوسي:

وَدُولاَبٍ إِذَا غَـــنّى   يَزِيدُ القَلْبَ أَشْجَانَا

سَـقَى الرَّوْضَ فَغَنَّاهُ   فَـمَا يَـبْرَحُ نَشْـوَانَا[4]

فصوت الدّولاب دائمًا يزيد من أحزان القلب لكن دموعه تبهج الروض وتحييه، وإذا ما عُدنا لابن سعيد القلعي (ت592ه) وجدناه يضفي مظاهر حضارية أخرى على وصفه فيقول:

تَرَى نِصْفَهَا العُلْوِيَّ قَوْسَا مُرِنَّةً   تُرَامِي سِهَامَ الْمَاءِ عَنْ كُلِّ جَـانِبِ

وَأَطْرَبَـهَا رَقْصُ الغُصُونِ ذَوَابِلاً   فدارت بأمثال السُّيُوفِ القَوَاضِبِ

وَتَحْسَبُهَا وَالرَّوْضُ شِرْبًا وَقَيْنَةً   كَمَنْ حَوْلَهَا مَا بَيْنَ شَـادٍ وَشَـارِبِ

كَأَنَّ مَجَـارِيهَا وَدُهْـمَةُ لَـوْنِهَا   بَيَاضُ العَطَايَا فِي سَـوَادِ الْمَـطَالِبِ[5]

إنّ هذه المقطوعة الحضارية قد اشتملت على كم من مظهر حضاري (القوس، الرقص،

2- كتاب السحر والشعر: لسان الدين بن الخطيب، تح المستشرق الألماني: كونتنته بيرير، راجعه ودققه: محمد سعيد اسبر، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2006م، ص:102.

3- بنات الترب كناية عن الأزهار.

4- ذوائب: ذؤابة الفتاة ظفيرة منسدلة من وسط رأسها إلى ظهرها.

5- كتاب السحر والشعر، ص:102.

1- رايات المبرزين وغايات المميزين، ص:172.

السيوف، مجلس الخمر)، فشَكْلُ الدّولاب وهو يقذف الماء يشبه قوسا يرمى منها سهام يسمع لها صوت رنين هذا الأخير الذي بدا منسجما وأغصان الروض التي أخذت تتمايل فرحا وتتراقص طربا في صورة مجلس شراب يضم جماعة يتعاقرون الخمر في وسط قينة تغني فتطرب أسماعهم بصوتها الجميل، ولم يخرج ابن رشيد الإشبيلي عن وصف أسلافه لهذا المظهر الحضاري غير أنّه حاول أن يأتي بالجديد في عقد تشبيهاته، إذ يقول[1]:

وَمَنْجَنُونٍ إِذَا دَارَتْ سَمِعْتَ لَهَا صَوْتًا أَجَشَّ وَظَلَّ الْمَاءُ يَنْهَمِلُ

كَأَنَّ أَقْدَاسَهَا رَكْبٌ إِذَا سَمِعُوا مِنْهَا حُدَاءً بَكَوْا لِلْبَيْنِ وَارْتَحَلُوا[2]

يبدو أنّ هذا الدّولاب يدور بقوة دفع من الجن، فكلّما دار سمع دوي أصواتها الحزينة فأثّر ذلك في المستمعين لأنّه صوت مبحوح من شدة البكاء، أمّا القواديس المحمولة على ظهره فشبهها بالركب الباكين الذين عقدوا العزم على الرحيل لمّا سمعوا لحنها الحزين الذي ينذر بالفراق والبين، هذا الرحيل الذي اتخذ الإبل مطية له بدل الخيل ولعلّ هنا يكمن الجديد، ذلك أنّ عادة أهل الأندلس اتخاذ الخيل للسفر، فربما هذا التوظيف يعكس حنين الشاعر إلى بلاد المشرق الذين من عادتهم اتخاذ الإبل في تنقلاتهم، وقد تكون انعكاسا لحزنه على بداية تهاوي المدن الأندلسية في أيدي الصليبيين مما ينذر برحيله نحو المشرق.

إنّ النّاعورات هي "مطية إلى الخير والنّماء، وسبيل إلى إماتة العطش وإحياء الأرض من العدم، وشق السواقي مألوف عند الأمم وفي مختلف الحضارات قبل الاستكشاف التكنولوجي الحديث، بل إنّها ما تبرح قائمة إلى يومنا هذا في البوادي والصحاري عامة... وتعتبر مظهرا من المظاهر المثيرة للنفس عن طريق بعث نشوة ساحرة فيها، وزرع سرور

2- نفح الطيب، ج4، ص:125.

3- حداء: صوت الغناء للإبل.

عظيم، فجلوس المرء إلى ساقية سريعة من شأنه أن يغير جَوّه ويحث فكره، ويبدد حزنه"[1] ولذا نجد كثير من شعراء القرن السادس الهجري في بلاد المغرب الإسلامي قد هاموا في هذين المظهرين الحضاريين، فسخّروا عصارة ما جادت به قرائحهم وأخيلتهم لتسجيل هذا النتاج الإنساني.

ج- الفوّرات والتماثيل:

إنّ من المظاهر الحضارية البارزة في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، مظهر الفوّرات و التماثيل التي كانت تزدان بها القصور والبساتين، حيث تمجّ المياه من أفواهها في منظر بديع، ولشعراء هذه الحقبة مقطوعات كثيرة في وصفها، فمن ذلك قول القلعي الأصم[2] في صفة فوارة:

وَحَاكِيَةٍ بِالْمَاءِ لَوْنَ اضْطِرَابِهِ	قَـوَامًا وَحُسْنًا حِينَ يَبْدُو وَيُوبِصُ[3]
قَضِيبُ لُجَيْنٍ أَلْمَعَ الصَّقْلُ مَتْنَهُ	وَأَخْلَصَهُ فِي السَّبْكِ مِنْ قَبْلُ مُخْلِصُ
تَسَامَى قَلِيلاً ثُمَّ عَادَ كَأَنَّهُ	جُمَانٌ، حَوَالَيْهَا عَلَى الْمَاءِ يَرْقُصُ[4]
تُضَايِقُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا	لَهَا بَيْنَ هَاتِيكِ النُّجُومِ تَلَصُّصُ[5]
كَأَنَّ نَوْلاً مِنْ يَمِينِ "كَرَامَةَ"	يُمَدُّ بِهِ إِذْ نَرَى الْمَاءَ يَنْقُصُ[6]

1- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي: محمد مرتاض، ج2، ص: 515.

2- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكرياء القلعي الأصم من قلعة بني حماد ومن شعراء الدولة الحمادية المشهورين، كان جيد الشعر توفي سنة 522ه وقيل 529ه/ينظر خريدة القصر وجريدة العصر،ج1، ص:337، الوافي بالوفيات،ج3، ص: 77.

1- يوبص: " الوبيصُ : البَرِيقُ ؛ وبَصَ الشيءُ يَبِصُ وَبْصاً ووَبِيصاً وبِصَةً : بَرَقَ ولَمَع ، ووبَصَ البرقُ وغيره، معجم الرائد، مادة(و ب ص).

2- جمان: حب يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ.

3- تلصص: تلصص الشخص، تجسس، تسمع خفية.

4- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب، ج1، ص:340،339.

إنّ هذه الفوارة لم تك لتستقل عن الماء الصافي العذب، فهي تشابهه في اهتزازه واضطرابه حين يرتفع منها ويلمع كأنّه شريط طويل ممدد مصنوع من فضة، كان صانعه قد أحسن وأخلص في تنقيته وتذويبه وصياغته، وهنا يتجلى لنا مظهر حضاري آخر تمثل في فن صنع الحلي والأشكال من المعادن المذابة كالذهب والفضة وغيرهما، فالماء المرتفع منها يعود إليها متناثرا وكأنّه حبّات لؤلؤ تراقص المياه حين تسقط عليها، وهنا يتجلى لنا مظهران حضاريان آخران عُرفا في هذه الحقبة، ألا وهما حلي الجمان الذي اتخذ للزينة وظاهرة الرقص للهو والتسلية، ثمّ يعمد الشاعر إلى شكل الفوّارة فيصفها مبالغا، فهي مرتفعة تطاول أعالي السماء حتى كأنّها تتجسس على النّجوم، وأمّا تناقص الماء منها أحيانا فيعلله الشاعر بجود صاحبها "كرامة"*.

ومن معاصري الأصم القلعي الذين اشتهروا بوصف القصور ومحتوياتها وبخاصة النوافير نجد ابن حمديس الصقلي الذي عُرِف بموهبة أدبية نادرة، وذوق جمالي رفيع وشاعرية متدفقة، فهو يصف لنا فوارة من إحدى قصور بني حماد ببجاية في القرن السادس الهجري فيقول:

عَجَبًا لَهَا تَسْقِي الرِّيَـاضَ يَنَـابِعًا ... نَبَعَتْ مِنَ الثَّمَـرَاتِ وَالأَغْـصَانِ

فَإِذَا أُتِيحَ لَـهَا الكَـلاَمُ تَكَلَّمَتْ ... بِـخَرِيرِ مَـــاءٍ دَائِمِ الـهَمَلاَنِ[1]

وَكَأَنَّ صَـــانِعَهَا اسْتَبَدَّ بِصَنْعَةٍ ... فَخَـرَّ الجَمَادُ بِهَا عَلَى الحَـيَوَانِ

أَوْفَتْ عَلَى حَوْضٍ لَـهَا فَكَأَنَّهَا ... مِنْهَا إِلَى العَجَبِ العُجَابِ رَوَانِي

فَـكَأَنَّهَا ظَنَّتْ حَـــلاَوَةَ مَائِهَا ... شَهْداً فَذَاقَـتْهُ بِـــكُلِّ لِـسَـانِ

*كرامة: هو ابن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب القلعة، ولاه عمه يحيى بن عبد العزيز على تونس سنة 522ه بعد أن تغلب الحماديون وأخذوها من أمير بني خراسان/ ينظر الخريدة، 340/1، تاريخ ابن خلدون، 335/6.

1- الهملان: السائل بلا انقطاع أو مانع له، هملت العين : فاضت دموعا، هملت السماء : دام مطرها في سكون/ معجم الرائد، مادة (ه م ل).

لقد جعل الشاعر هذه الفوارة تشترك في خاصية سقيا الرياض مع النواعير والبرك متعجبا من ذلك، وممّا زاد عجبه سيلان مائها دون انقطاع، فهي فوارة لم يبق لها مثيل فريدة في صنعها، أمّا مكانها فهو حوض أشرفت عليه مُديمةً النظر إليه بسكون الطرف، ولم يستثن الشاعر ماءها من الوصف فجعله أحلى من العسل، ثمّ يسترسل ابن حمديس في وصف الشكل الذي اتخذته هذه الفوارة، فيقول[1]:

وَزَرَافَةٍ فِي الجَوْفِ مِنْ أُنْبُوبِهَا ... مَاءً يُـرِيكَ الجَـرْيَ فِي الطَّـيَرَانِ

مَرْكُـوزَةٍ كَالرُّمْحِ حَيْثُ تُـرَى لَهُ ... مِنْ طَعْنَةِ الحَلْقِ انْعِطَافَ سِنَانِ

وَكَأَنَّــهَا تَــرْمِي السَّـمَاءَ بِبُنْدُقٍ ... مُسْتَنْبَطٍ مِـنْ لُـؤْلُـؤٍ وَجُـمَـانِ

لَوْ عَادَ ذَاكَ الْمَاءُ نِفْطًا أَحْرَقَتْ ... فِي الجَــوِّ مِنْهُ قَمِيصَ كُلِّ عَـنَانِ[2]

إنّ هذا الفوّارة قد اتّخذت شكل زرافة يخرج من فمها ماء سريع الجريان وهي مثبتة كالرمح المنعطف بعد إصابة الفريسة، أمّا الماء المنبعث من جوفها على دفعات يشبه في شكله ثمارا لوزية تحسبها مصنوعة من اللؤلؤ، وفي هذه الأبيات ما يدلّ على براعة في فن النّحت الذي يُعدّ مظهرا حضاريا وقتذاك، ومن الأبيات التي تصف الفوّارات التي اتخذت أشكال حيوانات، ما ذكره أبو العباس أحمد بن حنون* في فوّارة على شكل أسد:

وَمُوهِمٍ قَصْدَ حُضْنٍ لَيْسَ مَقْصِدَهُ ... إِلاَّ السُّكُونَ فَمَا شَيْءٌ يُحَرِّكُهُ

تَقْبِضُ اللَّذَّاتِ حِرْصًا لِلْوُثُوبِ عَلَى ... فَرِيسَةٍ وَحَـذَارِ الفَـوْتِ يُدْرِكُهُ

2- ديوان ابن حمديس، ص: 495-496.

3- نفطا: نفطت القدر؛ غلت ورمت بمثل السهام. المعجم الوسيط، مادة (ن ف ط).

*أبو العباس أحمد بن حنون الإشبيلي من بيوت إشبيلية وأغنيائها آل أمره أن اتهم بالقيام على السلطان، ففرّ على وجهه ثمّ عفي عنه، في مدة المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (558ه/580ه)/ ينظر المغرب في حلى المغرب، ج1، ص:249.

وَالْمَاءُ فَتِيٌّ فِيهِ كَالثُّعْـبَانِ مُضْطَرِبًا يبغي التخلّص منه وَهْوَ يُمْسِكُهُ[1]

إنّ هذه الفوّارة التي اتخذت شكل أسد يبدو وكأنّه يريد حُضن شيء ما بحركة غير مقصودة لأنّه منحوت على هذا الشكل، فهو ساكن منتصب في مكانه لا شيء يحركه، غير أنّه يبدو متأهبا للانقضاض على فريسته متخذا حذره من أن يفلتها من قبضته، لأنّ منظره يوحي ببراعته وحجمه ينبيء عن قوّته، كما نجد أنّ الشاعر يضفي على هذه الفوارة التي اتخذت شكل أسد لمحة أسطورية من خلال الماء المنبعث من فمه والذي يتدفق بغزارة وكثافة تشبه في شكلها الثعبان المتخبط وهو يحاول الفرار من الأسد الذي أحكم قبضته، ففي هذه الأبيات ما يدل على براعة ودقة في وصف ناتج عن إعجاب بهذا المظهر الحضاري.

ومن شعراء القرن السادس الهجري في بلاد المغرب الإسلامي الذين اعتنوا أيضا بتسجيل هذا المظهر الحضاري، نجد أبا جعفر الكاتب القرطبي*يقول في فوارة رخام كلّفه وصفها والي قرطبة[2]:

مَـا شَغَلَ الطَّـرْفَ مِثْلُ فَـائِرَةٍ تَمُجُّ صَرْفَ الحَيَاةِ مِنْ فِيهَا[3]

أُشْرِبْ بِهَا وَالحَـبَابُ فِي جَذَلٍ يُظْهِرُهُ حُسْـنُهَا وَيُخْـفِيهَا[4]

1- زاد المسافر، ص:51.

*أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن اللخمي الكاتب من أهل قرطبة ويعرف بالربضي، لسكناه بالربض الشرقي منها، كتب للولاة ثم قعد عن الخدمة، والتزم عمارة أرضه متعيشا من غلتها إلى أن توفي أول شوال سنة 610هـ/ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار، ص:178.

1- نفح الطيب، ج3، ص:269.

2- الطرف: تحريك الجفن، الطرف: العين يطلق على الواحد وغيره وقد يثنى ويجمع.

3- الحَبَابُ: الفقاقيع التي تطفو على سطح الماء/ جذل: فرحة، بهجة.

تَـــــكَادُ مِنْ رِقَّةٍ تَضَمُّـنِهَا تَخْطُبُهَا العَـيْنُ إِذْ تُـوَافِيهَا

كَأَنَّـــــــــــهَا دُرَّةٌ مُنَعَّمَةٌ زَهْرَاءُ قَدْ ذَابَ نِصْفُهَا فِيهَا

إنّ هذه الفوّارة لحسنها وجمالها وبديع صنعها قد شغلت عين الشاعر فمنعته النظر لغيرها، فهي مصدر الحياة بما يخرج من فمها من عذب المياه ولعلّ قول الشاعر تمجّ صرف الحياة من فيها اقتباس من قوله تعالى﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنبياء: 30]، إذْ قصر الحياة على ما يخرج من جوفها وما لفت انتباه الشاعر أيضا تلك الفقاقيع التي تطفو على مياهها نتيجة صنع الرياح وقد صوّرها مبتهجة تظهر تارة وتختفي تارة أخرى، وقد احتوت هذه الفوارة من الرقّة والجمال ما جعلها درّة منعمة بحق تشغل الطرف عن الالتفات لغيرها، فالبيت الأخير سبب لحكم ورد في البيت الأول.

وهذا الشاعر ابن الرائعة يرسم لوحة جميلة لفوارة فيقول[1]:

يَا حُسْـــنَ فَـوَّارَةٍ لِلْأُفْـقِ رَاجِـمَـةً بِالشُّهْبِ تَنْزُو نَزْوَ الوَاثِبِ اللَّعِبِ

يَنْسَابُ عَنْهَا حَبَابُ الْمَـاءِ مُـنْـدَفِـقًا إِلَى البُحَيْرَةِ مِثْلَ الأَيِّمِ مِنْ رُعْـبِ[2]

كَأَنَّـــمَا مَـارَ تَحْتَ الأَرْضِ فِي كَبَدٍ فَحِينَ أَبْصَرَ وُسْعًا جَدَّ فِي الهَرَبِ[3]

فَـقَـرَّ فِـيـهَا وَقَـدْ أَرْضَـــاهُ مَـسْـكَـنُهُ وَظَلَّ يَبْسُمُ مِنْ عَجَبٍ عَنِ الحَبَبِ

وَظَلَّتِ القُضْبُ مِنْ عِشْقٍ تَحُومُ عَلَى تَقْـبِيلِهِ عِـنْدَمَا يَـفْـتُرُ عَـنْ شَنَبِ[4]

4- رايات المبرزين وغايات المميزين، ص:71.

1- الأيم: الحيّة الذكر، والجمع : أيُوم/ المعجم: المعجم الوسيط (الأَيْمُ).

2- مار : مارَ الشَّيءُ، مار الرَّجلُ تحرّك وتدافع في اضطراب ذهابًا وجيئة، معجم المعاني مادة (مار).

3- القضب: أغصان الأشجار المحيطة بباحة الفوارة/ الشنب: ماء وعذوبة في الفم أو في الأسنان.

يتخيّل الشاعر هذه الفوارة حين تقذف مياهها إلى أعلى، كأنّها ترجم الأفق بشهابها، وقد رُوّعَت قطرات الماء وهي تتدفق منها إلى البحيرة ويصف الماء وقد انساب إلى الأرض فاتخذها سكنا وأخذ يفتر عن ثغر جميل فانجذبت إليه الأغصان وانعطفت عليه تقبله.

إنّ هذه الفوّارات التي وصفها شعراء القرن السادس الهجري كثيرا ما جاءت على شكل تماثيل، ورغم أنّ التماثيل محرمة في الإسلام[1]، لأنّه كان يراد بها مشابهة الله في خلقه[2]، ولا سيما المجسدة للإنسان والحيوان إلاّ أنّ أهل بلاد المغرب الإسلامي قد تجاوزوا نداءات التحريم، ومالوا إلى تقليد التماثيل والنقوش الإسبانية والنصرانية فزينوا بها القصور والبيوت والساحات العامة[3]، وعليه وُجِدت كثير من النصوص الشعرية التي تصف هذه التماثيل كونها مظهرا حضاريا عرفته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، فقد ذكر المقّري أنّه كان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل، فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله:

وَدُمْـيَـةُ مَـرْمَـرٍ تُـزْهَى بِـجِيدٍ ... تَنَاهَى فِي التَّـوَرُّدِ وَالبَـيَاضِ

لَـهَا وَلَدٌ وَلَمْ تَعْـرِفْ خَلِيـلاً ... وَلاَ أَلَمَّتْ بِأَوْجَاعِ الْمَخَاضِ

وَنَعْلَمُ أَنَّـهَا حَجَـرٌ وَلَكِـنْ ... تُتَيِّمُنَا بِأَلْحَـاظٍ مِـرَاضِ[4]

إنّ هذه الأبيات تسجّل أوصافا لتمثال أُعجب به الأندلسيّون لما يحمل من صفات آدمية فهو لامرأة حسناء لها رضيع، يعجب بها كل من شاهدها رُغم أنّها حجر، ففي هذه

4- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى" **ومن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة"**. أخرجه البخاري، رقم 5953/مسلم، رقم2111 .

5- ينظر الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد بن عبدالعزيز السليمان القرعاوي، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، 2004م، ص:385.

6- ينظر التأثير الإسباني في المجتمع الأندلسي وصورته في الأدب، رسالة ماجستير، إعداد: نوال الدسوقي، إشراف: صلاح جرار، الجامعة الأردنية كلية الدراسات العليا، 1996م، ص:78.

1- نفح الطيب، ج1، ص:73.

الأبيات ما يدلّ على براعة في فنّ النحت على الحجر الّذي يعدّ مظهرا حضاريا في هذا القرن.

وقال المقّري: ولبعضهم في شكل يرمي الماء مجوفا مثل الخباء وتمزقه الريح أحيانا:

وَمُطْنِبٍ لِلْمَـاءِ مَـا أَوْتَـادُهُ   إِلاَّ نَـتَائِجُ فِكْرِ طِبٍّ حَـاذِقِ

لَعِبَتْ بِهِ أَيْدِي الصَّبَا فَكَأَنَّهَا   أَيْدِي الصَّبَابَةِ بِالفُؤَادِ العَاشِقِ[1]

فهذا الشكل المجوف وما عليه من مستلزمات إنمّا هو نتاج حضاري لفكر صانع ماهر حاذق وما زاد من روعته وجماله تلك الرياح التي تشقه فلكأنّها أيدي محب تُقلّب فؤاد حبيبها وتفعل به كما شاءت.

وقال التطيلي الأعمى في وصف أسد رخام يرمي بالماء على بحيرة:

أَسَـدٌ وَلَـــوْ أَنِّي أُنَا   قِشُهُ الحِسَابَ لَقُلْتُ صَخْرَهْ

وَكَأَنَّــهُ أَسَـدُ السَّـمَا   ءِ يَمُــجُّ مِنْ فِـيهِ الْمَجَرَّهْ[2]

فالظاهر أنّ الشاعر قد أعجب بهذا التّمثال الذي صنع على شكل أسد من نحاس يقذف الماء من فيه في روضة مزدهرة وقد شبهه ببرج الأسد الموجود في السماء[3]وفي هذا التمثيل دلالة حضارية على معرفة بلاد المغرب الإسلامي في هذا القرن لعلم الفلك ومعرفتهم بمواقع النجوم وأشكالها. إنّ الأشعار التي سجلت هذا النوع من مظاهر التحضر لم تكد

2- المصدرنفسه، ج3، ص:601.

1- ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته، أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة (525ه)/ تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1963م، ص:49.

2- برج الأسد برج كبير به أربع نجوم لامعة، أكثرها لمعانا النجم قلب الأسد(REGULUS) الذي من السهل رؤيته عندما تكون المغرفة الكبرى في برج الدب الأكبر عالية في السماء/ أساطير السماء -برج الأسد- دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، محمد زكرياء توفيق، 2015/07/22.

تخرج عن معاني الجمال والقوة وذكر المياه والنجوم فقد تداول شعراء القرن السادس الهجري المعاني نفسها في وصفهم لهذه الأشكال الحضارية، فهذا الشاعر علي بن أبي الحسين يؤكد معاني سابقيه في وصف أسد يقذف الماء في صهريج ويصرف الصهريج وأشخاص الكواكب، فيقول[1]:

وَهِزَبْرٍ هَـادِرٍ فِي غَـــابَةٍ   يَرْدَعُ اللاَّمِـحُ عَـنْهُ بِالـزُّؤَدِ[2]

فَـــاغِرٍ فَـاهُ فَـمَا يُغْلِـقُهُ   سَائِلِ الرِّيقِ مُشِيحٍ ذِي لِبَدِ[3]

لاَ يُرَى مُنْتَقِلاً مِنْ مَوْضِعٍ   لاَ وَلاَ مُفْـتَرِسٍ سِـرْبَ نَقِدِ

رِيـقُهُ فِيهِ حَـيَاةٌ لِلْـوَرَى   وَالثَّرَى مِنْ فَيْضِ جَدْوَاهُ ثَئِدِ[4]

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يدرك مدى براعة الشاعر في دقّة الوصف حتى ليُخيّل للقارئ أنّه أمام أسد حقيقي، فقد جعله قويا شجاعا مرعبا كلَّ من ينظر إليه، غير أنّه ثابت مكانه لا ينتقل من موضعه، وهذا ما يجعله غير حقيقي، وكعادة هذه التماثيل فهي مرتبطة بالماء الذي فيه حياة الكائنات، ويسترسل الشاعر في وصف هذا الأسد وما يخرج من فيه فيقول:

فَـاضَ مِنْهُ زَاخِـرٌ مُلْتَطِمٌ   هُـوَ بَحْرٌ مِنْ لَهَاتَيْهِ يَمُـدّ[5]

فَإِذَا هَبَّتْ بِـهِ رِيحُ الصَّبَا   خِلْتُ فِي أَعْلاَهُ وَشْيًا أَوَ زَرَد[6]

وَإِذَا بِتَّ عَلَيْـهِ فِي الدُّجَى   كُنْتَ لِلأَفْـلاَكِ فِيـهِ مُمْتَهَد

3- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ابن الكتاني، ص:22.

4- الهزبر: الأسد الكاسر/ يردع: يرد/ الزؤد: زؤد الرجل زؤدا فهو مزؤود أي مذعور إذا فزع.

5- فاغرا: فاتحا فمه/ مشيح: شجاع/ لبد: ثابت لا يترك مكانه.

6- ثئد: ثئِدَ النَّبْتُ والمكانُ ثئِدَ ثأدًا : ندِيَ، المعجم الوسيط مادة(ثئد).

1- زاخر: مرتفع الأمواج/ لهاتيه: اللهاة من كل حلق اللحمة المشرفة على الحلق أو الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم.

2- وشيا: وشى الثوب ونحوه زخرفه، حسّنه بالألوان ونمنه ونقشه/ زرد: الزرد حيوان مخطط يشبه الحمار.

وَكَأَنَّ الأَنْـجُمَ الزُّهْـرَ بِـهِ   زَهْـرٌ بُــدِّدَ في أَرْضٍ بَـدَدِ[1]

إنّ هذا التمثال الحضاري كغيره من الأسد الصناعية السابقة، يفيض الماء من فيه كأمواج البحر وتهبّ عليه رياح شرقية فيبدو أعلاه مزخرفا ومُمْنما بألوان فسيفسائية تنمّ عن مستوى حضاري بَلَغَهُ القرن السادس الهجري في هذه البلاد، وفي ذكره للأفلاك والأنجم الزهر دلالة حضارية أخرى سبق طرقها.

د- البرك والصهاريج:

لقد تنوّعت صور الوصف الشعري لوسائط المياه وأدواتها، كونها مظاهر حضارية عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، فتغنّى الشّعراء بالرياض ومصادر ريّها كالدّواليب والنّواعير التي انتشرت في الحدائق والمنتزهات، إضافة إلى الفوّارات والتماثيل التي ازدانت بها قصور الخلفاء والأمراء. ولم يهمل شعراء هذه الحقبة البرك الصناعية وصهاريج المياه فأكثروا من التنويه بملامح بنائها وتنافسوا في وصفها كونها مصدر حياة وسببا من أسباب السعادة والرفاهية من جهة، وكونها نالت اهتمام حكام هذه الحقبة من جهة أخرى، على نحو ما فعل أمير إشبيلية الذي أمر ببناء محبس للماء بداخل إشبيلية وأشرف على تدشينه في عسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة، وضربت الطبول على إجرائه والسرور بوصوله إلى محبسه[2]، وعلى هذا النحو مضت جهودهم قدما في توفير مصادر الاستقرار، فحفروا الآبار وبنوا البرك والصهاريج والأخبية، فمن النصوص الشعرية التي سجلت هذه المظاهر الحضارية في القرن السادس الهجري ما وجدناه عند الشاعر الوزير الحكيم أبي محمد المصري في وصف بركة تقع في قصر طليطلة، ومنوها بالقبة المضروبة فوقها:

شَمْسِيَّةُ الأَنْسَـابِ بَـدْرِيَّةٌ   يَحَـارُ فِي تَشْبِيهِـهَا الخَاطِرُ

3- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ابن الكتاني، ص:22.

1- ينظر المن بالإمامة، ص:296.

كَأَنَّمَا الـمَأْمُونُ بَدْرُ الدُّجَى وَهِيَ عَـلَيْهِ الفَلَكُ الدَّائِـرُ[1]

فالبركة عظيمة الشأن تنتسب للشمس والبدر في عظم القدر والفضل حتى إنّ الشاعر قد حار في وصفها وإيجاد شبيهها، فهي متفردة في الحسن، وما زاد جمالها إحاطتها بالخليفة المأمون فلكأنّه بدر ولكأنها الفلك عليه يدور، والملاحظ أنّ هذا الوصف الحضاري جاء في سياق المدح فلربّما كان بداعي التكسب.

وهذا الشاعر ابن حمديس الصقلي قد أعجب ببركة صناعية شقها نهر، فقال:

وَزَرْقَـاءُ فِي لَـوْنِ السَّـمَاءِ تَنَبَّهَتْ لَتَحْبِيكِهَا رِيـــحٌ تَـهُـبُّ مَعَ الفَـجْـرِ

يَشُـقُّ حَشَـاهَا جَدْوَلٌ مُتَكَـفِّلٌ بِسَقْيِ رِيَاضٍ أُلْبِسَتْ حُـلَلَ الزَّهْـرِ

كَمَا طَعَنَ المِقْدَامُ فِي الحَرْبِ دِرْعًا بِعَضْبٍ فَشَقَّ الخَصْرَ مِنْهُ إِلَى الخَصْرِ[2]

يُرِيكَ رُؤُوسًا مِنْهُ فِي جِسْمِ حَيَّةٍ سَعَتْ فِي جِنَانٍ مِنْ حَدَائِقِهِ الخُـضْرِ

فَلاَ رَوْضَـةٍ إِلاَّ اسْتَعَارَتْ لِشُكْرِهِ لِسَـانَ صَـباً تَسْـرِي مُطَـيَّبَةَ النَّشْـرِ[3]

فالبركة في نظر الشاعر قد اتخذت لون السّماء لصفاء مائها ونقائه، وأجمل ما تكون عليه هذه البركة في ساعات الصباح المبكرة حيث تنتشر عليها تباشير الصباح مع هبوب رياح فجرية، وما زاد من جمالها هو تدافع وفود الماء إليها عبر جدول يشقها في أبهى منظر قاصدا سقي الرياض التي ما لبثت تستعير عبارات الشكر له وللبركة الجميلة، ومن هذه المقطوعة نستجلي أيضا ألفاظا ذات دلالة حضارية لهذه الحقبة كقوله:(حلل، الحرب، درعا، حدائق)، ومن النصوص الشعرية التي سجلت هذا المظهر الحضاري في القرن السادس

2- نفح الطيب، ج1، ص:529.

1- عضب فلانا بالرمح: طعنه وعضب السيف صار قاطعا، المعجم الوسيط، مادة (عَضَبَ).

2- ديوان ابن حمديس، ص:187.

الهجري ما وجدناه عند الشاعر أمية ابن أبي الصلت في وصفه لبركة صادفها بإحدى أيّامه بمصر:

لِلّـهِ يَـوْمِي بِـبِرْكَـةِ الحَبَشِ ... وَالأُفْقُ بَيْنَ الضِّـيَاءِ وَالغَبَـشِ[1]

وَالنِّيلُ تَحْتَ الرِّيَاحِ مُضْطَرِبٌ ... كَـصَارِمٍ فِي يَمِـينِ مُـرْتَعِشِ

وَنَحْـــنُ فِي رَوْضَـــةٍ مُفَـوَّفَةٍ ... دُبِّجَ بِالنُّورِ عِـطْفُهَا وَوُشِي[2]

قَـــدْ نَسَجَتْهَا يَـدُ الرَّبِـيعِ لَنَا ... فَنَحْنُ مِنْ نَسْجِهَا عَلَى فُرُشِ

فَعَاطِـنِ الـرَّاحَ إِنَّ تَـارِكَـهَا ... مِنْ سَوْرَةِ الهَـمِّ غَيْرَ مُنْتَعِشِ[3]

نَلْحظ في هذه المقطوعة تداخلا لمظاهر الحضارة، فوصف البركة كان نتيجة نزهة في يوم من أيّام الربيع الجميلة، فالجو كان غائما والهواء منعشا والضباب يلوح في الأفق، والنّيل مضطرب تحت الرياح كاهتزاز السيف في يد مرتعش، والشاعر وصحبه في روضة أنيقة وُشِيَتْ جوانبها وزيّنت بالنّور، ومدّ الربيع من تحتهم بساطا سندسيا، وفي ظلّ هذا الموكب الرائع الذي يزرع في النّفس البهجة والسرور يُعرّج الشاعر على جانب حضاري آخر ممثلا في احتساء الخمر زاعما أنّها تطوي الهموم النفسية.

ولم تكن الصهاريج أقلّ شأنا من غيرها من وسائط المياه، فقد نالت حظها من أوصاف الشعراء كونها مظهرا حضاريا عرفته بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة، وكثيرا ما وجدت هذه الصهاريج في الحدائق والبساتين، فكونها مصدر سقي الرياض جعل الصنّاع يتفننون في بنائها في صور وأشكال فنية متنوعة، وممّا جاء في وصفها ما أورده المقّري من

3- الغبش: غَبِشَ الليلُ غَبِشَ غَبَشًا، وغُبْشَةً : خالط بقيةَ ظلمته بياضُ الفجر/ المعجم الوسيط، مادة (غَبِش).

4- مفوقة: ملمعة من النّور والزهر.

5- ديوان الحكم بن أبي الصلت، ص:55.

نصوص لثلاثة شعراء، وهم "أبو جعفر بن سعيد وابن نزار والكتندي* اجتمعوا في جنة بزاوية غرناطة، وفيها صهريج ماء قد أحدق به شجر نارنج وليمون وغير ذلك من الأشجار، وعليه أنبوب ماء تتحرك به صورة جارية راقصة بسيوف وطيفور رخام يصنع في أنبوبة الماء صورة خباء، فاتفقوا على أن يقتسموا تلك الأوصاف الثلاثة، فقال أبو جعفر بن سعيد يصف صورة الراقصة التي تحرك أنبوبة الماء"[1]:

وَرَاقِصَةٍ لَيْسَتْ تَحَرَّكُ دُونَ أَنْ   يُحَرِّكَهَا سَيْفٌ مِنَ المَاءِ مُصْلَتُ[2]

يَدُورُ بِهَا كَرْهًا فَتُنْضِي صَوَارِمًـا   عَلَيْهِ فَلاَ تَعْيَـــا وَلاَ هُوَ يَبْهَتُ[3]

إِذَا هِيَ دَارَتْ سُرْعَةً خِلْتَ أَنَّهَا   إِلَى كُلِّ وَجْهٍ فِي الرِّيَاضِ تَلَفَّتُ

في هذه الأبيات وصفٌ لنحت جارية على صهريج، تبدو راقصة يحركها سيف حاد، بمشقة فتدور مسرعة لكلّ جانب وناحية من نواحي الرياض ومن هذه النتفة تبرز ألفاظ حضارية في قوله: (راقصة، سيف، صوارما، الرياض)، وقال ابن نزار في خباء الماء:

رَأَيْتَ خِبَاءَ المَـاءِ تُرْسِلُ مَاءَهَا   فَنَـازَعَـهَا هَبُّ الـرِّيَاحِ رِدَاءَهَـا

تُطَـاوِعُـهُ طَـوْرًا وَتَـعْـصِـهِ تَـارَةً   كَـرَاقِصَةٍ حَلَّتْ وَضَمَّتْ قِبَاءَهَـا[4]

وَقَدْ قَابَلَتْ خَيْرَ الأَنَامِ فَلَمْ تَزَلْ   لَدَيْهِ مِنَ العَلْيَاءِ تُبْدِي حَيَاءَهَـا

إِذَا أَرْسَـلَتْ جُـودًا أَمَامَ يَمِينِهِ   أَبَى الـعَـدْلُ إِلاَّ أَنْ يَرُدَّ إِبَاءَهَـا

---

*أبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن عبدالعزيز، الأزدي الغرناطي، وعرف بالكتندي لأنّ أهله منها، وكان كاتبا شاعرا من أهل العلم باللغة العربية، كان من طبقة الرصافي البلنسي ومن أصحاب ابن خفاجة، توفي سنة ثلاث أو أربع وثمانين وخمسمئة/ رايات المبرزين، ص:157، المغرب، ج2، ص:264.

1- نفح الطيب، ج2، ص:497.

2- مصلت: سيف صلت ومنصلت واصليت: منجرد ماض في الضريبة، وسيف إصليت أي صقيل.

3- تنضى: نضى الشيء من الشيء أخرجه منه/ يبهت بهت اللون: تغير وضعف.

1- القباء: ثوبٌ يُلبَس فوق الثياب أو القميص، المعجم الوسيط، مادة (القَبَاءُ).

هذه المقطوعة حافلة بصور التشبيه إذ جعل الشاعر من الخباء راقصة تحركها الرّياح، على أنّ الشاعر قد جمع بين وصفها ومدح الأمير أبي عبد الله بن مردنيش[1] ملك شرق الأندلس وتجلّى ذلك في قوله:(قابلت خير الأنام، أبى العدل إلّا أن يرد إباءها) وكلّها ألفاظ وعبارات تدلّ على كرم الممدوح.

وأمّا الكتندي الشاعر فقال في الصّهريج:

وَصِهْرِيجٍ تَخَالُ بِهِ لُجَيْنًا يُذَابُ وَقَدْ يُذْهِبُهُ الأَصِيلُ[2]

كَأَنَّ الرَّوْضَ يَعْشَقُهُ فَمِنْهُ عَلَى أَرْجَائِهِ ظِلٌّ ظَلِيلُ

وَتَمْنَحُهُ أَكُفُّ الشَّمْسِ عِشْقًا دَنَانِيرًا فَمِنْهُ لَهَا قَبُولُ

إِذَا رَفَعَ النَّسِيمُ القُضْبَ عَنْهَا فَحِينَئِذٍ يَكُونُ لَهَا سَبِيلُ[3]

يبدو الشاعر معجبا بهذا الصّهريج، فقد شبّه ماءه بالفضة الذائبة ثمّ سرعان ما يتغير لونه مع غروب الشمس، فهو مصدر سعادة الروض إذ تظلله أشجار الرياض وتحميه،

2- أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي بالولاء ملك شرقي الأندلس من أسرة إسبانية مولدية اعتنقت الإسلام، عرف بشجاعته منذ صغره، تملك بعيد الأربعين وخمسمئة، ظهر عليه أمر الموحدين فتوفي أثناء حصارهم له بمدينة مرسية في عام 567ه وله ثمانية وأربعون عاما/ ينظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، تحقيق، مجموعة محققين بإشراف: الشيخ شعيب الأرنؤوط، 1422ه-2002م، ج20، ص:240/ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، من سنة 562ه لغاية سنة 628 للهجرة، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1424ه-2003م، م10، ص37/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972م، م4، ص:351.

1- اللّجين: الفضة/ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دط، 1399ه-1979م، ج5، كتاب اللام، باب اللام والجيم وما يثلثهما، مادة (لجن)/ الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها، والجمع أصل وأصلان وآصال وأصائل، المعجم الوسيط، لجنة التأليف: د ناصر سيد أحمد، د مصطفى محمد، محمد درويش، أيمن عبدالله، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1429ه-2008م، مادة أصل، باب الهمزة، ص:19.

2- نفح الطيب، ج3، ص:497-498.

ويزداد جماله حين ترسل الشمس أشعتها الذهبية عليه بعد أن يسمح النسيم بمرورها حين يرفع أغصان الشجر عليه، ثم يسترسل الشاعر في ذكر ما يحيط بهذا الصهريج، فيقول:

وَلِلنَّارِنْجِ تَحْتَ المَاءِ لَمَّا ... تَبَدَّى عَكْسَهَا جَمْرٌ بَلِيلُ

وَلِلَّيْمُونِ فِيهِ دُونَ سَبْكٍ ... جَلاَجِلُ زُخْرُفٍ بِصَباً تَجُولُ

يَا رَوْضاً بِهِ صُقِلَتْ جُفُونِي ... وَأَرْهَفَ مَتْنَهُ الزَّهْرَ الكَلِيلُ

تَنَاثَرَ فِيكَ أَسْلاَكُ الغَوَادِي ... وَقَبلَ صَفْح جَدْوَلِكَ القَبُولُ

وَلاَ بَرِحْتَ تَجْمَعُ فِيكَ شَمْلاً ... مِنَ الأَكْيَاسِ وَالكَاسِ الشَّمُولُ

بُدُورٌ تَسْتَدِيرُ بِهَا نُجُومٌ ... مَعَ الإِصْبَاحِ لَيْسَ لَهَا أُفُولُ

يَهِيمُ بِهِمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ إِلْفًا ... فَمِنْ وَجْدٍ لَهُ جِسْمٌ عَلِيلُ(1)

إنّ ممّا زاد من روعة وجمال هذا المظهر الحضاري وجوده وسط روض فيه من أنواع الشجر ودواعي الأنس والسّمر ما يبهج النفس ويستلذ النظر، وفيه يُجمع شمل الأحباب فتبدو بدورا عليها نجوم تحوم، ممّا يزيد بهجة الروض فيهيم النسيم بهذا الجمع حبّا ممّا يجعل جسمه عليلا، ولاشك أنّ الخيال والتشخيص قد أخذا مأخذا في فكر الشاعر فجعل النّارنج وكأنّه جمر والليمون جلاجل زخرف والنسيم يحب ويمرض.

ومن ثمّ، فمن هذه النماذج اليسيرة ندرك أنّ البرك الصناعية وما يصحبها من الصهاريج التي تنافس الوجهاء والسادة المبرزين في إنشائها بِدُورِهم وحدائقهم قد نالت هي الأخرى اهتماما ملحوظا من قبل شعراء القرن السادس الهجري بوصفها مظهرا حضاريا في بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة المقصودة بالدراسة.

3- المصدرنفسه، ج3، ص:498.

خامسا: مجالس الأنس والتسلية

شهدت مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري كثيرا من المجالس المتنوعة والمتعددة التي عكست الجانب الحضاري في شقه الاجتماعي لهذه البلاد، ومن هذه المجالس: مجالس العلماء والأدباء ومجالس الوعظ التي انتشرت في الأماكن العامة[1]، إضافة إلى مجالس الأنس والتسلية، ونحن في هذا المبحث حاولنا طرق هذا العنصر الأخير -مجالس الأنس والتسلية- باعتباره السّمة الغالبة عند شعراء القرن السادس الهجري، فالحضارة الراقية التي شهدتها هذه الحقبة أثّرت على الحياة الإنسانية في شتى المجالات فظهرت الصنائع والحرف العديدة ونافس الإنسان الطبيعة المخلوقة فشيّد الدور والبرك والنوافير والصهاريج مدفوعا بحبه للاستجمام والرفاهية وأضحى مغرما بوسائل الترويح واللهو، فاتجه نحو مجالس الأنس والسمر، هذه الأخيرة التي تفنن شعراء بلاد المغرب الإسلامي القول فيها وأبدعوا في هذا الأمر، فوصفوا هذه المجالس باعتبارها مظهرا حضاريا وسجلوا ما يدور فيها من فرح وسرور، فذكروا السقاة والندماء وأماكن انعقاد هذه المجالس في الحانات والرياض[2]، كما تفنّنوا في وصف الخمر وآنيتها وكؤوسها باعتبارها جزءا من حياتهم المتحضرة يألفونها ويلذنوها[3].

أ- عشايا الأنس وجلسات اللهو والشراب.

كان لأهل بلاد المغرب الإسلامي ولع شديد بعشايا الأنس ومجالس اللهو والشراب التي انتشرت بين الخاصة والعامة، فبالرغم من الجهود التي بذلها مسؤولو هذه الحقبة في منعها من خلال متابعة المحلات التي تبيع الخمر أو من يشتريها ومعاقبة شاربيها، وبالرغم من

1- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس-عصر المرابطين والموحدين-، حسن علي حسن، ص:414.

1- ينظر الشعر الاجتماعي في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، نضال سالم النوافعة، جامعة مؤتة، عمادة الدراسات العليا، رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير، 2004م، ص:09.

2- ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص:146.

الإجراءات التي اتخذت بشأن ذلك إلاّ أنّ جهودهم كانت تذهب سدى نظرا لتوافر أسبابها من اختلاط المسلمين بالمستعربين وزواج المسلمين بالنصرانيات في الأندلس بخاصة وشيوع الترف والبذخ[1]، ولم يكن شعراء القرن السادس الهجري بمعزل عن هذه الحياة الاجتماعية بدليل وجود نصوص كثيرة سجلت هذه المشاهد الحضارية، فمن هذه النصوص ما وجدناه عند ابن خفاجة في وصفه لعشية أنس[2]:

وَعَشِيٍّ أُنْسٍ أَضْجَعَتْنِي نَشْوَةٌ ... فِيهِ، تُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَتَدْمِثُ[3]

خَلَعَتْ عَلَيَّ بِهِ الأَرَاكَةُ ظِلَّهَا ... وَالغُصْنُ يُصْغِي وَالحَمَامُ يُحَدِّثُ[4]

وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلغُرُوبِ مَرِيضَةً ... وَالرَّعْدُ يَرْقَى، وَالغَمَامَةُ تَنْفُثُ

يبدو الشاعر منتشيا بعشية أنس جميلة قضاها مستظلا بأراكة في مقعد ممهد لطيف، والحمام يُحدّث والغصن يصغي إليه، والشمس تجنح للوداع وقد اصفر وجهها وشحب لفراق هذه العشية وشعل البرق كأنّها رقي تريد أن ترقيها والغمامة تنفث كما ينفث الراقي في العقد. وقد سجّل الشعراء ما يدور في هذه المجالس مازجين ذلك بوصف الطبيعة التي تقام فيها هذه العشايا ، فمن ذلك قول أبي إسحاق بن إبراهيم[5]:

وَأَرَاكَةٍ ضَرَبَتْ سَمَاءَ فَوْقِنَا ... تَنْدَى وَأَفْلاَكُ الكُؤُوسِ تُدَارُ

حَفَّتْ بِدَوْحَتِهَا مَجَرَّةُ جَدْوَلٍ ... نَثَرَتْ عَلَيْهِ نُجُومَهَا الأَزْهَارُ

وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَــــدْوَلَ مَائِهَا ... حَسْنَاءُ شُدَّ بِخَصْرِهَا زُنَّارُ

3- ينظر الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين-عصر الطوائف الثاني- 510ھ-546ھ/ 1116م-1151م، عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408ھ-1988م، ص:333.

4- ديوان ابن خفاجة، ص: 59.

5- تدمث: دمث المكان سهل ولان. المعجم الوسيط،(دَمِثَ).

6- الأراكة: جمع الأراك شجر يُستاك به.

1- ديوان ابن خفاجة، ص:115.

زَفَّ الزُّجَاجُ بِهَا عَرُوسَ مُدَامَةٍ   تُجْلَى وَنُوَارُ الغُصُونِ نِثَارُ

قَامَ الغِنَاءُ بِهَا وَقَدْ نَضَحَ النَّدَى   وَجْهَ الثَّرَى وَاسْتَيْقَظَ النُّوَارُ

إنّ الشاعر قد أقام هذه الجلسة مع ندمائه تحت شجرة الأراك، فنقل إلينا ما يحدث فيها، فالكؤوس تدار وكأنّها النّجوم تدار في الأفلاك والجدول وما حوله من الأزهار وكأنّه المجرة بما حولها من النّجوم، وقد صوّر الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شُدّت حزاما إلى خصرها وهذا زجاج الكؤوس يزف المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم. وأمّا النّوار والأزهار،فجعلها نثار الدراهم والدنانير يلقى به المجبون في هذا العرس الكبير، ففي هذه المقطوعة ما يعكس الجانب الحضاري لهذا المجتمع بدءا بجلسة الأنس التي أقيمت في منتزه، وما دار فيها من مظاهر اللهو والشراب، إضافة إلى توظيف الشاعر لكلمات ذات دلالة حضارية كما في قوله (أفلاك، مجرة، زجاج، غناء)، ولم يكتف الشعراء بوصف هذه المجالس بل توغلوا إلى المكان الذي تقام فيه، فصوّروه أحسن تصوير ناقلين بذلك صورة حضارية عن بيئتهم، وفي ذلك يقول ابن حمديس[1]:

وَسَاقِيَةٍ تَسْقِي النَّدَامَى بِمَدِّهَا   كُؤُوسًا مِنَ الصَّهْبَاءِ طَاغِيَةَ السُّكْرِ[2]

يَعُومُ فِيهَا كُلُّ جَامٍ كَأَنَّمَا   تَضَمَّنَ رُوحَ الشَّمْسِ فِي جَسَدِ البَدْرِ[3]

إِذَا قَصَدَتْ مِنَّا نَدِيمًا زُجَاجَةٌ   تَنَاوَلَهَا رِفْقًا بِأَنْمُلِهِ العَشْرِ

فَيَشْرَبُ مِنْهَا سَكْرَةً عِنَبِيَّةً   تُنَوِّمُ عَيْنَ الصَّحْوِ مِنْهُ وَمَا يَدْرِي

وَيُرْسِلُهَا فِي مَائِهَا فَيُعِيدُهَا   إِلَى رَاحَتِي سَاقٍ عَلَى حُكْمِهِ تَجْرِي

1- ديوان ابن حمديس، ص: 193.

2- الصّهباء: الخمر المعصورة من عنب أبيض/ القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1426هـ-2005م، ج1، فصل الصاد والضاد، باب الباء، ص:94.

3- جام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها وهي مؤنثة.

جَعَلْنَا عَلَى شُرْبِ العَقَارِ سَمَاعَنَا   لُحُـونًا تُغَنِّيهَا الطُّيُورُ بِلاَ شَعْـرِ

سَقَانَا مَسَـرَّاتٍ فَكَانَ جَـزَاؤُهُ   عَلَيْهَا لَدَيْـنَا أَنْ سَقَيْنَاهُ لِلبَحْـرِ

لقد صوّر الشاعر في هذه الأبيات مجلسا حضاريا من مجالس اللهو والشراب، ناقلا إلينا صورة المياه الجارية في سواقي البساتين المستديرة، والندامى على جوانبها متقابلون، حيث يضع الساقي كأس الخمر في الساقية ويقول:"كاسك يا أبا فلان، فيجري بها الماء إلى يده فيتناولها ويشرب ما فيها ويرسلها في الماء إلى ذلك، فتعود إلى يد الساقي من ناحية أخرى"[1]، فتصل إليه دون عناء، وربما زاد بهجة مجلسهم في نظره، ألحان وتغريدات الطيور من حولهم، فالمكان يورث الزهو والنشوة والراحة الفكرية، إذن هي صورة شعرية بديعة شارك فيها تراسل الحواس البصرية والحسية التي يشعر بها المتلقي، فالملاحظ أنّ هذه المقطوعة مرآة عاكسة للحياة الحضارية الاجتماعية التي كانوا يعيشون فيها.

1- وصف أواني الخمر:

لم يكتف الشعراء بتصوير مجالس الشراب، بل وصفوا آنيتها، كونها أدوات حضارية لا يُستغني عنها، فذكروا أنواعها وأشكالها وألوانها، ومن هذه الأدوات التي ذكرت، الكأس والإبريق، ففي الكأس يقول ابن سهل الأندلسي[2]:

سَلِ الكَأْسَ تَزْهُو بَيْنَ صِبْغٍ وَإِشْرَاقِ   أَذُوِّبَ فِيهَا الوَرْدُ أَمْ وَجْنَةُ السَّاقِي[3]

كُـؤُوسٌ تُحَيِّيهَا النُّفُوسُ كَأَنَّهَا   حَدِيثُ تَلاَقٍ فِي مَسَامِعِ العُشَّاقِ

إِذَا قَتَلُوهَا بِالمِـزَاجِ لِيَشْرَبُوا   أَعَاشُوا مُنَاهُمْ بَيْنَ مَوْتٍ وَإِخْلاَقِ

4- ديوان ابن حمديس، ص: 193.

1- ديوان ابن سهل الأندلسي، دراسة وتحقيق: يسري عبدالغني عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ-2003م، ص:62.

2- صبغ: ما يصبغ به، مادة تستعمل للتلوين صبغة حمراء.

طرق الشاعر في هذه الأبيات لون الكأس، جاعلا من لون الورد ووجنة الساقي شبيها لها، ذاكرا مكانتها في نفوس عشاقها، وقد حظيت هذه الكأس بنصيب وافر من التشبيه فهي بجمالها ولمعانها كالكوكب في الليل:

وَقَالَ أَلاَ تَدْرُونَ مَا فِي كُؤُوسِكُمْ فَلاَ كَأْسَ إلاَّ وَهُوَ فِي اللَّيْلِ كَوْكَبُ[1]

وقد نال الإبريق هو الآخر حظّه من أوصاف الشعراء، كونه أداة حضارية تستعمل في هذه المجالس، يقول الشاعر أبو الربيع بن سالم*:

كَأَنَّمَا إبْرِيقُنَا عَاشِقٌ كَلَّ عَنِ الخَطْوِ فَلاَ أَعْمَلَهْ

غَازَلَ مِنْ كَأْسِي حَبِيبًا لَهُ فَكُلَّمَا قَبَّلَهُ أَخْجَلَهْ[2]

فالبيتان صورة جميلة جعل فيها الشاعر الإبريق عاشقا والكأس حبيبا له يغازله ويقبّله، ولعلّ هذه المعاني مستمدة مما كان يدور في هذه المجالس من مظاهر اللهو، فوصف الشعراء لآنية الشراب إنْ دلّ على شيء إنمّا يدل على ما وصل إليه مجتمع هذه الحقبة من تقدم حضاري في صناعة أنواع وأشكال عديدة من الأواني ببراعة وجودة فائقتين ممّا جعلها تنال اهتمام الشعراء.

2- وصف السّقاة:

على نحو وصف الشعراء لأدوات الخمر، وصفوا سقاتها، فقد ظهرت مهنة ارتبطت ارتباطا وثيقا بمجالس اللهو والشراب وعُدّت شرطا أساسا من شروط انعقادها وركنا من أركانه الأساسية، ألا وهي مهنة تقديم الخمر، ويبدو أنّ مهنة السقاية- آنذاك- كانت تتطلب

3- نفح الطيب، ج2، ص:282.

*أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي البلنسي، أديب بليغ ومن كبار أئمة الحديث ولد سنة 565هـ/ سير أعلام النبلاء، ج23، ص:134.

4- نفح الطيب، ج4، ص:111.

شروطا يجب أنّ تتوفر في الساقي، مثل الخفة والوسامة، والسرعة في تلبية حاجات الحاضرين ورغباتهم[1]، فمن نماذج وصف السقاة، قول الشاعر ابن السّيد البطليوسي**:

بِيَدَيْ سَاقٍ تَرَى فِي طَوْقِهِ بَدْرُ تَمٍّ قَدْ تَجَلَّى فِي غَسَقِ

خِلْتَهَا إِذَا غَرَبَتْ فِي ثَغْرِهِ شَمْسَهَا أَبْقَتْ بِخَدَيْهِ شَفَقٍ[2]

فالشاعر عَرَّض بوسامة الساقي، مشبها إيّاه بالبدر ولون خديه بلون الشفق، وهذا ابن خفاجة يصف أحد السقاة، فيقول[3]:

وَأَهْيَفُ قَامَ يَسْقِي وَالسُّكْرُ بِعَطْفِ قَدَّهْ

وَقَدْ تَرْفَعُ غُصْنًا وَاحْمَرَّتِ الكَأْسُ وَرْدَه

وَأَلْهَبَ السُّكْرُ خَدًّا أَوْرَى بِهِ الوَجْدُ زِنْدَه

فَكَادَ يَشْرَبُ نَفْسِي وَكِدْتُ أَشْرَبُ خَدَّه

يصف الشاعر هذا الساقي بأنّه مثل الغصن المتمايل من شدة السكر، وقد احمرّت الكأس في يده حتى صارت مثل الوردة الحمراء، كما وصف خدّه بالحمرة من شدة السكر ممّا جعل الشاعر يكاد يشرب خدّه ظاناً أنها خمر، وأمّا الشاعر ابن الزقاق فقد جمع في وصفه بين الساقي وآنية الخمر، فقال:

وَقَامَ بِالقَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ ذُو هِيَفٍ يَكَادُ مِعْطَفُهُ يَنْقَدُّ بِالنَّظَرِ

يَطْغُو عَلَيْهَا إِذَا مَا شَجَّهَا دَوْرٌ تَخَالُهَا اخْتَلَسَ مِنْ ثَغْرِهِ الخَمْرِ

1- ينظر الشعر الاجتماعي في عهد المرابطين والموحدين، نضال سالم النوافعة، ص:15.

**أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي، ولد سنة 444هـ، بمدين بطليوس، كان عالما بالآداب واللغات متبحرا فيهما سكن بلنسية وتوفي بها سنة 521هـ/ ينظر: الصلة ابن بشكوال، 443/2، بغية الملتمس، الضبي، ص:292، وفيات الأعيان، 96/3.

2- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري، ج3، ص115-116.

3- ديوان ابن خفاجة، ص: 83.

فَالكَأسُ فِي كَفِّهِ بِالرَّاحِ مُتْـرَعَـةٍ كَـهَـالَةٍ أَحْدَقَتْ بِالأُفُقِ بالقَـمَـرِ[1]

تتضمّن الأبيات رشاقة الساقي، ممّا يدلّ على خفّته وسرعته وحسن قدّه، كما تضمّنت وصفا للكأس في كفّه على أنّها هالة في الأفق، فتسجيل الشعراء لأوصاف السقاة في القرن السادس الهجري تضمّن دلالة حضارية تتلخص في أنّ مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي قد عرفت هذه المهنة كونها تشكل مظهرا حضاريا آنذاك.

ب- مجالس الغناء والموسيقى:

تُعدّ مجالس الغناء والطرب مظهرا حضاريا اجتماعيا عرفته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، وبخاصة الأندلس، فبالرّغم من محاربة حكّام هذه الفترة للغناء والموسيقى كما هو الشأن بالنسبة للدولة الموحدية كونها قائمة على سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، إلاّ أنّ للسّعة ورفه العيش الذي أحاط بمجتمعات هذه الفترة وشمل خاصتهم وعامتهم، أكبر الأثر في جنوحهم إلى اللهو والطرب، وعكوفهم على اللذات ومتع النفس وإقبالهم على الغناء وميلهم إلى الموسيقى وعقدهم لمجالسها[3] في كثير من الأحيان، والشعراء جزء من هذه المجتمعات فقد صوّروا هذه المجالس على اختلاف أنواعها وألوانها، وما يتعلق بها من مغنين وآلات موسيقية وما يحدث فيها من رقص ولعب باعتبار هذه المظاهر تعكس جانبا من حياتهم المتحضرة وقتذاك، فمن مجالس الغناء في هذه الفترة مجلس أشاد فيه الشاعر محمد بن مالك بالأنس والطرب، إذ يقول:

لاَ تَلُمْنِي بِأَنْ طَـرِبْـتُ بِـشَـجْـوٍ يَبْعَثُ الأُنْسَ فَالكَرِيمُ طَرُوبُ

1- ديوان ابن الزقاق البلنسي، تح: محمد ديراني، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ص: 174.
2- ينظر المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية، ليلى أحمد نجار، ج2، ص: 422.
1- ينظر الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز محمد عيسى، ص:206.

لَيْسَ شَقُّ الجُيُوبِ حَقًّا عَلَيْنَا   إِنَّمَا الحَـقُّ أَنْ تُشَقَّ القُلُوبُ[1]

يلتمس الشاعر العذر ويطلب عدم عذله على طربه، فهذا الأخير عنده من شيم الكريم، كما أشار إلى عادة شق الجيوب وأنّها ليست حقا عليهم، وإنما الحق أن تشق القلوب من شدة الطرب ومن نماذج اهتمامهم بجلسات الغناء أيضا ما كتبه أبو عامر بن ينق*إلى هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي، يدعوها إلى جلسة غناء لتُشنّف سمعهم بعودها وصوتها، وكانت أديبة شاعرة لها صوت حسن وعلم بالموسيقى، فقال:

يَا هِـنْدُ هَلْ لَكِ فِي زِيَـارَةِ فِتْيَـةٍ   نَبَذُوا الـمَحَـارِمَ غَيْرَ شُرْبِ السَّلْسَلِ

سَـمِعُوا البَلاَبِلَ قَدْ شَدَوْا فَتَذَكَّـرُوا   نَغَمَـاتِ عُـودِكِ فِي الثَـقِيـلِ الأَوَّلِ

وما كان أظرفها وأرقّ أدبها إذ أجابته في ظهر رقعته بهذين البيتين:

يَا سَيِّدًا حَـازَ العُلاَ عَنْ سَـادَةٍ   شُـمِّ الأُنُــوفِ مِنَ الطِّـرَازِ الأَوَّلِ

حَسْبِي مِنَ الإِسْرَاعِ نَـحْوَكِ أَنَّنِي   كُنْتُ الجَوَابَ مَعَ الرَّسُولِ الـمُقْبِلِ[2]

إنّ معاني الأبيات تكشف عن جانب من نفسية الشاعر في اهتمامه بهذا النوع من الجواري، كما تعكس جانبا حضاريا عاشته مجتمعات هذه الحقبة، ممثلا في عقد جلسات الغناء ودعوة المغنين إليها.

1- وصف المغنّين وآلات الطرب:

2- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح محمد بن عبدالله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان ت529هـ، حققه وعلق عليه: حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ط1، 1409هـ-1989م، ج3، ص:51.

*أبو عامر محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة الشاطبي المعروف بابن ينق، كان أديبا ثائرا وشاعرا بارعا في عدد من العلوم، من مؤلفاته كتاب الحماسة، توفي سنة 547هـ/ المغرب، ج2، ص:388/ الوافي بالوفيات، ج5، ص:196.

1- نفح الطيب، ج4، ص:293، 294.

إنّ شيوع مجالس الغناء في هذه الحقبة قد رفع من شأن مهنة الغناء لدى العامة والخاصة، ممّا دفع بالشعراء إلى وصف المغنين والمغنيات الذين يبعثون الفرح والسرور في هذه المجالس، فهذا ابن خفاجة يصف أحد المغنين، فيقول:

وَمُغَرّدٍ هَزِجِ الغِنَاءِ مُطْرِبٍ　　تَلْقَى بِهِ لَيْلَ التَّمَامِ فَيَعْصِرُ

سَفِرَ الشَّبَابُ بِهِ لَنَا عَنْ غُرَّةٍ　　تَرْمِي بِهَا لَيْلَ السَّرَادِ فَيُعْمَرُ

وَكَأَنَّهُ وَالسُّكْرُ يَلْوِي عِطْفَهُ　　غُصْنٌ تُعَانِقُهُ الرِّيَاحِ مُنَوَّرُ

مَلَأَ المَسَامِعَ وَالعُيَونَ مَحَاسِنًا　　فَلَمْ أَدْرِ هَلْ أصْغى إِلَيْهِ أَمْ أَنْظُرُ(1)

يصف الشاعر في هذه الأبيات جمال صوت المغني وبراعته، فهو حسن الصوت قد تملكه السُّكر، فأخذ يلوي عطفه كأنّه غصن تعانقه الرياح، فحسن منظره وجمال صوته، جعل الشاعر مترددا هل يستمع إلى صوته أم يتمتع بالنظر إليه، وقد كان للجواري المغنيات دور بالغ الأهمية في مجالس الغناء، فقد أتى الشعراء على ذكرهن وأنشدوا الأشعار في جمالهن ومحاسنهن، ورقة أصواتهن، يقول ابن خفاجة:

وَفَتَاةُ حُسْنٍ كُلُّهَا أَعْجَازُ　　غَنَّتْ غِنَاءً كُلُّهُ إِعْجَازُ

لَذَّتْ أَغَانِيهَا وَخَفَّتْ مَوْقِعًا　　فَكَأَنَّمَا تَطْوِيلُهَا إِيجَازُ(2)

إنّ المغنّية الحسنة القدّ، البارعة في فنون الغناء، تُعدّ زينة المجالس ومتعة الأسماع.

لقد أدى ازدهار فنّ الموسيقى والغناء في هذه الحقبة إلى تعدد الآلات الموسيقية التي تستخدم في العزف، فقد ذكر الشقندي في رسالته ما نصّه "وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف وأدوات الطرب كالخيال والكريج، والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس

2- ديوان ابن خفاجة، ص:221.

1- المصدرالسابق، ديوان ابن خفاجة، ص:325.

والزلامي، والشقرة والنورة، وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والبوق"[1]، إنّ هذه الأدوات الموسيقية كونها تمثل مظهرا حضاريا فقد نالت إعجاب الشعراء ووجدت طريقا لأشعارهم، فهذا ابن حمديس يصف مغنّ وفي حضنه آلة طرب، فيقول:

وَذِي دَلَالٍ كَــــأَنَّ وَجْـنَـتَهُ مِنْ خَجَلٍ بِالشَّقِيقِ مُنْتَقِبَهْ

فِي حُجْـرِهِ أَجْوَفَ لَـهُ عُـنُقٌ نِـيطَتْ بِظَهْرٍ تَـخَـالُهُ حَـدَبَهْ

يَمُـدُّكَـفًّا إِلَـيْـهِ ضَـــــارِبَةً أَعْـنَـاقَ أَحْــزَانِنَـا إِذَا ضَـرَبَهْ

تَـحْسِبُ لَفْـظًا بِأُخْـتِـهَا نَغَـمًا وَيُودِعِ الْـمُسْمِعِينَ مَا حَـسَـبَهْ

قُلْتُ أَلَا فَانْظُرُوا إِلَى عَجَـبٍ جَاءَ بِسِـحْـرٍ فَأَنْطَقَ الْـخَشَـبَهْ[2]

يصف الشاعر في هذه المحطة الحضارية العود وكأنّنا نراه، فله عنق طويل فارغ في بطنه مجوف، وله حدبة، فإذا مرَّ عليه المغني بأصابعه النّاعمة ارتفعت النغمات فأثارت السامعين، ويتساءل الشاعر متعجبا عن سحر هذا الغناء من آلة خشبية صماء لا حياة فيها ولا حراك.

2- فنّ الرّقص:

لقد ارتبط فنّ الرقص على أنغام الموسيقى بمجالس الغناء والطرب، فهو ينطلق بالمشاعر في آفاق رحبة، تُعبّر عن رغبة النّفس البشرية، ويُعدّ هو الآخر مظهرا حضاريا عرفته مجتمعات هذه الحقبة، ممّا أدى بشعرائها إلى رصد أنواعه، ووصف أهله، فهذا الشاعر أبو يحي بن ينّق يصف نوعا من الرقص قام به أحد الغلمان، فيقول:

نَادَمْتُهُ سَحَرًا فَأَسْمَعَ مَسْمَعِي بِتَرَنُّمٍ كَتَرَنُّمِ الوَرْقَـــــاءِ

2- الشعر الاجتماعي في عهد الموحدين، نضال السالم، عن رسالة إسماعيل بن محمد الشقندي، نشرها: صلاح الدين المنجد، في كتاب فضائل الأندلس، بيروت، 1968م.

3- ديوان ابن حمديس، ص:47-48.

وَكَأَنَّمَا أَكْمَامُهُ فِي رَقْصِهِ تَتَعَلَّمُ الخَفَقَانَ مِنْ أَحْشَائِي

وَيَمُرُّ يَلْتَقِطُ الزُّجَاجَ بِذَيْلِهِ مَرَّ النَّسِيمِ عَلَى حَبَابِ المَاءِ[1]

دلّنا الشاعر في هذه الأبيات على براعة متناهية وأداء جميل يقوم فيه راقص بارع، يؤدي رقصته بتحريك أكمامه في اهتزازات متتابعة لطيفة، ثمّ يلتقط الزجاج بذيل ملابسه خلال انسيابه في رقّة وهذه الحركات تبعث الدهشة في الحضور، وهذا الشاعر أبو علي حسن بن الأنصاري يصف لنا راقصة ماهرة تسمى "نزهة" وتعرف بـ" تخطّ الشوق" مبديا إعجابه ببراعتها ورشاقتها في الرقص ومشبها إيّاها بالألف إذا استقامت وبالنون إذا انثنت تقوسا وانحنت، فيقول:

يَخُطُّ الشَّوْقُ فِي القَلْبِ شَخْصَهَا فَفِي كُلِّ مَا تَأْتِيهِ حُسْنٌ وَتَحْسِينُ

وَلَيْتَ تُطِيقُ الشِّينَ فِي حَالِ نُطْقِهَا فَمِنْ أَجْلِ بُعدِ الشِّينِ بَاعَدَهَا الشَّيْنُ

إِذَا رَقَصَتْ أَبْصَرْتَ كُلَّ بَدِيعَةٍ تَرَى أَلِفًا حِينًا وَحِينًا هِيَ النُّونُ

فَيَا نُزْهَةَ الأَبْصَارِ سُمِّيَتْ نُزْهَةً لِكَيْ يُوضِحَ المَعْنَى بَيَانٌ وَتَبْيِينُ[2]

قال عبد الرحمن الحجي :" ورقصهم الحالي هو بعينه الرقص العربي بما فيه من خفة الراقصات ورشاقتهن والتفنن في الحركات جئية وذهوبا"[3].

ختاما لهذا المبحث، ومن هذه النماذج المطروقة يمكن القول إنّ مجالس الأنس واللهو والطرب، قد عكست جانبا حضاريا في شقه الاجتماعي في بلاد المغرب الإسلامي إبّان

1- قلائد العقيان، ص:925.

1- المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الآبار، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1410هـ-1989م، ص:144.

2- تاريخ الموسيقى الأندلسية، عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ط1، 1969م، ص:116.

القرن السادس الهجري، فكان الشعر مرآة عاكسة لهذه المظاهر الحضارية من خلال وصف هذه الجلسات وأدواتها وما يدور فيها من غناء ولهو ورقص ولعب.

سادسا: العناية بالعلم ومظاهره

إنّ ما عرضناه في المبحث السابق لا يعني انحلال مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، بل عرفت هذه الحقبة أيضا جانبا حضاريا من نوع آخر تمثّل في الاهتمام بالعلم والدعوة إليه، إذ هو أساس الحضارة وتقدّمها به تنمو العقول وتتقدم الأمم، وتقود غيرها إلى سفينة النجاة، وشعراء هذا القرن قد رصدوا هذا الجانب الحضاري وما يتعلّق به من الحثّ على طلب العلم وتقديسه، ومدح أهله والنّصح بهم، والعناية بنتاجهم والإشادة بمجالسهم.

أ- الحث على طلب العلم وصحبة أهله:

من الشعراء الذين نظموا في هذا الباب أبو الحسن الأشوني*، حيث قال:

إِنَّ العُلُـــومَ لأَشْخَاص مُعَيَّنَةٍ   فَلاَ يُرَاهِـنُ إِلاَّ لُـبُّ مَـنْ دَرَسَا

مَنْ شَـرَّدَ النَّوْمَ وَالظَّـلْمَاءُ عَاكِفَةٌ   فَكَيْفَ حَتَّى يُضَاهِيهِ الَّذِي نَعِسَا

فَادْرُسْ تَسُدْ وَتَكُنْ فِي النَّاسِ مُعْلِيَا   وَرُحْ -هُدِيتَ- لِنُورِ العِلْمِ مُقْتَبِسَا[1]

يبرز الشاعر مكانة العلم وشأنه، ويكفي للدلالة على منزلته أنّه صفة من صفات الله عزّ وجل:﴿**وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[الأنعام: 13]. وأنّه سبحانه وتعالى قد أمر به قبل العمل﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾ [محمد: 19]. وما ذلك إلاّ لأنّ صحة العمل مرهونة

*علي بن محمد بن شعيب، أبو الحسن الأشوني الأندلسي، كان نحويا لغويا أديبا حافظا، وفد إلى جزائر بني مزغنة فاستوطنها وتوفي بها سنة 537هـ/ الذيل والتكملة، م3 (السفر الخامس)، ص:327.

1- الذّيل والتكملة، م3، (السفر الخامس)، ص:327.

به، وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره عن أبي الدّرداء رضي الله عنه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال:" (**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)**"[1]. ولهذه المنزلة كان طلبه فريضة كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام، بذلك في قوله: **"(طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)**"[2]، ويشير الشاعر في البيت الثاني إلى مكانة طالب العلم وفضله وأنّه صاحب درجة وفضل، قال تعالى:﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[الزمر:09]. والمعنى لا يستويان، وفي البيت الأخير حثّ على طلبه وبيّن شرف صاحبه وقدره بين النّاس، قال تعالى:﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [المجادلة: 11]؛ ويقول شاعر:

العِلْمُ يَرْفَعُ بَيْتًا لاَ عِمَادَ لَهُ   وَالجَهْلُ يَهْدِمُ بَيْتَ العِزِّ وَالشَّرَفِ

فأيّ قدر أفضل من هذا القدر وأيّ شرف أرفع من هذا الشرف، فالعلم نور لذا حثّ الشاعر على الاقتباس من هذا النور، وحثّ أيضا أبو الحسن الأشيوني على ضرورة طلب العم في الصغر، فقال[3]:

تَعَلَّمْ خَلِيلِي حِينَ الشَّبَابِ   تَفُقْ بِالعُلُومِ الرِّجَالَ الكِبَارَا

فَمَنْ وَاضَبَ العِلْمَ صَاحِ صَغِيرًا   نَفَى عَنْهُ عِنْدَ السُّؤَالِ الصَّغَارَا[1]

2- صحيح سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1419ه-1998م، ج2، ص407، رقم3641، كتاب العلم.

3- أخرجه ابن ماجه في سننه افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ج1، ص81، رقم224، صححه الألباني.

1- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج3، ص:327.

يُقدّم الشاعر في هذين البيتين نصيحة ثمينة حين يشير إلى مرحلة مهمة في تحصيل العلم ألا وهي مرحلة الشباب، لأنّ طالب العلم فيها ينعم بالخير الكثير والتحصيل الوفير فقد قيل:"العلم في الصغر كالنقش في الحجر"، فبالرغم من صعوبة النقش في الحجر إلا أنّ هذا النقش يصمد ويبقى زمنا طويلا، ومن مزايا التعلم في الصغر رسوخ العلم وعدم نسيانه بخلاف الكبر، يقول أبو عبد الله نفطويه عن نفسه(2):

أُرَانِي أَنْسَى مَا تَعَلَّمْتُ فِي الكِبَرِ   وَلَسْتَ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصِّغَرِ

وَمَا العِلْمُ إِلاَّ بالتَّعُلَّمِ فِي الصِّبَا   وَمَا الحِلْمُ إِلاَّ بِالتَّحَلُّمِ فِي الكِبَرَ

وَلَوْ فَلَقَ القَلْبَ المُعَلّمُ فِي الصِّبَا   لَأَلْفَى فِيهِ العِلْمَ كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ

فمن تعلّم في صغره أفلح ونجح وتجنّب الذّل والهوان عند سؤاله، وهذا ابن السيّد البطليوسي يؤكد أيضا مكانة صاحب العلم وبقاء ذكره بعد موته فيقول(3):

أَخُو العِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ   وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيمُ

وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى   يُظَنُّ مِنَ الأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمُ

يُشير الشاعر في هذين البيتين إلى خلود ذكر صاحب العلم وبقاء أجره، حتى وإن مات ففي الحديث "(**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ اِنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**)"(4). فإنّ صاحب العلم أثاره باقية حتى بعد وفاته ما بقيت السماوات والأرض، فالأئمة والعلماء في القرن الأول قبل ألف وأربعمئة سنة مازالت آثارهم وأقوالهم باقية، فهم أحياء يذكرون ويترحم عليهم، وقد قيل:

2- الصَّغار: الذل والهوان، لسان العرب، حرف الصاد، مادة (ص غ ر)، ج8، ص:245.

3- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرّ، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1، 1414هـ-1994م، م1، ص:363-364.

4- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986م، ج2، ص:143.

1- مسلم (3/1255، رقم 1631)، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

مَا الفَخْرُ إلاَّ لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُمْ   عَلَى الهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدِلاَّءُ

وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ   وَالجَاهِلُونَ لِأَهْلِ العِلْمِ أَعْدَاءُ

فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ بِهِ أَبَدًا   النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ[1]

فالعلم شرفٌ للإنسان وفخر له في جميع الأزمان، وهو العزّ الذي لا يبلى جديده، والكنز الذي لا يفنى مزيده، وقدره عظيم، وفضله جسيم، ولم يكتف شعراء القرن السادس بالحثّ على طلب العلم، بل نصحوا بملازمة أهله، يقول الأشيوني:

عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الأُدَبَاءِ يَا مَنْ   يُحَاوِلُ أَنْ يَسُودَ عَلَى الصِّحَابِ

فَمَا فِي النَّاسِ أَرْفَعُ مِنْ أَدِيبٍ   وَلاَ فِي الأَرْضِ أَرْفَعُ من كِتَابِ[2]

فصحبة أهل العلم والأدب تسمو بصاحبها وتورثه حُسن السّمت والخلق، هذا الأخير الذي يُعدّ عاملا أساسا في بناء الحضارة، وعنصرا مهما في التقدم والازدهار، وهذه الصحبة آداب وأسرار، يقول أبو مدين شعيب:

مَا لَذَّةُ العَيْشِ إلاَّ صُحْبَةُ الفُقَرَا   هُمُ السَّلاَطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا

فَاصْحَبْهُمْ وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ   وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا خَلَّفُوكَ وَرَا

وَاسْتَغْنِمْ الوَقْتَ وَاحْضُرْ دَائِمًا مَعَهُمْ   وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَى يَخُصُّ مَنْ حَضَرَا

وَلاَزِمِ الصَّمْتَ إلاَّ إِنْ سُئِلْتَ فَقُلْ   لاَ عِلْمَ عِنْدِي وَكُنْ بِالجَهْلِ مُسْتَتِرَا

وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلاَ سَبَبٍ   وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا

هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهْوَ شِيمَتُهُمْ   فَلاَ تَخَفْ دَرَكًا مِنْهُمْ وَلاَ ضَرَرَا[3]

2- مجاني الأدب في حدائق العرب، جمع أحد الآباء اليسوعيين، مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت، نشر عام 1913م، ج3، ص:131.

3- الذيل والتكملة، ج3، ص:327.

1- شعراء الجزائر على عهد الدولة الحمادية، سِير ونصوص، مختار حبار، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 1988م، ص:27، عن ديوان أبي مدين شعيب، ص:58.

يرى الشاعر أنّ ما يقوم به عيش الإنسان يكمن في مصاحبة ومجالسة أهل التحقق بالافتقار إلى الله، والحضور معهم بالجسد والقلب والروح معا، والتأدب معهم بالتزام الصمت، فلا يكن فضوليا ولا مشتغلا بما لا يعني، ولا مهذارا ولا متطاولا على ما ليس له، ولا معجبا ولا مدعيا، فإنّ مَنْ عنده هذه العيوب لا يصمت، كما نصح الشاعر بالتواضع أمام أهل العلم وعدم التكلّم حتى يوجه إليه السؤال، فإنّ وُجّه إليه قال لا علم عندي ليس كتما للعلم وإنّما تواضعا وتقديرا لأهل العلم، فلا شك أنّ هذا من تمام الأدب الذي نتعلمه من سلفنا الصالح، فقد سأل الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته:(أيّ يوم هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وأيّ بلد هذا؟ وهي البلد التي عاشوا فيها ويعرفونها، فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال عليه الصلاة والسلام :" أليس البلد الحرام، أليس اليوم الحرام، قالوا: بلى)"[1]، فهذا موقف من مواقف الأدب، ولا شك أنّ التواضع مظهر حضاري وخلق رفيع من أخلاق أهل العلم، كما نصح الشاعر باستغفار الله عز وجل ممّا نعلم ومما لا نعلم، "ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ هم فرجا، ومن كلّ ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"[2]، وقد أشار الشاعر لصفات أهل العلم الذين يجب أن نصحبهم ونتأدب معهم، فهم أهل العفو والصفح والمسامحة وهي شيمتهم، فهم لا ينتقمون لأنفسهم ولا ينتصفون لها ولا يقابلون السيئات إلاّ بالحسنات، بخلاف أهل النفوس وأهل الأهواء الذين مهما اعتذرنا منهم لا يقبلون العذر، ولا يرحمونا لنا شأنا ولا حالا ولا ضعفا، أمّا أهل العلم فهم أحباب الله لا نشمّ منهم إلا أطيب الروائح، ولا نجد فيهم إلا خير ما يلمح من الملامح في العفو والصفح والسّماح والجود[3].

2- البخاري، باب الخطبة أيام منى، (176/2) برقم: 1741.

3- ابن ماجه، باب الاستغفار، (1254/2) رقم: 3819.

1- ينظر مسلك أهل الفطن من معاني قصيدة مالذة العيش لأبي مدين: عمر بن سالم بن حفيظ، دار المصطفى، ط1، 1433هـ-2012م، ص:56.

ب- الاهتمام بالكتب ووصف أوعيتها:

إنّ من مظاهر التحضر في القرن السادس كثرة المؤلفات في مختلف العلوم، ممّا دعا حكّام هذه الفترة إلى الاعتناء بها، وجعلها من أولوياتهم، ليس في فترات السّلم فحسب بل حتى في زمن الفتن والحروب[1]، فقد سجّل شعراء هذه الحقبة مظاهر العناية بالعلم الذي هو أساس التحضر من خلال الإشادة بالمؤلفات والنّصح بها، فهذا الشاعر أبو الحسن بن الباذش* يقول مادحا كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي[2]:

أَضِـعْ الكَرَى لِتَحْـفَـظَ الإِيضَـاحَ وَصِـلِ الغَدْوَ لِفَهْمِهِ بِصَبَاحِ[3]

هُـوَ بُغْيَـةُ الـمُتَعَلِّمِينَ وَمَنْ بَـغَى حَمْلَ الكِتَابِ يَلِجْهُ بِالـمِفْتَاحِ

مَضَتِ العُصُورُ وَكُلُّ نَحْـوٍ ظُلْمَـةٌ وَأَتَى فَكَانَ النَّحْوُ ضَوْءَ صَبَاحِ

أُوصِي ذَوِي الإِعْرَابِ أَنْ يَتَذَاكَرُوا بِـحُرُوفِهِ فِي الصُّحْفِ وَالأَلْوَاحِ

فَإِذَا هُمُو سَـمِعُوا النَّصِيحَةِ أَنْجَحُـوا إِنَّ النَّـصِيحَـةَ غِبُّهَا لِـنَجَاحِ

يدعو الشاعر إلى حفظ كتاب الإيضاح، وينصح في ذلك بالسّهر والتقليل من النوم، والتبكير إلى حِلق الدرس لفهمه على المشايخ والعلماء، فلاشك أنّ ذكره للتبكير في الحياة اليومية وعدم الخلود للنوم بعد الفجر سَمت عام ومظهر حضاري عند المسلمين في ذلك العصر، له فضل كبير لذا جاء في الحديث : "**(اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)**"[4]، قال ابن

2- ينظر الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن 6ه إلى نهاية القرن 7ه، رسالة دكتوراه، إعداد: فايزة سعيدات، إشراف: أ. د محمد مرتاض، جامعة تلمسان، 2017م-2018م، ص:331.

*هو أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف –ابن الباذش- الأنصاري الأندلسي، كان شاعرا بارعا في النحو ومشاركا في عدد من فنون المعرفة، توفي في غرناطة، سنة 528ه/ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين بن عبدالرحمن السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، نشر سنة 1384ه-1964م، ط1، ج2، ص:326-327.

3- المصدر نفسه، ج2، ص:327.

4- الكرى: النوم والجمع أكراء، لسان العرب، حرف الألف، مادة (كرا)، ج13، ص:59.

1- مسند أحمد، رقم 15517 -318/5، 19710 -584/6.

عمر: "يراد به التبكير في طلب العلم والصّلاة في الصفّ الأوّل في المساجد"[1]، ويشير الشاعر في البيت الثاني إلى فضل الكتاب وأهميته لمن أراد فهم كتاب الله عز وجل فعليه به، كونه كتاب نحو والنحو مفتاح علوم العربية والشريعة، يقول أحد الشعراء:

النَّحْـوُ مِـفْتَاحُ العُـلُومِ وَفَـهْمُـهُ   يَكْفِي العُقُولَ مَـشَـقَّـةً وَعَـنَـاءَ

فَافْـهَمْـهُ وَاحْرِصْ أَنْ تَنَالَ زِمَامَهُ   يَـجْعَـلْ طَرِيقَكَ لِلعُلُومِ ضِـيَاءَ

ويرى الشاعر أنّ حسنات هذا الكتاب عظيمة، وفضله على طلبة العلم كبير، كونه سبّاق في توضيح علم النحو وشرح قواعده، لذا ينصح مريدي الإعراب أن يتذاكروه ويحفظوه لعلهم يفلحون، فلا شك أنّ هذه المقطوعة تضمنت مظاهر حضارية عكست جوانبا من أحوال أهل بلاد المغرب الإسلامي بدءا بالاهتمام بالمؤلفات والإرشاد لحفظها والتزام حلقات العلم بُكرة لفهمها، فالمقطوعة محطة حضارية في بابها إذ إنّ الكتاب يمثل بما يحويه من ثمرات الفكر الإنساني من وسائل العلم والمعرفة في أيّ عصر من العصور وفي أيّ مجتمع من المجتمعات، ولم تقف العناية في هذا العصر بالكتب تأليفا وحفظا، بل سعوا للمحافظة عليها بتأسيس الخزائن العلمية على غرار خزانة يعقوب المنصور بمراكش، ومكتبة الشاري بسبتة[2]، والشعراء قد سجّلوا هذه الخزائن والأوعية كونها مظاهر حضارية وقتذاك، فممّا جاء في وصفها:

وَوِعَـاءُ عُـــودٍ لِلعُـلُـومِ صِـيَانَـةٌ   حَـمَلَـتْ ذَخَائِـرَهَا قَـوَائِمُ أَرْبَـعُ

مَحْفُوظَةُ الأَشْكَالِ مِمَّا قَدْ حَوَتْ   فالعِلم يَـحْفَظُ ما حَوَاهُ وَيَمْـنَـعُ

خَشَبٌ كلَوْنِ التِّبْرِ يُشْرِقُ فَوْقَهَا   حُلِيٌّ حَكَى لَوْنَ اللُّجَيْنِ وَيَسْطَعُ[3]

2- عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، المدينة النبوية، 1414هـ، ص:279.

1- ينظر حضارة الموحدين: محمد المنوني، ص: 185.

2- المرجع نفسه، ص: 185.

فهذه النتفة تُبِينُ عن براعة في فنّ التّجارة، كون هذه الخزانة متقنة الصنّع ذات قوائم أربع وأشكال محفوظة لا يخشى على ما تحويه الضياع، كما أنّها مصنوعة من أجود أنواع الخشب، وهذا ما جعلها تلمع كأنّها مزينة بحلي الذهب والفضة، فهذا النوع من العناية ينبيء عن سرّ التّقدم والازدهار الحضاري في ذلك العصر، وأمّا مكتبة أبي الحسن الشاري* بسبتة فقد نالت هي الأخرى اهتمام الشعراء، كونها تمثّل صرحا حضاريا لا مثيل له وقتذاك، ممّا دعا شعراء القرن السادس الهجري إلى مدح مؤسسها وإبراز قيمتها الحضارية، يقول أبو القاسم بن عمران**:

أَبَا حَسَـنٍ زَادَتْ مَآثِرُكُمْ حُسْنًا بِفِعْلٍ جَمِيلٍ مُوجِبٍ لَكُمُ الحُسْنَى

لَكُمْ أَجْرُهُ الأَوْفَى وَأَجْرُ مَنْ اِقْتَفَى سَبِيلَكَ فِيهِ أَوْ بِسُـنَّتِكَ اسْتَنَّا

أَجَلْ فَالْيَدُ الطُّولَى فَلَيْسَ بِغَرْبِنَا حَفِيٌّ بِأَهْلِ العِلْمِ مِنَّتَكَ امْتَنَّا

تَخَيَّرْتَ أَعْلاَقَ الدَّوَاوِينِ مُعْرِضًا بِإِدْنَائِهَا مِنْكُمْ عَنْ العَرَضِ الأَدْنَى(1)

يمدح الشاعر مؤسس هذه المكتبة النفيسة ويثمّن جهده الفريد في عصره، ويهنؤه بهذا الفضل الذي جارى به المشارقة، والذي رأى فيه مأثرة تُكسِب صاحبها المدح والثّناء والثواب والجزاء عند الله تعالى، وهذا الشاعر أبو الحسن بن إسماعيل بن عبد الله الأغماتي، يقول عنها(2):

بَنَيْتَ لِأَهْلِ الغَرْبِ مَجْدًا وَسُـؤْدَدَا وَفَخْرًا عَلَى الأَيَّامِ يَبْـقَى مُـؤَبَّدَا

---

*هو علي بن محمد بن علي بن يحيى بن عبدالله بن يحيى الغافقي، فقيه محدّث، اشتهر بعنايته بالكتب النفيسة حيث جمع عددا كبيرا منها وحبسها في مدرسة أنشأها لهذا الغرض، توفي مغربا عن وطنه سبتة سنة 649ه/ ينظر الذيل والتكملة، ج8، ص:197-198.

**عيسى بن عمران بن دافال الزناتي المكناسي، ولد بتلمسان سنة 512ه، نشأ فيها طالبا للعلم ثم تنقل في مدن المغرب والأندلس ولي قضاء إشبيلية وكان خطيبا بليغا وشاعرا بارعا، توفي بمراكش سنة 618ه/ ينظر الذيل والتكملة، ج8، ص:287.

1- الذيل والتكملة، ابن عبد الملك، ج8، ص:288.

2- المصدرنفسه، ج8، ص:199.

رَفَعْتَ لَهُمْ ذِكْرًا وَأَسْمَيْتَ مَنْصِبَا أَنَافَ عَلَى سَامِي الكَوَاكِبِ مَصْعِدَا[1]

يؤكد الشاعر ما جاء في معاني الأبيات السابقة من الإشادة بهذا العمل الحضاري الذي يُعدّ مجدا رفيعا رفع ذكر أهل المنطقة، ثمّ يذكر ما تحويه هذه المكتبة الحضارية من دُرر نفيسة، فيقول:

وَمَدْرَسَةٍ لِلعِلْمِ قَلَّدَتْ جِيدَهَا مِنَ الكُتُبِ الأَعْلاَقِ دُرًّا مُنَضَّدَا
وَلَيْسَ بِوُسْعِي أَنْ أَجِيءَ بِذِكْرِهَا مُفَصَّلَةٍ إِذْ لَيْسَ تُحْصِي لَهَا عَدًّا
فَمِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَعْظَمُهَا غِنًى وَأَنْفَسُهَا قَدْرًا وَأَنْعِهَا جَدَا
وَمِنْ سُنَنِ الـمُخْتَارِ مَا صَحَّ نَقْلُهُ وَجَاءَ بِهِ أَهْلُ العَدَالَةِ مُسْنَدَا
وَمِنْ عِلْمَيْ الإِعْرَابِ وَاللُّغَةِ الَّتِي بِهَا أَنْزَلَ اللهُ الكِتَابَ الـمُمَجَّدَا[2]

يُشير الشّاعر في هذه المقطوعة إلى عمل حضاري آخر ضمّه هذا الصّرح، ألا وهو كثرة المؤلفات في مختلف الموضوعات، حيث تضمّ كتب التفسير والحديث النّبوي الشريف، وكتب اللّغة والإعراب، حتى إنّ الشاعر يُقرّ بعدم استطاعته حصر هذه المصنفات، وهذه الكثرة تعكس لنا جانبا حضاريا في شقّه العلمي والمعرفي الذي عرفته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري.

ج- وصف أدوات العلم ومجالسه:

إنّ من مظاهر الاعتناء بالعلم، الاهتمام بأدواته ووسائله، إذ تُعدّ هذه الأخيرة مظاهر حضارية اعتنى بها شعراء القرن السادس الهجري ونظموا لأجلها شعرا، ولعلّ من أبرز هذه الأدوات التي نالت الحظ الأوفر من أوصاف الشعراء، **القلم**، فهو سفير العقل ورسول الفكر وترجمان الذّهن، وهو بريد القلب، يحب بالخبر وينظر بلا بصر، وقبل كل ذا وذاك

3- أناف: أناف الشيء ينوف إذا طال وارتفع، لسان العرب، حرف الفاء، مادة (نوف)، ج14، ص:387.

1- الذيل والتكملة، ج8، ص:200.

يكفيه شرفا أنّه أوّل ما خلق الله وفطر، فقد جاء في الأثر "أنّ أوّل ما خلق الله القلم"[1]، فمن شعراء هذا العصر الذين نظموا فيه أوصافا ابن حمديس[2]:

وَجَدْوَلٍ جَامِدٍ فِي الكَفِّ تَحْمِلُهُ   يَغُوصُ فِيهِ عَلَى دُرِّ النُّهَى النَّظَرُ
يَكْسُو السُّطُورَ ضِيَاءٌ عِنْدَ ظُلْمَتِهَا   كَأَنَّ يَنْبُوعَ نُورٍ مِنْهُ يَنْفَجِرُ
يَشِفُّ لِلْعَيْنِ عَنْ خَطِّ الكِتَابِ كَمَا   شَفَّ الهَوَاءُ وَلَكِنَّ جِسْمَهُ حَجَرُ
يُبْدِي الحُرُوفَ بِجُرْحٍ نَالَهَا عِرَقٌ   فِيهِ وَقَرَّ عَلَيْهَا جَامِدًا نَهَرُ
نِعْمَ المُعِينُ لِشَيْخٍ كَلَّ نَاظِرُهُ   وَصَغَّرَ الخَطَّ فِي أَلْحَاظِهِ الكِبَرُ
يَرَى بِهِ صُوَرَ الأَسْطَارِ قَدْ عَظُمَتْ   كَعُنْصُلِ الْمَاءِ فِيهِ يَعْظُمُ الوَبَرُ[3]

يرى الشاعر في هذه الأبيات **القلم** جدولا محمولا باليد، وفي أعماقه تستقر جواهر الفكر ودُرره، ومن شباته يتفجر نبع النّور، كأنّه عيون ماء أو نهر، فكلّما لامس السطور تشعشعت جنباتها بالضياء ومن دموعه تتولد ضحكات السطور، ويحسن عمّا وراءها ويشفها ويبدي ما تضمّه في طيّاتها من معان وأفكار فمن جراحه ونزفه تخمد أو تطفو بالحروف والكلمات على الورق وهو خير معين لصاحبه[4]، وهذا الشاعر الرّصافي البلنسي يقول عنه[5]:

قَصِيرُ الأَنَابِيبِ لَكِنَّهُ   يَطُولُ مَضَاءَ طِوَالِ الرِّمَاح

1- ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان بن محمد القاري، دار الفكر للطباعة والنشر، ج1، ص:168.

2- ديوان ابن حمديس، ص:203.

3- العنصل: نوع من النّبات وهو البصل البري، لسان العرب، ج10، ص:303، حرف اللام، مادة (عنصل).

1- ينظر الصورة الشعرية في شعر ابن حمديس رسالة ماجستير في اللغة العربية، إعداد الطالب:كاوة اسماعيل عبد الله، إشراف د: صاحب رشيد موسى، جامعة السليمانية، العراق، 1428هـ-2008م، ص:59-60.

2- ديوان الرصافي البلنسي، أبي عبد الله محمد بن غالب، جمعه وقدم له: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط3، 1403هـ-1983م، ص: 53.

إِذَا عَبَّ النَّقْسُ فِي دَامِسٍ   وَدَبَّ مِنَ الطَّرْسِ فَوْقَ الصَّبَاحِ[1]
تَجَلَّتْ لَهُ مُشْكِلَاتُ الأُمُورِ   وَلَانَ لَهُ الصَّعْبُ بَعْدَ الجِمَاحِ[2]

فلولاه لغدت أغصان الاكتساب ذاوية، إذ أنّه قيد العلوم، فقد قيل العلم صيد والكتابة قيد، فرغم قصره إلاّ أنّ فضله عظيم، فلولاه لكانت بيوت الأموال خاوية، فهو لامحالة متجرها الأربح وميزانها الأرجح، وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها وتحكم في طيّها ونشرها، وهو بلاشك مظهر حضاري يمثل مجدها وفخارها، يعقد الرايات لكل وال، ويطفىء جمرة الحرب العوان، ويكابد العدوّ بلا صارم ولا سنان يفل المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعاقل، ويقمع الحواسد والعواذل فللّه درّه من باسل[3].

ومن مظاهر العناية بالعلم أيضا، الاهتمام بمجالسه المختلفة، فقد راجت هذه الأخيرة في بلاد المغرب الإسلامي رواجا كان الخلفاء والأمراء أصحاب الفضل فيه بعد الله عزّ وجلّ، وأكثر الدّاعين إليه لسنّهم تلك الشرعة وتشجيعهم النّاس على الاجتماع لذلك، ومدارسة مسائل العلم والأدب وبحث نثره ونقد شعره، وقد كانت هذه المجالس محلّ وفادة الأدباء والعلماء لعرض ثمرات أفكارهم، وإلقاء ما تجود به قرائحهم، وكل واحد من هؤلاء يرجو أن يكون السبق له والغلبة على سواه[4]، فمن أمثلة هذه المجالس مجلس المنصور بن أبي عامر الذي كان يعقده كلّ أسبوع للمناظرة بين العلماء والأدباء، وكان للمنصور مجلس كل أسبوع

3- النقس: المداد والجمع أنقاس، لسان العرب، حرف النون، مادة (نقس)، ج6، ص:289/ دامس: دمس الظلام وليل دامس إذا اشتد وأظلم، المصدر نفسه، حرف السين، مادة: (دمس)/ الطرس: الصحيفة، المصدر نفسه، حرف الطاء، مادة (طرس)، ج9.
4- الجماح: بعد الصّد بالرغم من الإلحاح، المصدر نفسه، حرف الميم، مادة (جمم)، ج3، ص:191.
5- ينظر ديوان الرصافي البلنسي، ص:53-54.
1- ينظر الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز محمد عيسى، ص: 199.

يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته[1]، وممّا لاشكّ فيه أنّ هذه المجالس كونها تمثل مظهرا حضاريا، قد نالت حظا من أوصاف شعراء هذه الحقبة، فهذا الشاعر ابن حربون، يقول:

مَجَالِسُهُمْ رَوْضَاتُ عِلْمٍ يَزِينُهَا مِنَ النُّورِ أَجْنَاسٌ تُؤَامٌ وَفَارِدُ

مَجَالِسُ لَوْ تَرْقَى الكَوَاكِبُ نَحْوَهَا لَقَدْ بَاتَ تِلْمِيذًا لَدَيْهِمْ عُطَارِدُ

لَـقَدْ عَمَـرَتْ بِالعِلْـمِ حَتَّى كَأَنَّهَا لِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا مَسَاجِدُ[2]

إنّ هذه المجالس قد استحقت الإشادة والمدح، نظير اهتمام حكّام هذه الفترة بالعلوم، ولا سيما الدينية منها، ولا عجب في ذلك فقد سبقوا إلى التعليم الإجباري وابتكروا التعليم المجاني ووضعوا مناهج التعليم، وكان كثير من خلفاء القرن السادس فقهاء وعلماء، بلغ تشجيعهم للمعارف مبلغا عظيما، وكان تشجيعا ماديا وأدبيا تفنّنوا فيه ماشاءت لهم هممهم الكبيرة أن يتفننوا[3].

وختاما لهذا الفصل يمكن القول إنّ بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، قد عرفت حضارة مزدهرة في شتى مناحي الحياة، هذه الحضارة التي أخذت بألباب شعراء هذه الحقبة، فنظموا قصائد ومقاطع شعرية سجلوا فيها جوانب حضارية في ميادين مختلفة، بدءا بالجانب العمراني ممثلا في تشييد المدن والحصون والقصور ومحتوياتها إلى الجانب الاجتماعي وما عرفه من عادات وتقاليد بَدَتْ جليّة في مجالس الأنس والتسلية إلى الجانب الثقافي العلمي الذي بَدَا الاهتمام بالعلم ومظاهره دالا عليه، وتجدر الإشارة إلى أنّ ما عرضناه من نماذج شعرية حضارية هي غيض من فيض، بالنظر إلى العدد الكبير من شعراء هذا القرن الذي مثّل أزهى عصور الحضارة في بلاد المغرب الإسلامي.

2- المرجع نفسه، ص: 199.

3- شعر عمر بن أبي حربون الشبلي: علي الغريب الشناوي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2004م، ص:23.

4- ينظر حضارة الموحدين، محمد المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م، ص:14.



الفصل الثالث:

المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي

إبّان القرن السّابع الهجري:

أوّلا: المولديات

ثانيا: وصف الحرب ومعدّاتها

ثالثا: الحمّامات

رابعا: المساجد

خامسا: العادات والتقاليد

يُعدّ الشعر إبداعا فكريا وخياليا يُعبّر فيه الشاعر عن خلجاته وما يجول في خاطره بطريقة فنية وجمالية وبلاغية عن أشياء يعيشها في واقعه أو في خياله، سواء كان ذلك في الجانب الحضاري أم في غيره، طوال أزمنة عديدة وفترات مديدة، ومن تلك الأزمنة القرن السابع الهجري، الذي عرف فيه أهل المغرب الإسلامي حضارة كانت مصدر إلهام الكثير من شعراء تلك الحقبة، فعبّروا عنها في نصوص مسجلين مظاهر حضارية في ميادين عديدة، إذ إنّ الشعر في كل زمن ومكان آلة تصوير تعمل على تخليد النّشاط الإنساني في مظاهره المختلفة، ونحن في هذا الفصل سنعمل - إن شاء الله - على دراسة هذه المظاهر بالوصف والتحليل معتمدين على ما توفّر لدينا من نصوص شعرية في هذا المجال.

أوّلا: المؤلديات

المولديات أو **الموالد** كلاهما ينتمي إلى إبداع يتعلّق بالاحتفال بميلاد النّبي عليه الصلاة والسلام، فأصل الكلمة لغة: "مَوْلِدُ الرجل وقت ولادته، ومولده الموضع الذي ولد فيه، وولدته الأم تلده مولدا، وميلاد الرجل: اسم الوقت الذي ولد فيه"[1].

فالمولديات نسبة إلى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي كان يوم الثاني عشر ربيع الأول من عام الفيل[2]، فمولده إطلالة للرحمة الإلاهية بالنسبة للبشر جميعا، قال تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء:107]، فهو أعظم مِنّة مَنَّ الله عزّ وجلّ بها على عباده،قال تعالى:﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[آلعمران:164]،

1- لسان العرب، حرف الدال، فصل الواو، مادة (و ل د)، ج3، ص:468.

2- ينظر السيرة النبوية لابن هشام، علق عليها وخرج أحاديثها وصنع فهارسها: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ /1990م، ج1، ص:183.

فكلّما أهلّ شهر ربيع الأول أعلنت ذكرى المولد النّبوي الشريف، وهمّ بعض المسلمين إلى الاحتفال بهذا اليوم بمختلف الأشكال وكلٌّ حسب عادته وتقاليده.

وعن نشأة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فلم يُنقَل عن أحد من السّلف الصالح في القرون الثلاثة الفاضلة أنّه أقام ليلة المولد النّبوي الشريف أو احتفل به، والجميع متفق على أنّه جاء في وقت متأخر، بحيث مرت هذه القرون دون ذكر لهذا الاحتفال، وفي هذا يقول الحافظ أبوالخير السخاوي:" عمل المولد الشريف لم ينقل عن أحد من السلف الصالح في القرون الثلاثة الفاضلة وإنّما حدث بعد"(1).

وتُشير بعض المصادر التاريخية إلى أنّ البدايات الأولى لظاهرة هذا الاحتفال كانت في عهد الفاطميين (341ه/365ه) في المشرق العربي حيث كانوا يحتفلون به ضمن احتفالاتهم بستة موالد وهي: مولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومولد الحسن والحسين، ومولد فاطمة، والسادس مولد الخليفة الحاضر(2).

ومن المشرق العربي انتقل هذا الاحتفال إلى بلاد المغرب الإسلامي، فكان بنو العِزّ بالمغرب الإسلامي أوّل من دعا إليه، وأوّل من احتفل به من الحكام هم بنو مرين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق (656ه/685ه)، وأمّا في تونس فلم يكن منتظما إلا في عهد أبي فارس عبد العزيز (796ه/837ه)، وأمّا في الأندلس فقد ظهر في أيّام السلطان أبي الحجاج يوسف الأول (733ه/755ه)(3).

1- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تح: مصطفى عبد الواحد، القاهرة، ط1، 1418ه/1997م، ص: 439.

2- ينظر تاريخ الاحتفال بالمولد من عصر الإسلام الأوّل إلى عصر فاروق الأوّل، حسن السندوسي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط1، ص:65-66.

3- ينظر تلمسان في العهد الزياني، عبد العزيز فيلالي، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ج1، ص:274-276.

أمّا بالمغرب الأوسط فلم تعرف الدّولة الزيانية وقتذاك الاحتفال بالمولد النبوي إلاّ في وقت متأخر مقارنة بجيرانها، فمعظم المصادر تجمع على أنّ تاريخ شيوعه في هذه الدولة بدأ مع تولي أبي حمو موسى الثاني مقاليد الحكم (760هـ). ويرجع سبب ذلك إلى أنّ المذهب الديني الشائع الذي كان يتبعه فقهاء تلمسان وغيرهم من العوام هو المذهب المالكي، الذي يُعِدّ هذا الاحتفال بدعة مردودة لا أصل لها في الشرع استحدثت في الدين، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم **"(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)"**. وكذلك استند هؤلاء -كما رأينا سابقا- إلى أنّ السلف الصالح من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم لم يقوموا بهذا الاحتفال على امتداد القرون الثلاثة المفضلة التي يشهد لها بالاجتهاد والخير[1]. وقد ذهب آخرون إلى جواز الاحتفال بالمولد النبوي كالإمام السيوطي في كتابه "الحاوي في الفتاوي"، ومن المؤلفات الأخرى التي تناولت هذا الحكم أيضاً "التنوير في مولد البشير" لأبي الخطاب بن دحية، وكذلك "حسن المقصد في عمل المولد" للسيوطي[2].

وقد كان لهذا الاحتفال ببلاد المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري مظاهر متنوعة وعادات وتقاليد تختلف من دولة لأخرى، ففي مملكة تلمسان مثلا كانت تقام "ليلة المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام، بمشورة من تلمسان المحروسة، مدعاة حفيلة، يحشر فيها النّاس خاصة وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، وبُسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات، ومباخر صفر منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر مذاب، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنّها أزهار الربيع المنمنمة، تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ويخالط حسن ريّها الأرواح ويخامر"[3]. وأمّا في

1- ينظر تلمسان في العهد الزياني، ج 1، ص:276-282.

2- ينظر المولد النبوي الشريف، صلاح الهواري، دار البحار، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص:05.

3- أزهار الرياض في أخبار عياض، المقري، وصف ليالي مولد النبي، ص:243.

المغرب الأقصى فكان من مظاهر الاحتفال "أن تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يُطاف بها في فاس، حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها في ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصّنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة في السّماء كالمنارة، ويحشر النّاس إلى ذلك ويدعى المنشدون للأشعار وتنثر عليهم الفضة، ويُؤمر لكلّ شخص منهم بكسوة وجوائز تبلغ الآفاق"[1].

وهكذا فقد بلغ الاحتفال بالمولد النّبوي شأوا بعيدا في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، حيث أصبح الملوك أنفسهم يرأسون المهرجانات التي تقام ليلة المولد، فقد أصدر السلطان أبو يعقوب بن يعقوب المريني (ت691ه) أمرا بجعل المولد النّبوي عيدا رسميا معمماً في جميع جهات المغرب كعيد الفطر والأضحى[2]، وفي بلاد الأندلس صار الملوك يحتفلون في الضّيع والدعوة إلى إنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب [3] وهكذا فقد كان للاحتفال بالمولد النبوي مظاهر خاصة طبعت بلاد المغرب الإسلامي.

1- القصيدة المولدية:

لقد كان لشيوع ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب الإسلامي أثره المباشر في الأدب إذ وُلد غرض استحدثه أهل المغرب يعرف باسم **"الشعر المولدي"** أو **"الميلاديات"** لاقترانه بمناسبة المولد وتخليده لها من خلال الإشادة بذكرها ومدح صاحبها صلى الله عليه وسلم، إذا فالمولديات في الشعر هي القصائد التي قيلت بهذه المناسبة الشريفة، والتي تتضمن مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعداد مناقبه الفاضلة، وذكر

1- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1، ج10، ص:478.

2- ينظر الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري، تح: محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، دط، د.ت، ص:90.

3- ينظر تاريخ ابن خلدون المسمّى "ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، 2000م، ص:551.

صفاته الحميدة وسيرته النّبوية الشريفة والأماكن المقدسة التي وطئها نبيّنا المحبوب[1]، وقد ذاعت القصائد المولدية في المغرب الإسلامي منذ أوائل المئة السابعة للهجرة ولكن لا نكاد نعلم أوّل قصيدة قيلت بمناسبة هذا الاحتفال سوى ما أشار إليه محمد المنوني، فذكر "أشعار المولديات" لمحمد بن القاسم بن عبد الله الصيرفي، و"قصائد مولديات" لأبي سالم إبراهيم محمد بن علي التازي[2].

2- بنية القصيدة المولدية في القرن السابع الهجري:

تجدر الإشارة إلى أنّ شعر المولديات يختلف عن المديح النبوي اختلافا ظاهرا، فالمديح لا يختص بزمن محدد وإنّما هو دائم طوال السنة، لكن قصائد المولديات محددة بزمن ووقت ذكرى ميلاد النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم[3]، كما وتختلف قصائد المولديات عن غيرها من الشعر بتعدد الأغراض والمواضيع خلافا للشعر العربي القديم، فهي ليست من النوع البسيط ذي الغرض الواحد، إنّما هي من النموذج المركّب [4] فهي تتكون على مستوى البناء الفني من المقدمة الغزلية أو الاستهلال بذكر فضل شهر ربيع الأول أو فضل ليلة المولد الشريف، ثمّ مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر معجزاته وفضائله، ويتلو ذلك غالبا مدح السلطان وذكر مزاياه ونبله وكرمه وعدله، وبعضهم يستفتحها بمقدمة نسيبية صوفية، يتشوقون فيها لرؤية النبيّ صلى الله عليه وسلم وزيارة الأمكنة المقدسة، ومزارات الحرم الشريف، وقد يشير الشاعر إلى انهماكه في حياة اللهو والملذات وإلى ندمه على ما

1- ينظر قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، صونيا بوعبد الله، إشراف علي عالية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، قسم اللغة العربية وآدابها، 1431-1432ه/2010-2011م، ص:68.

2- ينظر المولديات في الأدب المغربي، محمد المنوني، مجلة دعوة الحق، ع7، 1957م، ص:62-63.

3- ينظر المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، دراسة أسلوبية، عبد القادر البار، إشراف: أحمد جيلالي، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، قسم اللغة العربية وآدابها، 2011-2012م، ص:29.

4- ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1966م، ص:303.

فات من ذنوب وضرورة توبته وإقلاعه، ثمّ ينهيها بالدّعاء والصّلاة عليه، وبذلك تكون القصيدة المولدية قد اشتملت على قسمين أساسين: قسم يتعلق بالمقدمات بأنواعها وآخر يتعلّق بالموضوع أو المديح النبوي الذي لأجله قيلت القصيدة.

أ- المقدمات:

تُعدّ المقدمة عنصرا أساساً في الشعر العربي منذ القدم، وذلك لأهميتها في مطلع القصيدة، يقول ابن رشيق "فإنّ الشعر قفل مفتاحه أوّله، وينبغي للشاعر أن يجود فيه، فإنّه أول ما يقرع السّمع به، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"[1]. وشعراء المولديات في القرن السابع الهجري قد حاكوا نظام القصيدة العربية؛ فكانوا يفتتحون قصائدهم كما أشرنا سابقا بمقدمات مختلفة الأنواع والمضامين، فقد نجد المقدمة الطللية والغزلية أو مقدمة الشباب والشيب أو مقدمة الحنين والتشوق إلى البقاع المقدسة والرحلة إليها، ومهما اختلفت أنواع المقدمات وتعددت إلاّ أنّها صيغت بنبرة تشعر القارئ بأنّ النّص الشعري نبوي أو ديني، فبالرغم من حضور المرأة فإنّها تخاطب بلغة محتشمة، وخطابها غالبا ما يكون دالاً على ليلة المولد النبوي الشريف، وإن كان الخطاب يدل على امرأة رمزية، فقد تشبه في حسنها بجمال وروعة ليلة المولد[2]، فالمتأمّل في هذه المقدمات يجدها "تُعنى بالمعاني المألوفة في المقدمات المشرقية الموروثة سواء في النسيب أم في التشبيب مع بعض الخصوصية الأسلوبية السهلة والمصطنعة بسبب التلوّن البيئي والحضاري"[3]. ولابدّ من الإشارة إلى أنّ المقدمات الغزلية للمولديات كانت شيئا عاديا، لأنّ البنية الفنية للمولديات كانت تستدعي الالتجاء إلى هذه الخاصية، ولذلك كان شعراء هذا الفن لا يستنكفون من

1- العمدة، ابن رشيق، ج1، ص:18.

2- ينظر بناء القصيدة النبوية بالمغرب، م ع الرباوي، ص:44.

3- مقدّمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية فنية، دكتوراه، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، 1996م، ص:32.

التغني بمحاسن المرأة قبل الخلوص إلى المديح، وإن لم يكن التغزل صريحا بطبيعة الحال، وإنمّا هو عبارة عن نسيب لا أكثر، وهو الذي أتاه جُلّ شعراء المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ شاعر المولديات في هذا العصر قد يكتفي بمقدمة واحدة أو يجمع بين عدة معان من مضامين المقدمات قبل أن يلج الموضوع، وهناك من أَضْرَبَ عن تلك المقدمات التقليدية التي تعارف عليها شعراء المديح النبوي من ذكر للأطلال ونسيب وغيرها واستحدثوا مقدمات تشير إلى موضوع أشعارهم مباشرة كالاستهلال بالدعوة إلى مدحه صلى الله عليه وسلم ووصف تعلقهم به، على نحو ما فعل "ابن خبازة" في مولديته الرائعة التي دوّت شُهرتُها في عصره وبعد عصره، يقول في مطلعها[2]:

حَقِيـقٌ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ الـمَعَـالِيَا لِنُفْـــنِيَ فِي مَـدْحِ النَّبِيِّ المـعَانِـيَا

وَنَجْمَعُ أَشْتَاتَ الأَعَـارِيضِ حِسْبَةً وَنَحْشُـــدُ فِي ذَاتِ الإِلَهِ القَـــوَافِيَا

وَنَقْتَادُ لِلْأَشْـعَـارِ كُلَّ كَـــتِيبَةٍ لِنَصْرِ الهُدَى وَالدِّينِ تُرْدِي الأَعَادِيَا

لِنُطْلِعَ مِـنْ أَمْـدَاحِ أَحْمَـدَ أَنْجُـماً تَلُـــوحُ فَتَجْلُـو مِنْ سَنَـاهُ الدَّيَاجِيَا[3]

يُبَيِّن الشاعرفي هذه الأبيات موقفه من المديح النبوي، فيرى أنّه ينبغي أن يستجيب للمعالي ويفني في مديح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم المعاني، ويجمع أشتات الأشعار احتسابا لله تعالى، ويحشد القوافي إخلاصا له عزّ وجل، فواجب الشعراء في نظره أن

1- ينظر فنّ المولديات في الشعر المغربي القديم: أ.د محمد مرتاض، مجلة الفضاء المغاربي، دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ع 8-9، شعبان 1435ه/ماي2014، ص:29.

2- أزهار الرياض، المقري، ج2، ص:384.

3- السّنا: الضوء الساطع، الدياجي: الظلمات، المعجم الوسيط، مادة (د ج ا).

ينظموا قصائد المديح تقربا من الذات الإلهية من جمة، وبثّ الحماس في نفوس المسلمين من جمة أخرى ذلك أنّ المسلمين في هذه الفترة كانوا يواجمون أعتى الهجمات الصليبية، فرأى الشاعر أن يسهم بشعره في نصرة الدين وتدمير الأعداء، إذ إنّ الشعر في نظره لا يقلّ عن دور السيف في الجهاد ورد هجمات النّصارى وبمدحه أيضا تجلو النّجوم من الدّياجي المظلمة.

إنّ هذا التصريح المباشر بغرض القصيدة يُسمّى "البتر" وهو أن يذكر الشاعر موضوع القصيدة منذ الوهلة الأولى، يقول ابن رشيق:" ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم الوثب والبتر والقطع والكسح والاقتضاب"[1]، فمن أمثلته أيضا عند شعراء القرن السابع الهجري، ما نجده عند أبي زيد الفزازي[2]:

تَعَـــالَوْا فَعِنْدِي لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ   مَدِيحٌ كَأَزْهَـارِ الخَمَائِلِ طَلَّتِ

وقوله[3]:

خُذُوا فِي امْتِدَاحِ الهَـاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ   عَجَائِبُ لاَ تَنْفَكُّ تَنْمَى وتَرْسَـخُ

وقوله أيضا[4]:

هَبُـوا لِي أَسْمَاعَ القُلُوبِ أُفِـدْكُمْ   مَـدَائِحَ فِيهَا لِلنُّهَى مُـــتَنَزَّهُ

إنّ الدّارس لقصائد المولديات في القرن السابع الهجري، يجد بداياتها تتشكل في صور وألوان متعددة، فقد يبدأ الشعراء مولدياتهم بالإقرار بأنّ فضائل النّبي صلى الله عليه وسلم

1- العمدة، ابن رشيق، ج1، ص:23.
2- ديوان الوسائل المتقبلة، أبو زيد الفزازي، ص:14.
3- المصدر نفسه، ص:36.
4- المصدر نفسه، ص:132.

لا يمكن حصرها وقد يبدؤونها بالحديث عن المعجزات أو بذكر بعض الأماكن المقدسة التي شهدت مولد النّبي عليه الصلاة والسلام ومبعثه، وضمّت جسده الشريف بعد موته، وكلّ هذه المقدمات على اختلاف مضامينها تُلائم غرض المديح النّبوي لأنّها في مجملها تُهيء القارئ لسماع الغرض الأساس وتضعه في جو القصيدة المولدية من أوّل بيت فيها[1].

ب- التخلّص:

التخلص طريقة فنية دأب عليها الشعراء منذ القدم، وهو أن "يُحسن الشاعر الخروج من الموضوع السابق والدخول في الموضوع اللاحق برابط معنوي متين"[2] بهدوء وسلاسة بحيث إنّ القارئ للنص لا يشعر بهذا الانتقال من حديث لآخر، وهذا ما يدل على براعة الشاعر "وقدرته على ربط الوشائج المتينة بين معانيه"[3].

وقد تنبّه لهذا التقليد ابن سنان الخفاجي، فقال: "من صحة النّسق أو النظم وهو أن يستمر المؤلف في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه"[4]. وقد حرص الشعراء كل الحرص على تحسين تخلصاتهم وانتقالاتهم من البدايات إلى الموضوع الرئيس الذي يقصدون إليه، ليكون بين المقدمة والموضوع ارتباط وثيق، وكان هذا رأي النقاد الذين نوّهوا بضرورة عناية الشاعر بالانتقال من مقدمة القصيدة إلى الغرض الأساس الذي نظمت لأجله حتى لا

1- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، موضوعاته ومعانيه، علي إبراهيم كردي، ص:132.

2- القصيدة الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، الظواهر والقضايا والأبنية، عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية العلوم الإسلامية، ليبيا، ط1، 1996م، ج2، ص:164.

3- المرجع نفسه، ص:165.

4- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ/1982م، ص:315.

يشعر المتلقي بالتجزئة أو الانقطاع المفاجئ عند الانتقال حتى لا تتشتت أفكاره وخواطره وأحاسيسه(1).

وشعراء المولديات في القرن السابع الهجري لم يخرجوا عن هذا التقليد، فكثيرا ما خلصوا إلى الموضوع الرئيس المتمثل في مديح النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق ذكر الرحلة ممّا ينتج نوعا من الأحاسيس والمشاعر الدرامية التي تلوّن مقاطع الرحلة بألوان من الحزن والأسى نتيجة الفراق، إذ كثيرا ما يقف الشاعر ممن رحلوا موقف المتحسر الباكي على فراقهم وبعادهم عنه، يتابع مسيرتهم ويتخيل معالم طريقهم فكلّما ابتعدوا عنه كلّما ازداد تحسرا وألما وحزنا على ذهابهم وغيابهم(2)، فكان الحديث عن ركب الحجيج مضمونا من مضامين التخلص، يقول محمد بن الحسين بن ميمون القلعي البجائي(3):

وَمَـا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ جِسْـمَكَ مُنْجِدٌ وَقَلْبَكَ مَعَ مَنْ سَارَ فِي الرَّكْبِ مُتْهِمُ

وَمَا ضَرَّهُمْ لَوْ وَدَّعُوا يَوْمَ أَوْدَعُوا فُــؤَادِي بِتِـذْكَارِ الصَّـبَابَةِ يَضْـرِمُ

وَإِنِّي لَأَدْعُــو اللهَ دَعْــوَةَ مُـذْنِبٍ عَـسَى أَنْظُرُ البَيْتَ العَـتِيقَ وَأَلْـثُمُ*

فَيَا طُـولَ شَـوْقِي لِلنَّبِيِّ وَصَحْبِهِ وَيـَا شَـدَّ مَا يَلْـقَى الفُـؤَادُ وَيَكْـتُمُ

لا يُخفي الشاعر في تخلّصه هذا صبابته بأصحابه الذين فارق ركبهم العظيم إلى الحج وزيارة البقاع المقدسة، فمشاعره حزينة على هذا البين لدرجة أنّه صوّر نفسه قد أنجد بجسمه مع من سار إلى نجد وفارق قلبه متهما مع من يريدون تهامة إلى مكة والمدينة، وهو يتحسر على رفاقه الذين ستكتحل عيونهم بنور هذه البقاع المقدسة ولم يودعوه يوم رحيلهم

1- ينظر المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، عبد القدر البار، ص:77-178.

2- ينظر شعر أبي مدين شعيب التلمساني، الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص:85.

3- عنوان الدراية، الغبريني، ص:70.

*ألثم: لثمه على خده قبَّله، معجم الرائد، مادة(لثم)،ص:658.

إذ أودعوا في قلبه نار الصبابة مضطرمة ملتهبة، ورغم هذا الحزن والألم الممزوج بالحسرة إلاّ أنّه يعود فيلتجأ إلى الله عزّ وجلّ داعيا إيّاه دعوة مذنب أن يتيح لنظره الاكتحال بنور البيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود كما قبّله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ثمّ يبرز شدة شوقه للنّبي صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم وما يلقاه فؤاده من هذا الشوق ويكتمه.

وبالمعاني نفسها نجد الشاعر أبا بكر السلاوي يتخلص بقوله:

أَوْدَعُونِي حُرَقًا إِذْ وَدَّعُوا غَادَرُوا القَلْبَ بِهَا مُشْتَعِلاَ

آهٍ مِنْ جِسْمٍ غَدَا مُسْتَوْطِنًا وَفُؤَادٍ قَدْ غَدَا مُرْتَحِلاَ

شُعْبَةٌ شَرْقًا وأخرى مَغْرِبَا مَنْ لِهَذَيْنِ بِأَنْ يَشْتَمِلاَ

وهذا أبو بكر محمد بن سيّد الناس اليعمري الإشبيلي، يقول(1):

أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالمُنَى وَتَصُدُّنِي ذُنُوبٌ لَهَا عِنْدَ الفِرَاقِ مَصَاغُ

إِذَا مَا أَجَلْتُ الدَّهْرَ فِيهِ فَكَيْفَ لِي يَسُوغُ شَرَابٌ أَوْ يَلَذُّ مَسَاغُ

عَسَى تَوْبَةٌ قَبْلَ المَمَاتِ وَزُورَةٍ فَيَنْضَحُ مِنْ شَيْنِ الذُّنُوبِ رَدَاغُ

وَأَلْقَى شُيُوخًا يُؤْنِسُ المَرْءُ مِنْهُمْ أَحَادِيثَ صِدْقٍ تُجْتَلَى وَتُصَاغُ

إنّ المتأمّل في قصائد المولديات يجد مضامين التخلّص فيها لا تكاد تخرج غالبا عن ذكر الحجاز والتشوق إليه والحديث عن ركب الحجيج وذكر الشيب والشباب والتضرّع إلى الله عزّ وجل لغفران الذنوب والزلّات، فيبدو أنّ الشعراء قد وظّفوا فيه تجربتهم الشعورية، لذا

1- عنوان الدراية، ص: 295.

علّل النّقاد التخلّص تعليلا نفسيا رابطين فيه طبيعة النفس الإنسانية وإثارة نفوذها إذ تباينت الأغراض والأجزاء داخل النص الشعري وسيقت بلا رابط انتقالي يجمع بينها ويلائم بين أطرافها في ترفق وهدوء لأنّ النّفس البشرية إذا ألفت الشيء واستسهلته وتناغمت مع حركته يصعب نقلها إلى شيء آخر للتغيير المفاجيء للجوّ النفسي الجديد(1).

ج- الغرض الأساس:

يُعدّ الغرض الأساس هو المحور الرئيس الذي من أجله قيلت القصيدة المولدية ألا وهو المدح النبوي، وشعراء المولديات في المغرب الإسلامي في هذه الحقبة قد ركّزوا في بناء قصائدهم على نقاط أساسية ومهمة في مدح النبّي صلى الله عليه وسلم والإشادة بمولده من خلال التطرق لأوصافه وفضائله وذكر مناقبه وعلو مكانته، وتعداد معجزاته، فمن أمثلة ذلك ما نجده عند أبي زيد الفزازي إذ يقول(2):

حَكَى الشَّمْسَ وَالإِشْرَاقَ وَالنَّجْمَ فِي الهُدَى   وَبَدْرَ الدُّجَى فِي الحُسْنِ وَالمِسْكَ فِي النَّفْحِ

يمدح الشاعر النّبي صلى الله عليه وسلم بالجمال مشبها هدايته بالشمس والإشراق والنّجم، ومماثلا بين حسنه وحسن البدر في تمامه، فهو أطيب من المسك ريحا.

وقوله أيضا(3):

ذُرَا مَجْدِهِ فَاتَتْ ذُرَا النَّاسِ كُلِّهِم   كَأَنَّ خُطَاهُمْ عَنْ مَدَاهُ تُؤْخَذُ

ويمدح في هذا البيت النّبي صلى الله عليه وسلم بالمجد والرفعة فهو ذو مجد عال لا يساويه أحد من البشر، وقوله أيضا(4):

1- ينظر قصيدة المديح الأندلسي: اشرف محمود نجا، ص: 173.
2- ديوان الرسائل المتقبلة: الفزازي، ص:31.
3- المصدر نفسه، ص: 48.
4- المصدر نفسه، ص: 36.

خِـزَانَةُ إِلْهَـامٍ وَمَعْـدِنُ حِكْمَـــةٍ   وَبَحْـرُ عُلُـومٍ بِالهِـدَايَةِ يَنْضَـــحُ*

وعن مكانة النّبي صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء يقول[1]:

خَطِيبٌ لِرُسُلِ اللهِ فِي الحَشْـرِ سَـيِّدٌ   تَتِيهُ بِهِ الدُّنْـيَا وَأُخْـرَى وَبَرْزَخُ

خِـــتَامُ نِـظَامٍ لاَ نُـبُــوَّةَ بَعْـــدَهُ   بِشِرْعَـتِهِ كُلُّ الشَّـرَائِعِ تُنْسَخُ

فالشاعر في هذين البيتين يمدحه ببيان مكانته العالية بين الأنبياء، فهو خطيبهم يوم القيامة وهو خاتم الأنبياء لا نبيّ بعده، لقوله صلى الله عليه وسلم:**"(...وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي)"**. وقد جاءت رسالته ناسخة للرسالات السابقة، فمن هذا الوصف نلمس إجلالا وإكبارا للنّبي صلى الله عليه وسلم، كما نلمس عاطفة دينية جياشة لا زيف فيها ولا تصنّع.

وهذا محمد بن الحسن بن ميمون القلعي البجائي يقول في ذكر فضله ومناقبه[2]:

لِكُلِّ نَـــبِيٍّ دَعْـوَةٌ مُسْـتَجَابَةٌ   وَسَـيِّدُهُمْ طُـرًّا خَـبَاهَا لِأُمَّتِهِ

إِلَى يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْ المَرْءِ مَنْطِقٌ   فَصِيحٌ وَلاَ يُـدْلِي البَلِـيغُ بِحُجَّتِهِ

وَيَوْمَ يَفِـرُّ المَـرْءُ مِنْ وَلَـدٍ لَـهُ   حَـبِيبٌ وَلاَ يَـجْـزِي أَبٌ بِأُبُـوَّتِهِ

وَكُلُّ نَبِيٍّ يَسْــــأَلُ اللهَ نَـفْسَهُ   وَيَضْرِبُ صَفْحًا عَنْ سُؤَالٍ لِأُمَّتِهِ

خَـلاَ شَـافِعٍ فِـينَا كَـرِيمٍ مُـشَـفَّعٍ   بِـهِ يَشْمَـلُ اللهُ العِبَـادَ بِرَحْمَـتِهِ

*المعدن: موضع الإقامة، ينضح: يرش ذلك البحر بالهداية.

1- ديوان الرسائل المتقبلة، ص:37.

2- عنوان الدراية، ص:112.

يمدح الشاعر النّبي صلى الله عليه وسلم بذكر شفاعته في أمّته حيث يقول إنّ لكلّ نبي دعوة مستجابة وسيد الأنبياء جميعا خبّأ دعوته لأمّته ليوم القيامة، فالله عزّ وجل سوف يُشفّعه بإذنه تعالى في عباده، لقوله تعالى:﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾[البقرة:255]، وقد ورد عن النّبي صلى الله عليه وسلم قوله: **"(لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا فَيُسْتَجَابُ لَهُ فَيُؤْتَاهَا، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)"**[1]. وقد ذكر الشاعر أهوال ذلك اليوم العظيم ليُبيّن فضل النّبي الكريم صلى الله عليه وسلم، إنّه يوم الصّاخة التي تصخ الآذان وتصمّها، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما، قال الله تعالى﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس:37/34]، ففي ذلك اليوم حتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أممهم إلاّ سيد ولد آدم رسول الأمّة الإسلامية يدعو الله متشفعا لأفرادها في يوم المحشر الرهيب، ويقبل الله عزّ وجل شفاعته ويشمل بها العباد برحمته سبحانه وتعالى.

ويجمع أبو زيد الفزازي بين خصلتي الحلم والجود في مدحه عليه الصلاة والسلام فيقول[2]:

حَلِيمٌ إِذَا طَاشَـتْ يَدُ الطَّـوْدِ خِفَّةً ... جَوَادٌ إِذَا ضَنَّتْ يَدُ الـمُزْنِ بِالسَّفْحِ[3]

حَـيِيٌّ مِنَ السُّـؤَّالِ مُنْهَمِلُ النَّـدَى ... عَـفُـوٌّ عَنْ الجُـهَّالِ مُـتَّصِلَ الصَّفحِ

يُعدد الشاعر في هذين البيتين مجموعة من الصفات الحسنة والأخلاق الرفيعة في النّبي عليه الصلاة والسلام، كالحلم والكرم والحياء والعفو عند المقدرة، وكل تلك الصفات قد

1- صحيح مسلم، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، رقم [339](199)، ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى للنشر والطبع والتوزيع، ط1، 1434هـ/2012م، ص:76.

2- ديوان الوسائل المتقبلة، ص:30-31.

3- الطود: الجبل والمراد هنا الرجل الثابت في الحلم، والمزن: السّحاب، وسفح الدمع: سكبه وأراقه/ ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، ص:135.

ذكرت في سيرته الشريفة، ومدحه الله عزّ وجل فقال﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[القلم:04]، لذا لما سئلت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: **"(فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ)"**[1]. يعني أنّه كان يتأدب بآدابه ويتخلّق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمّه القرآن كان فيه سخطه[2].

ومن العناصر الأساسية والمهمّة في بناء القصيدة المولدية والتي يتضمّنها الغرض الرئيس وتأتي بعد مدح النّبي صلى الله عليه وسلم وذكر صفاته، تعداد معجزاته، والمعجزة "هي الأمر الخارق للعادة المقرونة بالتحدي الدال على صدق الأنبياء عليهم السلام، وسمّيت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها"[3]، فالمعجزة مظهر من مظاهر النبوة خصصها الله عزّ وجل لأنبيائه ورسله لتكون دليلا على صحة نبوتهم ورسالتهم التي بعثوا من أجلها إلى الأقوام وهي توحيد الله تعالى، ومن أهم معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم، كلام الله ذو الأمر العظيم والحكم القويم، من اتّبعه وعمل به عزّ ومن تركه ذلّ، تحدى الله به العرب فعجزوا أن يأتوا بمثله، قال تعالى﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة:23]،.

وشعراء المولديات في هذه الحقبة ذكروا معجزة القرآن الكريم واسترسلوا في ذكر معجزات أخرى، يقول ابن خبازة[4]:

1- مسلم، رقم 746، البخاري في الأدب المفرد، 308.

2- ينظر جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: عبد الرحمن أبو الفرج بن رجب الحنبلي، تح: ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، 1429ه/2008م، ط1، ص:353.

3- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: أحمد بن محمد القسطلاني، تح: صالح أحمد الشامي،المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1425ه-2004م، ج2، ص:495.

4- أزهار الرياض، ج2، ص:391.

وَآيَاتُهُ جَلَّتْ عَنْ العَدِّ كَثْرَةً ... فَمَا تَبْلُغُ الأَقْوَالُ مِنْهَا تَنَاهِيَا

وَأَعْظَمُهَا الوَحْيُ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ ... فَبَلَّغَ عَنْهُ آمِرًا فِيهِ نَاهِيَا

تَحَدَّى بِهِ أَهْلَ البَيَانِ بِأَسْرِهِمْ ... فَكُلُّهُمْ أَلْفَاهُ بِالعَجْزِ وَانِيَا

وَجَاءَ بِهِ وَحْيًا صَرِيحًا يَزِيدُهُ ... مُرُورُ اللَّيَالِي جِدَّةً وَتَعَالِيَا

تَضَمَّنَ أَحْكَامَ الوُجُودِ بِأَسْرِهَا ... وَحُكْمُ القَضَاءِ مُثْبَتًا فِيهِ نَافِيَا

وَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... يُرَى مَاضِيًا أَوْ مَا يُرَى بَعْدُ آتِيَا

يذكر الشاعر أنّ معجزات النّبي عليه الصلاة والسلام أكثر من أن تعد وتحصى، وأنّ الأقوال مهما كثرت لا تستطيع أن تحيط بها، وأعظمها القرآن الكريم المعجزة الكبرى التي خصّه الله تعالى بها والتي ليس لها مثال سابق ولا مثال لاحق، وإنّه ليحمل أوامر الله ونواهيه، وبه تحدى النّبي الكريم جهابذة الفصاحة وأساطين البيان من العرب، قال الله تعالى ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء:88]، فكلّهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يماثله فبلاغته تأخذ بالألباب وقد تضمّن أحكام الوجود جميعها، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا وأخبر الله تعالى فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلية.

لم يكتف شعراء المولديات بذكر معجزة القرآن الكريم وحدها وإنّما انتقلوا إلى تعداد معجزات عديدة حدثت قبل ولادته وبعدها، يقول ابن خبازة ذاكرا الرؤيا التي كانت تراها أمّه آمنة وهي حامل به، وذاكرا إحاطة الملائكة به يوم مولده(1):

رَأَتْ فِي مَعَالِيهِ مَرَائِيَ جَمَّةٍ ... فَصَدَّقَتْ الآثَارُ مِنْهُ المَرَائِيَا

1- المصدر السابق،أزهار الرياض، ج2، ص:86.

وَحَفَّتْ بِهِ الأَمْلاَكُ فِي حِينِ وَضْعِهِ   بِلَيْـــلَةِ إِفْضَـالٍ تُزَيِّنُ اللَّـيَالِيَا

وَنَادَى مُنَادِي العِزِّ طَوِّفُوا بِأَحْمَدَ   جِهَاتِ الدُّنَى طُرًّا وَعُمُّوا النَّوَاحِيَا

ويستمر الشاعر في عرض معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول[1]:

وَإِيوَانُ كِسْرَى اِرْتَجَّ لَيْلَةَ وَضْعِهِ   وَبَاتَ عَلَيْهِ قَصْـرُهُ مُتَدَاعِيَا

وَزَادَ بِرُؤْيَا المُوبَذَانِ* اِرْتِيَاعُـهُ   فَأَذْهَـلَهُ أَنْ يَسْتَبِينَ المَسَـاعِيَا

فَنَصَّا عَلَى إِرْسَالِ أَحْمَدَ مُثَبِّتًا   لِدِينِ الهُدَى بِالرُّغْمِ لِلكُفْرِ مَاحِيَا

وَأُخْمِدَتْ النِّيرَانُ نِيـرَانُ فَارِسٍ   وَكَانَتْ تَلَـظَّى أَلْفَ عَامٍ تَـوَالِيَا

يذكر الشاعر في هذه الأبيات بعض معجزات ليلة مولده والتي تُعدّ من دلائل نبوته، فلمّا كانت ليلة مولده ارتجّ إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها"[2]. ثمّ يذكر الشاعر معجزة الإسراء والمعراج التي لا تكاد تخلو قصيدة مولدية من ذكرها، فيقول[3]:

وَكَانَ رَآهُ اللهُ أَكْـــــــرَمَ خَلْقِهِ   فَأَرْسَلَهُ بِالحَـقِّ لِلخَـلْقِ هَـادِيَا

وَأَسْرَى بِهِ لَيْلاً إِلَى حَضْرَةِ العُلاَ   فَمَا زَال فِيـهَا لِلحَبِيبِ مُنَاجِـيَا

وَسَارَ عَلَى ظَهْرِ البُرَاقِ كَـرَامَةً   لَهُ رَاكِبًا إِذَا سَارَ جِبْرِيلُ مَـاشِيَا

1- المصدر السّابق أزهار الرياض، ج2، ص:387.

*الموبذان: اسم لحاكم المجوس كرئيس القضاة عند المسلمين. المصدر نفسه.

2- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثّق أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-1988م، ج1، ص:126-127.

3- أزهار الرياض، ج2، ص:389.

هذا النّبي الكريم أرسله الله عزّ وجلّ هاديا للخلق أجمعين وداعيا إليه بإذنه، قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًاوَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾[الأحزاب:45-46]، وكرّمه بأن عرج به إلى السّماء وصار إلى العرش وكلّمه الله تبارك وتعالى ودخل الجنة واطلع إلى النّار ورأى الملائكة، ونشرت له الأنبياء ورأى سرادقات العرش والكرسي وجميع ما في السماوات وما في الأرضين في اليقظة، حمله جبريل على البراق حتى أداره في السماوات وفرضت عليه الصلاة في تلك الليلة، ورجع إلى مكة في الليلة نفسها وذلك قبل الهجرة[1].

وذكر ابن خبازة حادثة شقّ الصدر، فقال[2]:

وَفِي حَيّـهَا وَافَاهُ جِبْرِيلُ قَاصِدًا وَأَقْـبَـلَ مِيـكَائِيـــلُ بالأمــر تَالِـيَا

فَشَقَّا بِهِ صَدْرَ النَّبِيِّ لِشَرْحِهِ فَكَانَ لِـمَـا يُلْـــقِي لَـهُ اللهُ وَاعِـيَا

وَرَدَّاهُ فِي الحِينِ اِلْتِئَامًا فَمَا تَرَى سِــوَى أَثَـرٍ مَـا زَالَ لِلشَّــرْحِ بَاقِـيَا

وَجَاءَ بِمِنْدِيلٍ وَطَسْتٍ لِيَغْسِلاَ بِمَـاءِ الـرِّضَا قَلْـبًا عَنِ اللهِ رَاضِـيَا

وَعَادَ أَخُـوهُ جَـازِعًا مُـخْبِرًا بِـمَـا جَرَى مِنْ مَخُوفٍ كَانَ لِلأَمْرِ جَارِيَا

فَسَارَتْ بِهِ مِنْ حِينِهِ نَحْوَ أُمِّـهِ تَـخَـاُف عَلَـيْـهِ إِنْ أَقَـامَ العَـــوَادِيَا

إنّ الشاعر في هذه الأبيات يذكر معجزة شقّ الصدر التي وقعت للنّبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير، ابن عشر سنين، حيث شرح صدره وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة الشرح، فقال تعالى ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾[الشرح:01]، فمن الآية يتبيّن أنّ الله عزّ

1- ينظر شرح السنة، أبو محمد الحسين بن خلف البربهاري، ص:81.

2- أزهار الرياض، ج2، ص: 388.

وجل شرح صدر النّبي عليه الصلاة والسلام وفتحه للإسلام فملئ حكمة وعلما، وابتداء الآية الكريمة باستفهام "معناه إنكار نفي الانشراح مبالغة في إثباته ولذلك عطف عليه"[1].

وقد وردت عدة أحاديث تثبت هذه الحادثة، ففي صحيح مسلم **(عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ القَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ**[*]**، فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ المِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ)"**[2]. وفي سنن الترمذي عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رجل من قومه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَاليَقْظَانِ إِذْ سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ: أَحَدُ الثَّلاَثَةِ فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا مَاءُ زَمْزَمَ فَشَرَحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا، قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ: مَا يَعْنِي؟ قَالَ: إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِي. قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَغَسَلَ قَلْبِي بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً)"**[3]. وهذه الحادثة لم تكن لمرة واحدة فحسب، بل تكررت عدة مرات وقد تجاوز عليه الصلاة والسلام الخمسين من عمره[4]، فهي معجزة من معجزاته ودليل من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، ذكرها شعراء المولديات في هذه الحقبة.

1- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد بن محمد الشيرازي البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418ه، ج5، ص:321.

*الظئر: المرضع، لسان العرب، مادة ظأر، ج4، ص514. والمراد بها هنا حليمة السعدية مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

2- صحيح مسلم، رقم 162.

3- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البرذوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384ه/1964م، ج20، ص:104.

4- ينظر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ج1، ص:136.

وبعد حادثة شقّ الصدر يسترسل ابن خبازة في ذكر معجزات أخرى، فيقول[1]:

وَآيَتُهُ فِي خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ ... وَفِي الشَّاةِ إِذْ لَمْ تبق تصحب راعيا

وَفِي الذِّئْبِ إِذْ أَقْعَى وَأَخْبَرَ مُفْصِحًا ... عَنْ المُصْطَفَى وَالذِّئْبُ مَا زَالَ عَاوِيَا

وَفِي الضَّبِّ لَمَّا أَنْ دَعَاهُ أَجَابَهُ ... وَقَالَ لَهُ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَا

يذكر الشاعر في هذه الأبيات معجزات ثلاث كانت من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، أوّلها معجزة شاة أم معبد، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا هاجر ومعه أبو بكر رضي الله عنه وعامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، فمرّوا على أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فسألوا تمرا ولحما ليشتروه، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك...، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة، فقال ما هذه الشاة يا أمّ معبد، قالت خلفها الجهد عن الغنم، قال فهل بها من لبن، قالت هي أجهد من ذلك ثم استأذن في حلبها، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمّى الله عزّ وجل ودعا لها في شاتها، فتفاجت ودرّت، ودعا بإناء يربض الرهط، فحلب فيها ثجا حتى علاه البهاء ثمّ سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم صلى الله عليه وسلم ثمّ أراضوا ثمّ حلب فيها ثانيا بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثمّ بايعها وارتحلوا عنها..."[2].

ويذكر الشاعر معجزة حديث الذئب للراعي، فقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخذري قال "(**عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ فَأَخَذَهَا فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ، فَأَقْعَى الذِّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ يُكَلِّمُنِي كَلاَمَ الإِنْسِ، فَقَالَ الذِّئْبُ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ**

1- أزهار الرياض، ج2، ص:390.

2- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، رقم:3605، ج4، ص:48-49.

وَسَلَّمَ بِيَثْرِبَ، يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، قَالَ: فَأَقْبَلَ الرَّاعِي يَسُوقُ غَنَمَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةِ، فَزَوَاهَا إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنُودِيَ بِالصَّلاَةِ جَامِعَةً، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ لِلرَّاعِي: أَخْبِرْهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ)"[1].

ومن معجزاته الله صلى الله عليه وسلم حنين الجذع وانشقاق القمر، يقول ابن خبازة[2]:

وَآيَتُهُ إِذْ فَارَقَ الجِذْعَ فَضْلَهُ ... فَحَنَّ إِلَيْهِ الجِذْعُ فِي الحَالِ شَاكِيَا

وَإِنَّ انْشِقَاقَ البَدْرِ أَعْظَمُ آيَةٍ ... تَرُدُّ عَلَى مَنْ كَانَ لِلدِّينِ زَاوِيَا

بدأ الشاعر في هذين البيتين بذكر معجزة حنين الجذع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل، فكان النّبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم على جذع منها، فلمّا صنع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العِشار، حتى جاء النّبي صلى الله عليه وسلم، فوضع يده عليها فسكنت"[3]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما **:"(كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا اتَّخَذَ الِمنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ)"**[4]. قال ابن حجر في الفتح:" وقد نقل ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن أبيه عن عمر وابن سواد عن الشافعي، قال:" ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمدا، فقلت أعطى الله عيسى إحياء الموتى، قال: أعطى محمدا حنين الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر

1- ابن حبان (2109)، الحاكم مفرقا (4/ 467-468).

2- أزهار الرياض، ج2، ص:390.

3- البخاري، ج4، ص:515، رقم 3581.

4- المصدر نفسه، ج4، ص:515، رقم 3581.

من ذلك"[1]. وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا حدّث بكى، وقال: "يا عباد الله الخشبة تحنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا إليه لمكانه، فإنّه أحق أن تشتاقوا إلى لقائه"[2]. وهذا دليل على أنّ الله عزّ وجل خلق في الجذع حياة وعلما حتى صوّت واشتاق، وقد عامله رسول الله صلى الله عليه وسلم معاملة الحيّ فالتزمه كما يلتزم الغائب أهله وأعزّته[3]، إنّ هذه النّبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي حنّ واشتاق إليه الجماد، نحن اليوم أولى بالاشتياق إليه ومحبته، وإنّما تكون محبته باتباع سنّته الشريفة وشريعته الغرّاء.

وذكر الشاعر أيضا معجزة أخرى ظهرت في حياة النّبي صلى الله عليه وسلم، وهي معجزة انشقاق القمر، فقد ذكرها الله عزّ وجل في كتابه الكريم، فقال﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[القمر:01]، وقد روى البخاري في صحيحه (**أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ القَمَرَ شِقَّيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا**)"[4]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (**انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَقَتَيْنِ فَلَقَةٌ وَرَاءَ الجَبَلِ وَفَلَقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْهَدُوا**)"[5].إنّ معجزة انشقاق القمر أظهرها الله عزّ وجلّ لقريش وأهل مكة حتى تكون برهانا على

1- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المكتبة السلفية، د.ط، د.ت، ج6، ص:603.

2- معجزات النبي المختار من صحيح الأخبار: ابن خليفة علوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـ-1991م، ص:101.

3- ينظر المرجع نفسه، ص:101.

4- البخاري، ج7، ص:125، رقم3857.

5- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، لبنان، مصر، ط1، 1435هـ/2014م، ج7، ص:190، رقم 2903.

صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وردا على من كان مشككا في رسالته ورازيا لدينه عليه الصلاة والسلام.

وذكر الشاعر في مولديته معجزة نبع الماء من بين أصابعه الشريفة فقال[1]:

وَفِي قِصَّةِ الزَّوْرَاءِ لِلخَلْـقِ آيَةٌ   وِذِكْرى لِعَبْدٍ كَانَ لِلذِّكْـرِ نَاسِـيَا

دَعَـا بِإِنَـاءٍ لَيْسَ يَنْقَعُ مَاؤُهُ   لِقِلَّتِـهِ بِالرِّيِّ مَنْ كَانَ صَـادِيَا

فَفَاضَ نَمِـيرُ المَـاءِ بَيْنَ بَنَانِهِ   وَكَانَ وَضُـوءًا لِلكَـتِيبَةِ كَافِـيَا

وَرَكْوَتُهُ يَـوْمَ الحُدَيْبِيَة الَّتِي   أَفَاضَ اللهُ بِهَا البَنَـانَ سَوَاقِـيَا

يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن معجزة خروج الماء من أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن جابر رضي الله عنهما، قال:**"(عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ مَا لَكُمْ؟ قَالُوا لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَ لاَ نَشْرَبُ إِلاَّ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَ تَوَضَّأْنَا، قُلْتُ : كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِئَةَ أَلف لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مئة)"**[2]. ولا شك أنّ هذه المعجزة عظيمة خصّ بها الله عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وسلم، فقد نقل ابن عبد البرّ عن المزني أنّه قال:" نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأنّ خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم". وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المعجزة حدثت عدة مرات قال القرطبي: "قضية نبع الماء من أصابعه صلى الله عليه وسلم تكررت في عدة مواطن في مشاهد

1- أزهار الرياض، ج2، ص:390.

2- البخاري، ج4، ص508-509، رقم 3572.

عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي. قال ابن حجر"... ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا صلى الله عليه وسلم"[1].

د- خاتمة قصيدة المديح النبوي:

الخاتمة هي آخر ما ينتهي إليه الشاعر في قصيدته، وهي آخر مقطع وآخر ما يطبع السمع، "وهي ما يسوقه الشاعر من عبارات تنبّه على تمام النّص وتشعر بالخروج منه"[2]. فهي آخر ما يطرق أذهان السامعين إذ نالت من عناية النّقاد ما يكاد يشابه عنايتهم واهتمامهم بالافتتاح، فعدوها قاعدة القصيدة وألحو في تحسينها، يقول ابن رشيق: "أمّا الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أوّل الشعر مفتاحا له، وجب أن يكون الآخر قفلا عليه"[3].

وأمّا حازم القرطاجني فاشترط فيها مجموعة من الشروط لخصها في قوله: "وأمّا الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح، وبمعان مؤسسة فيما قصد به التعازي والرثاء، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه، وينبغي أن يكون اللّفظ فيه مستعذبا والتأليف جزلا متناسبا، فإنّ النّفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه، غير مشتغلة باستئناف شيء آخر"[4].

إنّ شعراء المولديات في المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، قد التزموا بهذه الشروط ولم يخرجوا عنها، فجاءت خواتم قصائدهم النّبوية ذات أشكال متنوعة، واختاروا

1- فتح الباري، ج6، ص:677، كتاب المناقب.

2- القصيدة الأندلسية في القرن الثامن الهجري، عبد الحميد عبد الله الهرامة، ص:176.

3- العمدة، ابن رشيق، ج1، ص:239.

4- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسين حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص:306.

لها ما يناسبها من الأساليب، فألبسوها حللا بيانية أضفت عليها قيما جمالية، فمن الشعراء من ضمّنها طلب الشفاعة من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم والتشوق إلى رؤياه، ومنهم من ضمّنها الحديث عن يوم القيامة وأهواله، ولكن غالبا ما تُخصص للصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم.يقول أبو زيد الفزازي(1):

أُعِدُّ لِأَهْــوَالِ القِيَامَةِ حُبَّهُ   وَحَسْبِي فَلِي مِنْهُ مَلاَذٌ وَمَلْجَأُ

أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالوِصَالِ وَرُبَّمَا   تَشَكَّى الفَتَى أَدْوَاءَهُ وَهْيَ تَبْـرَأُ

ومن الذين أنهَوها بالصّلاة والسّلام على النّبي الكريم صلى الله عليه وسلم نجد ابن خبازة(2):

عَلَيْهِ سَـلاَمُ اللهِ لاَ زَالَ رَائِـحًا   عَـلَيْهِ مَدَى الأَيَّامِ مِـنَّا وَغَـادِيَا

إنّ الصلاة والسلام على النّبي صلى الله عليه وسلم مطلب عظيم، وشرف رفيع من وفق إليه فقد وُفق لفضل كبير ونال الأجر والثواب العظيم، لما ورد من نصوص تثبت ذلك، قال الله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[الأحزاب:56]، في معنى الصلاة في الآية الكريمة قال ابن كثير رحمه الله: قال البخاري رحمه الله: قال أبو العالية رحمه الله تعالى: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وصلاة الملائكة المكرمين: الدعاء. وقال ابن عباس رضي الله عنه: يصلون يبركون، وفي الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم امتثال لأمر الله تعالى، يقول الإمام السّعدي رحمه الله تعالى: "هو اقتداء بالله سبحانه وتعالى وملائكته عليهم الصلاة والسلام وجزاء له صلى الله عليه وسلم على بعض حقوقه عليكم، وتكميلا لإيمانكم،

1- ديوان الرسائل المتقبلة، ص:08-09.

2- أزهار الرياض، ج2، ص:392.

وتعظيما له صلى الله عليه وسلم، ومحبة وإكراما وزيادة في حسناتكم وتكفيرا لسيئاتكم"[1]. والصلاة والسلام وسيلة مباشرة تربطنا به عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: **"(مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ)"**[2]. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصلاة والسلام عليه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"(أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاَةً)"**[3]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول **"(مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا)"**[4]. كما أنّ الصلاة عليه تُعد من علامات الإيمان، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال: **"(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)"**[5]. فالصّلاة عليه واتباع أوامره واجتناب نواهيه تُعد من محبته التي تقربنا إلى العزيز العليم.

إنّ الدارس لقصائد المولديات في القرن السابع الهجري يجدها تتسم بخصائص ومميزات نذكر منها:

اعتماد القصيدة العمودية القائمة على نظام الشطرين ووحدة الروي والقافية واعتماد التّصريع في المطلع الأوّل من القصيدة، إضافة إلى تعدد الأغراض والمواضيع على غرار القصائد العربية القديمة، كما انتهجت البناء نفسه فجاءت مركّبة تبتدئ بمقدمة ثمّ موضوع

1- الموقع الإلكتروني:www.ar.islamway.net، مقال كنوز وأجور الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، حسين أحمد عبد القادر نشر بتاريخ: 2016/12/25،.

2- رواه أبو داود رقم 2041، صححه الألباني في صحيح الجامع 5679.

3- رواه الترمذي رقم 484.

4- مسلم، رقم 384.

5- البخاري رقم 15، مسلم رقم 44.

رئيس ثمّ خاتمة، وهذا ما أفقد المديح النّبوي الوحدة الموضوعية، على الرغم من وجود الاتساق اللغوي على مستوى السطح الظاهري والانسجام على مستوى العمق الدلالي.

ويلاحظ الدارس لقصائد المولديات طولها واستفاضتها، فقد وصلت إلينا من هذا العصر قصيدة ميمون بن خبازة التي بلغ عدد أبياتها خمسين ومئة بيت[1]، ولعلّ هذا عائد إلى خصوبة المعاني التي تتناولها هذه القصائد وتشعّب موضوعاتها، إضافة إلى غنى شخصية الممدوح النّبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكثرة فضائله التي لا تُعدّ ولا تحصى حتى إنّ الشعراء قد صرّحوا بعجزهم عن الإلمام بجميع خصاله وصفاته ومحاسنه رغم اعتمادهم كتب السّيّر والحديث.

ومن ثَمّ يمكن القول إنّ ارتباط قصائد المديح النبوي بليلة المولد النبوي الشريف وإلقائها فيها يُعدّ مظهرا حضاريا عرفته بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة، كون الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كان يشجع على قول الشعر وينعش الساحة الأدبية والثقافية، فكانت هذه القصائد نتاجا فكريا دالا على جانب من جوانب التحضّر في هذا العصر.

ثانيا: وصف الحرب ومعدّاتها

يُعدّ وصف الحرب ومعدّاتها من الموضوعات الشعرية التي شاعت في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، فقد اتّسمت هذه الحقبة بكثرة المعارك والحروب على الصعيدين الداخلي والخارجي للدولة الموحدية بخاصة، فقد كانت الحياة في هذا العصر

1- ينظر أزهار الرياض، المقري، ج2، ص: 384-392.

صراعا متصلا مع الروم وجهادا مستميتا من أجل الدفاع عن أقطار الدولة الموحدية[1]، هذه الأخيرة التي خاضت حروبا عنيفة على جميع الجبهات فكانت لها أيّام وعليها أخرى[2].

ولمّا كان الشعر يمثل صورة أمّة من الأمم باعتباره من أهم جوانب ثقافتها التي تشكل هويتها الحضارية، فقد واكب هذه الحروب والمعارك، فأكثر الشعراء من وصفها حيث كانوا يسيرون في ركاب الخلفاء ويرافقونهم في الغزوات، فسجلوا بشعرهم تلك الوقائع والأحداث وتغنوا بانتصارات المسلمين وأكثروا في ذلك حتى ليُخيّل إلينا أنّهم لم يتركوا لنا غزوة انتصر فيها المسلمون إلا سجلوها[3] كما سجلوا الهزائم، ووصفوا الجنود والأسلحة التي استعملت في المعارك، كما دعوا إلى الجهاد في أواخر هذا القرن نتيجة تهاوي المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى، وكلّ ذلك يُعد مظهرا حضاريا في جانبه العسكري سجّله شعراء هذه الحقبة.

أ- وصف المعارك:

من المقاطع الشعرية التي سجلت هذا المظهر الحضاري ما وجدناه عند أبي الربيع الموحدي، في تصوير معركة بحرية، لا نعرف فيها الفريقين المتحاربين، إذ يقول[4]:

وَزَوَارِقٌ تَحْتَ الظِّلاَلِ حَسِبْتُهَا   حَلَبَاتِ خَيْلٍ تَهْتَدِي بِمُقَدَّمِ[5]

مَرِحَتْ وَمِنْ رَشِّ المَجَادِفِ نَقْعُهَا   مِنْ كُلِّ أَشْهَبَ فِي السِّبَاقِ وَأَدْهَمِ[6]

حَمَلَتْ بِهَا الفِتْيَانُ مِلْءَ عَنَانِهَا   حَمْلَ الكُمَيِّ عَلَى الكُمَيِّ المُعَلَّمِ[7]

1- ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص:82.

2- ينظر الشعر العربي في المغرب في عهد الموحدين، ص:71.

3- ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص:82.

4- ديوان أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحدي، ص:106.

5- حلبات: جمع حلبة: لسباق الخيل/ المقدّم: الذي يتقدم الخيل.

6- النّقع: الغبار المرتفع المنتشر في الجوّ/ الأشهب: الذي خالط بياضه سواده/ الأدهم: الأسود.

7- الكمي: الشجاع المقدم/ المعلم: الفارس الذي يَسِمُ نفسه بسيما الحرب.

فَظَنَنْتُ أَنَّ الحَرْبَ حَرْبُ مُسَالِمٍ لاَ حَــرْبَ مُـضْـطَـغَـنٍ وَلَـمَّا أَعْـلَـمِ[1]

حَتَّى اِنْثَنَتْ عِنْدَ الأَصِيلِ كُمَـاتُـهَا مَـخْضُوبَةً حَلْـقَ الدُّرُوعِ مِـنَ الـدَّمِ

إنّ المتأمّل في هذه المقطوعة يجدها حافلة بالخيال الذي زاد التشبيه من روعته وتبليغ معانيه، فالشاعر يصف فيها الزوارق المتحاربة ويُشبّهها بالخيول المرحة، كما يشبه رذاذ الماء المتطاير من حركة المجاديف بالغبار المرتفع نتيجة حركة سنابك الخيول، كما أضفى على هذه الزوارق صورة لطيفة إذ جعلها تحمل بعضها بعضا، كما يفعل الأبطال الشجعان، وظنّ الشاعر أنّ هذه المعركة دائرة بين فريقين متسالمين لا مضطغنين، إلى أن انتهت هذه المعركة وقت الأصيل فخرج الأبطال المنتصرين وقد خضّبت دروعهم بالدماء، ويبدو من هذه المقطوعة أنّ الشاعر قد عاين هذه المعركة وشاهدها استنادا لقرائن لفظية كقوله (حملت، ظننت أنّ الحرب، حتى انثنت عند الأصيل...) وهذا ما يُفنّد القول بأنّ الشعراء المغاربة كانوا يصفون المعارك على السّماع ولم يكونوا يخوضون المعارك مع الجيوش المحاربة[2]، بخلاف الشعراء الأندلسيين الذين عايشوا أحداث الصراع وشاركوا في بعض المعارك.

وقد كان تصوير المعارك كثيرا ما يُقدّم في شكل تقارير شعرية من القادة إلى الخلفاء على نحو ما فعل الشاعر القائد أبو بكر عبد الله بن وزير الشلبي[*] في إحدى معاركه مع الإفرنج، إذ يقول[3]:

وَلَمَّـا تلاقـينـا جــرى الطعـن بَيْـنَـنَـا فَـمِـنَّا وَمِنْهُمْ طَائِـحُونَ عَـدِيدُ

1- المضطغن: الضغينة الحقد الشديد، معجم الرائد، ص:511.

2- ينظر الشعر العربي بالمغرب، ص:87.

*كان عظيما لا يتردد في مهاجمة أعدائه حتى وصف بالتسرع، توفي سنة 627هـ/ ينظر الحلة السيراء، ج3، ص:296.

3- نفح الطيب، ج4، ص:381.

وَجَـــالَ غِـرَارَ الهِنْـدِ فِيـنَا وَفِيـهِمِ فَمِـنَّا وَمِـنْهُمْ قَـائِمٌ وَحَـصِيدُ[1]

فَلاَ صَـدْرَ إِلاَّ فِيهِ صَـــدْرٌ مُثَقَّفٌ وَحَوْلَ الوَرِيدِ لِلحُسَامِ وُرُودُ

صَبَرْنَا وَلاَ كَهْفَ سِوَى البِيضِ وَالقَنَا كِلاَنَا عَلَى حُرِّ الجِلاَدِ جَلِيدُ[2]

وَلَكِـــنْ شَـــدَدْنَا شِـدَّةً فَتَبَـلَّدُوا وَمَـنْ يَتَبَـلَّدْ لاَ يَـزَالُ يَحِيـدُ

يُصوّر الشاعر القائد لحظة التحام الجيشين في أرض المعركة، ويبدو أنّه كان في ذلك التصوير موضوعيا إذ أخبر بسقوط الكثير من القتلى من كلا الجانبين، غير أنّه لمّح لنصرة جيشه بدءا من البيت الثاني حين قدم لفظة "قائم" بتقديمه لفظة "منّا" في قوله: فمنا ومنهم قائم وحصيد، ففي العبارة اقتباس من قوله تعالى ﴿**ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾[هود:100]، فيبدو من قول الشاعر أنّ من جيشه قائم ثابت لا يتزعزع ومن جيشهم حصيد أي خامد لا يرى له أثر، فقد كان سعي جيش الشاعر حثيثا للإطاحة بأكبر عدد من جيش العدو، فما كان يعصمهم من بعضهم بعضا سوى براعتهم في القتال وشجاعتهم وثباتهم في ساحة المعركة، وفي البيت الأخير يخبر الشاعر أنّ جيشه كان شديدا على العدو ممّا اضطر بالخصم إلى التراجع الأمر الذي حسم المعركة لصالح المسلمين، فمن هذه المقطوعة الحضارية نستدل على قوة جيش المسلمين وقتذاك أمام جيوش الكفر بخلاف ما نحن عليه اليوم. إنّ ممّا يتعلق بوصف المعارك في القرن السابع الهجري وصف انتصارات المسلمين على حساب النّصارى، الذين سعوا إلى استرداد بلادهم من أيدي المسلمين منذ البداية، فأعدّوا لهم ما استطاعوا من القوة التي تدعمها أوربا النصرانية وقد جاءت حروب الاسترداد في هذه الحقبة منظمة تنظيما دقيقا، يستغلون فيها ضعف الخلفاء

1- الهند: يقصد به السيف الهندواني المنسوب إلى الهند/ معجم الرائد، الهندي، ص:845.

2- القنا: القناة: جمع قني وقنوات وقنيات، الرمح/ المصدر نفسه، (القناحة)، ص:647.

تارة، واشتداد اليأس عند الشعب تارة أخرى، ممّا أدى بالمسلمين إلى خوض حروب طاحنة في سبيل الدفاع عن دينهم ووطنهم الإسلامي[1].

وقد كان ضمن الجنود الذين خاضوا معامع القتال فرسان شعراء، وصفوا انتصارات الجيوش كما عبّروا عن فاجعة الانهزامات، فكانوا أشبه بالمصورين يرسمون مشاهد الحرب[2] ببراعة، وقد نبغوا في هذا الوصف نبوغا واضحا، وأضافوا به إلى التّراث الأدبي والحضاري رصيدا ضخما من حقه أن يجعل لهم الفضل على لغة الضاد، بما أحدثوه من تطور لأساليب البيان والتعبير[3].

ولعلّ من أعظم الانتصارات التي حققها المسلمون في هذه الحقبة، انتصار معركة الأرك التي كانت بين الخليفة يعقوب المنصور الموحدي وملك قشتالة ألفونسو الثامن(Alfonso) الذي استنفر جيوش الفرنجة من كل مكان وشيّد حصنا منيعا في مكان يسمى الأرك أين وقعت المعركة واشتد القتال حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر والالتجاء إلى حصن الأرك فأحاط المسلمون بالحصن إحاطة محكمة وأضرموا النّار في أبوابه فاستسلم كل من فيه بعد أن أعطاهم يعقوب المنصور الأمان مقابل الإفراج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين، فكان النصر حليف المسلمين[4]، وكان طبيعيا أن يتغنى الشعراء بهذا النصر المؤزر وأن يشيدوا بالمنصور بطل هذه المعركة الظافرة، ويبدو ممّا يرويه المقّري أنّ الشعر الذي نظم في هذه المناسبة كان كثيرا، فقد جاء الشعراء من كلّ قطر يهنئون المنصور وكانوا لكثرتهم لا يستطيع الشاعر منهم أن يُنشد قصيدته كاملة، بل

1- ينظر شعر الحروب والفتن في الأندلس،رسالة ماجستير، إعداد: رانية أحمد إبراهيم، إشراف: أ.د وائل أبو صالح، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2007م، ص:87.

2- ينظر أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، ج3، ص:59.

3- ينظر تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم أبو الخشب، ط1، 1966م، ص:215-216.

4- تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي: عبد الرحمن حسين العزاوي، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1432ه/2011م، ص:131-132.

كان يختص منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة، وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها[1]، وهذا يدل على مدى مشاركة شعراء الأمة وتسجيلهم لهذا النّصر الإسلامي الكبير الذي يُعدّ مظهرا حضاريا آنذاك.

فمن القصائد التي قيلت في هذه المناسبة ما نجده عند أبي العباس الجراوي إذ يقول[2]:

فَـتْـحٌ مُبِيــنٌ جَـلَّ أَنْ يُتَخَـيَّـلاَ   جَـاءَ الزَّمَـانُ بِهِ أَغَـرَّ مُـحَجَّلاَ

بَـهَرَتْ عَـجَائِبُهُ الخَوَاطِرَ فَاسْتَوَى   مَنْ كَانَ فِيـهَا مُـجْمَلاً وَمُفَصَّلاَ

لاَ يَبْلُغُ البُــــلَـغَاءُ غَـايَةَ وَصْـفِـهِ   إِلاَّ إِذَا بَلَغُـوا السِّمَاكَ الأَعْزَلاَ[*]

يُشيد الشاعر في هذه الأبيات بعظمة هذا الانتصار حتى ليصعب تخيّله، أهداه الله عزّ وجل لعباده المؤمنين حسنا واضحا، ويبدو الشاعر ذا اطلاع ديني من خلال ما ورد من ألفاظ مقتبسة من الحديث النّبوي الشريف، كقوله "**أغرّ محجلا**". فقد روي عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "**(إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَغْزُو فَاشْتَرِ فَرَسًا أَغَرَّ مُحَجَّلاً مُطْلَقَ الْيَمِينِ فَإِنَّكَ تَغْنَمُ وَتَسْلَمُ)**"[3]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**(إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اِسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ)**". متفق عليه واللفظ لمسلم. فالغرّة هي لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس، والمراد هنا بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة، والتحجيل بياض في قوائم الفرس استعير للبياض الحاصل في اليدين والرجلين من أثر الوضوء، والمراد يأتون

1- ينظر نفح الطيب، ج4، ص:172.

2- ديوان الجراوي، ص:94.

*السماك الأعزل: نجم نير وسمي أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذي لا رمح معه، لسان العرب، مادة، (س م ك).

3- مستدرك الحاكم، 2/109، رقم 2459، وقال صحيح على شرط مسلم.

بيض مواضع الوضوء من الأيدي والأقدام[1]. ويشير الشاعر في هذه الأبيات إلى عجز الأدباء عن وصف هذا الانتصار لعظمته وعلو شأنه مشبها إيّاه بانتصار عمورية إذ ضمّن بيته معنى أبي تمام الذي قال[2]:

فَتْحُ الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ   نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٍ مِنَ الخُطَبِ

وممّن أشاد بهذا النصر أيضا الشاعر علي بن حزمون إذ استهل قصيدته بقوله[3]:

حَيَّتْكَ مُعَطَّرَةُ النَّفَسِ   نَفَحَاتُ الفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ

فَذَرِ الكُفَّارَ وَمَأْتَمَهُمْ   إِنَّ الإِسْلَامَ لَفِي عُرُسِ

لقد بدا الشاعر بارعا في نسج مطلع هذه القصيدة مبنى ومعنى إذ ضمّنه بشرة انتصار المسلمين في معركة الأرك، ومشاعر الغبطة والابتهاج بهذا النصر العظيم الذي عدّه الشاعر عرسا للإسلام ومأتما وحزنا للكفار، وقد أشارت الكتب التاريخية إلى ضخامة الحشود الصليبية التي خرجت لملاقاة المسلمين في معركة الأرك، ومشاعر الثّقة التي غمرت الأعداء بسبب كثرة جيوشهم، لدرجة أنّهم جلبوا معهم بعض تجار اليهود لاشتراء أسرى المسلمين[4]، وقد تحدّث عن ذلك ابن حزمون، فقال[5]:

جَاؤُوكَ تَضِيقُ الأَرْضُ بِهِمْ   عَدَدًا لَمْ يُحْصَ وَلَمْ يُقَسِ

1- الموقع الالكتروني: www.alukah.net، مقال الشيخ عبدالقادر شيبة، تاريخ الإضافة 1439/02/08هـ، 2017/10/25م.

2- ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1414هـ/1994م، ج1، ص:35.

3- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص:213.

4- ينظر بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ج1، ص:172.

5- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص:213.

خَـرَجُـوا بَطَـرًا وَرِئَـاءَ الـنَّا سِ لِيَخْتَلِسُـوا مَعْ مُـخْتَلِسِ

لقد صوّر الشاعر جيوش الكفار في أعداد كبيرة يصعب عدها وإحصاؤها، ولكن العبرة ليست بالعدد فقد قال الله تعالى ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة:247]. فجيوش الكفار خرجت مغالية في المرح والزهو ليراهم النّاس على هذه الحال وهم على نقيضه، فكانت النتيجة كثرة قتلى الأعداء، يقول[1]:

فَأَنَاخَ الـمَوْتُ كَلَاكِـلَهُ بِضِبَاكٍ عَلَى بَشَرٍ رِجْسِ

وَتَسَاوَى القَاعُ بِـهَامِهِمْ الرَّبْضِ مَعَ الـحَرْبِ الضِّرْسِ

سُقِيَتْ بِنَجِيعِهِمُـو أُكُمٌ وَطِئُوا مِنْهُنَّ عَلَى دَهْسِ

فَأُولَئِكَ حِزْبُ الكُفْرِ أَلَاَّ إِنَّ الكُفَّـارَ لَـفِي نَكْسِ

فقد نزل الموت على صدورهم بحدّ السيوف، فأجهز على رؤوسهم ولم يفرق بين العاجز منهم وبين المتمرس بالحرب المجرّب لها، حتى سقيت التلال من دماء أجوافهم، فصارت موطئا سهلا ليّنا لا هو بالرمل ولا تراب ولا طين، فكان بذلك أن نكس الكفار على أعقابهم، وذاقوا وبال أمرهم بأن تكاثرت أعداد قتلاهم، ولم يكن الشاعر مبالغا في تصوير العدد الكثير لقتلى الأعداء، فقد قدرت بعض الروايات قتلى الكفار في هذه المعركة بمئة وستة وأربعين ألفا[2]، أمّا الذين نجوا فقد لجأوا إلى الجبال فرارا من المسلمين، ومنهم قائدهم الصليبي الذي ولى هاربا من المعركة، يقول عنه الشاعر[3]:

1- المصدر السابق، ص: 213-214.

2- ينظر الكامل في التاريخ، ج12، ص:115.

3- المعجب، ص:214-215.

إِنْ كَانَ نَــــجَا أَذْفُنْشُـهُمْ   فَـإِلَى عَيْـشٍ نَكِـدٍ تَـعِسِ

فَـمَضَى لَـمْ يَلْوِ عَـلَى أَحَـدٍ   وَرَمَـى بِالـدِّرْعِ وَبِالتُّــرْسِ

إنّ الشاعر ابن حزمون في قصيدته التي اقتطفنا منها هذه الأبيات قد صوّر مشاعر الفرح والابتهاج بالنصر المؤزر الكبير في موقعة الأرك، فجاء وصفه موافقا لما كتبه المؤرخون عن هذه المعركة حين تحدّث عن عظمة النّصر الذي أحرزه جيش المنصور الموحدي، وعن كثافة جيوش الكفار والهيئة التي خرجوا عليها لملاقاة المسلمين، وعن العدد الهائل لكثرة قتلى الأعداء وهروب قائدهم فكانت قصيدته مرآة عاكسة للجانب الحضاري في شقّه العسكري إبّان هذه الحقبة.

إنّ شعراء المغرب الإسلامي لم يكتفوا بتصوير انتصارات المسلمين بل ذكروا إخفاقاتهم وإن كانت أشعار الهزائم تكاد تُعدّ على رؤوس الأصابع، فقد شهد القرن السابع الهجري معارك حملت بوادر انحلال أعظم دولة آنذاك، دولة الموحدين فكانت معركة العقاب التي التقى فيها المسلمون بقيادة الخليفة الناصر بألفونسو ملك قشتالة عند حصن العقاب[*] في يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة 609هـ/1212م[1] بداية النهاية للموحدين[2]، إذ مُني المسلمون بهزيمة نكراء وتشتت قواهم وتفرّقت جموعهم بعد أن قتل من جنودهم أعداد كبيرة، فوصفت الموقعة بالهزيمة العظمى، وبسببها "ضعف المغرب والأندلس، أمّا المغرب

*العِقاب بكسر العين حصن بين جيّان وقلعة رياح، الروض المعطار، مادة (العقاب)، ص:416.

1- أنظر أخبار هذه المعركة في المعجب: ص:399-402/ الحلة السيراء، ج2، ص:273/ التكملة، ج1، ص102/ النفح، ج4، ص383، ج1، ص:446.

2- ينظر المغرب العربي في العصر الإسلامي: عبد الرحمن حسين العزاوي، ص:132.

فبِخَلاء كثير من قُرَاه وأقطاره، وأمّا الأندلس فبطلب العدو عليها"[1]، فمن الشعراء الذين ذكروا هذه النّكبة إبراهيم بن الدبّاغ الإشبيلي:

وَقَائِلَةٍ أَرَاكَ تُطِيلُ فِكْرًا كَأَنَّكَ قَدْ وَقَفْتَ لَدَى الحِسَابِ

فَقُلْتُ لَهَا: أُفَكِّرُ فِي عُقَابٍ غَدَا سَبَبًا لِمَعْرَكَةِ العُقَابِ

فَمَا فِي أَرْضِ أَنْدَلُسَ مُقَامٌ وَقَدْ دَخَلَ البَلاَ مِنْ كُلِّ بَابِ[2]

يقف الشاعر في هذه الأبيات متأمّلا أسباب ونتائج موقعة العقاب التي شغلت تفكيره، وأسرت عقله وأقضّت مضجعه، وقد وجد أنّ هذه المعركة قد فتحت باب البلاء على الأندلس، وأدخلت الوهن عليها، لذلك حذّر المسلمين من الإقامة فيها، فهو لا يرى غير الهرب وسيلة ليقينه بأنّ معركة العقاب هي الضربة القاضية لزوال الدولة الموحدية وبداية انفراط عقد المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى، مبينا أنّ ذلك عقاب على تقصيرهم وإهمالهم أو بسبب ذنوبهم، قال الله تعالى ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾[الشورى:30].

وبعد معركة العقاب وفي سنة 621هـ/1224م، هُزِم المسلمون هزيمة نكراء على مقربة من "طلياطة"[3]، وبعدها بشهرين حلّت بهم هزيمة أخرى مماثلة في شرقي الأندلس بالقرب من "عفص"[4] وفي الوقت نفسه دخل الصليبيون مدينتي "لوشة"[5]

1- نفح الطيب، ج1، ص:446.

2- المصدر نفسه، ج4،ص: 464.

3- طلياطة: بينها وبين إشبيلية ما يقارب عشرين ميلا، الروض المعطار، مادة (طلياطة)، ص:495.

4- عفص: مكان بالقرب من مرسية، المصدر نفسه، مادة (عفص)، ص:415.

5- لوشة: من أقاليم البيرة، المصدر نفسه، مادة (لوشة)، ص:513.

و"قيطاجة"[1]، وفي ظلّ هذه النّكبات سجّل أحد الشعراء المرسيين هذه الحوادث فقال:

بِــوَقْـعَةِ عَـفْـصَ وَطُلْـيَـاطَـةَ تَكَامَـلَ إِقْبَــالُ أَيَّامِـنَا

فَبِالغَرْبِ تِلْكَ وَبِالشَّـرْقِ ذِي أَنَاخَ عَلَى شُـمِّ أَعْلاَمِـنَا

وَفِي وَسَـطِ الأَرْضِ قِيـطَاجَةَ وَلُوشَـةَ خَـفًّا بِأَحْلاَمِـنَا

وَلَيْسَ الصَّلِيـبُ يُـرَى مَانِعًا لِغَيْــرِ تَوَاتُــرِ إِعْـدَامِـنَا

وَسَيِّدُنَا نَاظِــرٌ فِي الجَــوَازِ يَرُومُ النَّجَاةَ بِإِسْلاَمِـنَا[2]

يُعدد الشاعر في هذه المقطوعة مجموعة من الوقائع التي انهزم فيها المسلمون في بلاد الأندلس شرقا وغربا، ويظهر فيها استشعار الخطر المحدق الذي ينذر ببداية تهاوي المدن الأندلسية وسقوطها بيد الإسبان، ويبدو أنّ مشاعر اليأس والقنوط والحسرة المريرة على موقف الخليفة العادل الذي آثر النّجاة بنفسه على نصرة إخوانه المسلمين الذين عانوا الويل والنكال، قد لمسناها بين طيّات هذه الأبيات منبئة عن حجم الفاجعة التي تعرّض لها المسلمون آنذاك.

إنّ قلة أشعار وصف الهزائم في هذه الحقبة، لعلّ مردّه إلى الجانب النفسي للشعراء، إذ من خاض هذا المضمار كان يقع تحت التأثير العاطفي المباشر للنكبة، فالدارس لشعر الحرب يجـد أنّ نصف الميراث الشعري في الهزيمة مُوجّه للنحيب والبكاء والاستـصراخ والنصف الآخر موزع بين رثاء البطولة والمدن[3].

1-قيطاجة: أو قيشاطة مدينة بالأندلس من عمل جيان، الروض المعطار، مادة (قيطاجة)، ص:488.

2- الروض المعطار، الحميري، ص:462.

3- ينظر شعر الحروب والفتن في الأندلس، ص:97.

ب- وصف الأسلحة

تُعدّ الأسلحة مظهرا من مظاهر القوة المادية لدى الجيوش، لذا اهتم الشعراء بوصفها في معرض حديثهم عن المعارك والحروب فالأسلحة التي تردد صداها في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري أسلحة متنوعة، أغلبها: السّيف والرمح والسهام، والنّار الإغريقية إضافة إلى السفن البحرية، فالحديث عن السيف كان بذكر أنواعه وصفاته، يقول أبو حفص بن عمر[1]:

أَخَـــوَانِ إِمَّا حِكْـمَـةٌ أَوْ مُرْهَفٌ   هَذِي يَمَـــانِيَـةٌ وَذَلِكَ يَمَانِي

فالسيف عنده من سيوف اليمن، وفي البيت اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم: **"(أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنْ هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ)"**[2].

وهو عند أبي العباس الجراوي من السيوف المشرفية الشهيرة[3]:

أَعْلَيْتَ دِينَ الوَاحِـدِ القَـهَّارِ   بِالـمَشْـرِفِيَّةِ وَالقَـــنَا الـخَـطَّارِ

أو من سيوف الهند القاطعة المعروفة بجودتها[4]:

رُدْتَ حِـمَى أَلْفُـنْـش مُسْـتَبَاحًا   بِيضٍ مِنَ الهِنْدِ مُرْهَـــفَاتِ

وقد ذكر السيف بأسمائه المتنوعة، فهو الحسام عند أبي الربيع[5]:

وَتَخَاصَمَـتْ مُهَجُ النُّفُوسِ بِـهَا إِلَى   حَدِّ الحُسَامِ فَلَمْ تُشِـرْ إِلاَّ بِكَا

1- زاد المسافر، ص:143.
2- البخاري، رقم 4388.
3- ديوان الجراوي، ص:86.
4- المصدر نفسه، ص:50.
5- ديوان أبي الربيع، ص:28.

وهو الصّارم والذكر عند أبي العباس الجراوي[1]:

نَـارٌ مِـنَ الفِـتْـنَـةِ العَـمْـيَـاءِ أَطْـفَـأَهَا   سَعْدُ الإِمَـامِ وَحَـدُّ الصَّـارِمِ الذِّكْـرِ*

وكثيرا ما يجمع الشعراء بين سلاحين أو أكثر في بيت واحد، كقول أبي حفص بن عمر[2]:

أَطَاعَـتْكَ الـذَّوابِلُ** وَالشِّـــــفَارَ   وَلَّى أَمْــرُكَ الفَـلَكَ المَـدَارُ

وقول أبي الربيع[3]:

مَا حِـلْـمُـهُـمْ إِلاَّ الأَسِـنَّـةُ*** أُشْرِعَـتْ   لِظُهُورِهِـمْ وَالصَّـعْـدَةُ السَّمْرَاءُ

وذكر بعض الشعراء النّار الإغريقية التي كانت الجيوش الموحدية تستعملها، وقد عرف العرب هذه النّار منذ العصر العباسي، ولكن وصف شعراء المغرب الإسلامي لهذه النار في هذا القرن وصفا مقتضبا[4]، فهذا ابن حبوس يصف شجاعة جيش الموحدين في فتح بجاية، فيقول[5]:

جَـرَوْا وَالـمَـنَـايَا إِلَى غَـايَةٍ   فَلَمْ يَسْبِقُـوهَا وَلَمْ تُسْبَـقِ

بِأَيْدِيـهِمُ الـنَّارُ مَـشُــوبَةً   فَـمَهْمَا تُصِبْ بَاطِلاً تُـحْـرِقِ

1- ديوان الجراوي، ص:84.

*الذكر: الجيد، الحديد اليابس.

2- الغصون اليانعة: ابن سعيد، ص:96.

**الذوابل: الرماح، والشفار: السيوف.

3- ديوان أبي الربيع، ص:26.

***الأسنة الرماح جمع رمح/ الصعدة القناة التي تبت مستقيمة ولا تحتاج إلى تثقيف.

4- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، ص:84.

5- زاد المسافر، ص:48.

ومن شعراء هذا العصر من اشتهر بوصف السفن الحربية التي تعددت أشكالها وأحجامها لتعدد استعمالاتها باعتبارها أداة فعّالة للجهاد في البحر، فهذا أبو يزيد بن عبد الله اللخمي الإشبيلي، يقول عن سفن الجيش الموحدي:

وَيَا لِلجَــوَارِي الـمُنْشَآتِ وَحُسْنِهَا   طَـوَائِرُ بَيْـنَ الـمَاءِ وَالـجَوِّ عُـوَّمَا

إِذَا نَشَرَتْ فِي الجَــوِّ أَجْنِحَةً لَهَا   رَأَيْتَ بِـهِ رَوْضًـــا وَنُــورًا مُكَمَّمَا

وَإِنْ لَمْ تُهِجْهُ الرِّيحُ جَاءَ مُصَافِحًا   فَـمَدَّتْ لَهُ كَفًّا خَضِيبًا وَمِعْصَمَا

مَجَاذِفُ كَالحَيَّاتِ مَدَّتْ رُؤُوسَهَا   عَلَى وَجَلٍ فِي الـمَاءِ كَيْ تَرْوِيَ الظَّمَا

كَمَا أَسْرَعَتْ عَدًّا أَنَامِلُ حَاسِبٍ   بِقَبْضٍ وَبَسْطٍ يَسْبِقُ العَيْنَ وَالفَمَا

استهل الشاعر أبياته بإبراز جمال هذه السفن التي حازت إعجابه، فشبّهها بالأسماك التي تسبح في الماء ثمّ تقفز في الجو، فتبدو وكأنّها تحلق لفرط ارتفاعها، وقد ذكر هذه السفن بلفظ "الجواري المنشآت" وهو لفظ أطلقه الله عز وجل على البواخر في قوله تعالى﴿**وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾[الرحمن:24]، وهذا اقتباس يدلّ على ثقافته الدينية، ثمّ ينتقل إلى تصوير أشرعتها الكثيرة التي تضارع أجنحة الطيور، وهي تشبع زهور الرياض في تفتحها وتعدد ألوانها تحاكي في انبساطها الأكف المصافحة التي تنشد السلم وتبعث الأمن لرائيها، وهي حمراء اللون مخضبة متزينة احتفالا بقدوم الأعداء، وهذا يرمز لقوتها التي تعكس عظمة الدولة الموحدية المعروفة باهتمامها بتشييد وصناعة وسائل الحرب وأدواتها(1) ومنها السفن الحربية، ثمّ ينتقل الشاعر للحديث عن المجاذيف الكثيرة لهذه

1- ينظر مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، مقال بعنوان: المظاهر الحضارية في شعر الوصف على عهد الموحدين، إعداد: سعيدات فايزة، جامعة تلمسان، دار سلطان الخلدونية للنشر والتوزيع، العدد 21/ ماي2017، ص:39.

السفينة مشبها إيّاها بحيّات البحر التي تطفو فوق سطح الماء، ثمّ تغطس وكأنّها تروم الشرب، فتبدو حركاتها متناسقة كأصابع الكف التي تقوم بالعدّ إلا أنّها أسرع منها.

إنّ معاني وصف السفن البحرية كثيرا ما اتسمت بضروب من المبالغة، لوُرُودها ضمن القصائد المدحية الحماسية، يقول ابن الأبّار(1):

سَوْفَ تَـخْشَاهُ الجَوَارِي مِلْؤُهَا مَلْآى كَالأُسْـدِ ذَاتِ اللِّبَـدِ*

كُلُّ شِيحَانٍ تَمَـطَّى مِنْ مَطَا أَدْهَـمِ الصِّبْغَةِ سَهلَ الـمِقْودِ**

يَحْسَبُ البَحْرَ طَـرِيقًا يَبَسًا فَهْوَ يُجْـرِيهِ كَطَرْفٍ أَجْـرَدِ***

تُعدّ السفن البحرية أداة هامّة من أدوات الحرب التي تستطيع نقل الجيوش العتية إلى أرض الخصوم، ووقوف الشعراء أمامها معظمين ومنبهرين فيه دلالة على عظمة هذا الصّنع الحضاري في هذه الفترة الذي له مقدرة على حمل العدد الكبير من الجنود، ويبدو أنّ حديث الشعراء عن الأسلحة حديث تقليدي جاء في ثنايا القصيدة المدحية حيث لم يأتوا فيه بجديد .

ج- الاحتفالات العسكرية:

تُعدّ الاحتفالات العسكرية مظهرا حضاريا شهدته مدن المغرب الإسلامي حيث كان يخرج فيها النّاس لمشاهدة عرض عسكري استعدادا لحملة أو خروج ولي الأمر على رأس جنوده إلى معركة من المعارك، فقد تَعَوَّد ولاة الأمر استعراض جنودهم قبل الخروج إلى

1- ديوان ابن الأبّار، أبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي (658هـ)، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1420هـ/19 99م، ص:162.

*اللّبد: شعر متراكب بين كتفي الأسد، ويكنى الأسد أبو لبد، معجم المعاني الجامع، مادة (لبد).

**شيحان: الغيور الحازم، ديوان ابن الأبار، ص:162.

***الطرف الأجرد: الكريم من الخيل، المصدر نفسه، ص:162.

المعارك وذلك باستعراض كتائب الجيش وألويته والسلاح والعتاد أمام مرأى الناس[1]، حيث يجلس الخليفة على مكان مطل وتَمرّ الكتائب مصطفّة في تتابع منظم، وهم في أبهى حلّة مقلَّدين بأفضل الأسلحة، وكانت كل كتيبة تمثّل قبيلة من القبائل في نظام بديع بغية التأكد من استعدادهم للحرب على نحو ما نراه من استعراضات عسكرية في وقتنا الحالي[2].

وممّا يلحق بهذه المواكب العسكرية احتفالات النّصر بمعركة من المعارك، حيث كانت الفرحة تَعمّ البلاد ويُخرج النّاس الأموال تصدّقا على الفقراء شكرا لله، وتُدق الطبول ابتهاجا بالنصر ويجلس الخلفاء في مجالس التهنئة وما يصحب ذلك من توزيع الأموال وإقامة الحفلات، حيث يقوم الجنود ببعض الألعاب العسكرية[3]، وقد كانت هذه الاحتفالات تدوم لأيّام عديدة، ينشد فيها الشعراء قصائدهم مسجلين هذا المظهر الحضاري على نحو أبي الربيع سليمان الموحدي الذي أنشأ شعرا يصف جنديا في احتفال عسكري[4]:

وَعُلِّقْتُهُ مِثْلَ غُصْنِ النَّقَا تَنْــــوُّ بِهِ لَيِّـــنَاتُ البُــرُودْ

تَنَـاهَى بِهِ لِيـنُ أَعْـطَافِهِ إِلَى غَـايَةِ مَا عَلَيْـهَا مَـزِيدْ

فَقُلْتُ وَقَدْ مَـرَّ مُـدَرَّعًا تُطِيقُ بِهِ خَافِـقَاتُ البُنُــودْ

لَقَدْ آدَّ قَدَّكَ لُبْسُ الـحَرِيرِ فَكَيْفَ بِهِ عِنْدَ لُبْسِ الـحَدِيدْ*

1- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص:421.

2- ينظر الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري، ص:294.

3- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص:425.

4- ديوان أبي الربيع الموحدي، ص:88.

*آد: أدَّ الشيء حامله، أثقله وأجهده، أو حناه من ثقله، المصدر نفسه، ص:88.

يصف الشاعر في هذه الأبيات جنديا وسيما، يوم استعراض عسكري وقد صوّره يتمايل بجسمه كتمايل أغصان الشجر، حتى إذا مرّ على مقربة منه عَلَّق عليه الشاعر مستغربا من حاله وهو يرتدي الحرير وقد أثقله، فكيف به إذا لبس زي الحرب، وهذا يدل على أنّ الملابس التي كان الجند يرتديها في الاحتفالات والعروض العسكرية غير تلك التي يرتديها أثناء الحروب، وبهذا تكون تلك الاحتفالات مظهرا حضاريا عسكريا سجله شعراء هذا القرن.

ثالثا: الحمّامات

تُعدّ الحمّامات مظهرا حضاريا عمرانيا عرف انتشارا واسعا في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، فقد احتل بناء الحمامات من النّاحية العمرانية المرتبة الثانية بعد المساجد، ولهذا انتشرت في المدن والقرى انتشارا واسعا، فقد أشار صلاح جرار إلى أنّ "الكثرة العددية للحمّامات ترتبط بكثرة البيوت، والفنادق والمساجد والمدارس، إضافة إلى وفرة الينابيع وكثرة المياه، إذ كانت من أهم الأسباب المساعدة في إنشاء الحمّامات العامة، وحمامات القصور الفخمة"[1]. وقد كان بناء الحمّام يسير وفق نظام معين، فهو يتألف من مدخل يفضي إلى ثلاث قاعات أو أربع، تتصل فيما بينها عن طريق ممر ضيق، ويلي ذلك الممر حجرة ضيقة مستطيلة مغطاة بقبو دائري تسمى "البيت البارد"، والتي فيها يتم خلع الملابس، ويلي البيت البارد قاعة تعرف "بالبيت الوسطاني" وهي أكبر حجما وأكثر اتساعا من القاعة السابقة، إذ يتوسطها فراغ مركزي مربع الشكل يعلوه قبة، ويحيط به أربع ممرات مقببة، تحملها عقود على أعمدة، ويتخلل هذه القنوات الجانبية والوسطى فتحات تسمى "مضاوي" لإدخال الضوء، أمّا القاعة الأخيرة فهي "البيت الساخن" وهو عبارة عن

1- الحمامات في الأندلس، د صلاح الجرار، مجلة الفيصل "مجلة ثقافية شهيرة"، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ع40، 1980م، ص:128.

حجرة طويلة ضيقة بعض الشيء يوضع في نهايتها موقد كبير يسمى القدر أو البرمة، تخرج منه أنابيب رصاصية تحمل الماء الساخن إلى أحواض من الرخام أو الطوب الأحمر تسمى صهاريج، وتستخدم الشموع لإضاءة الحمامات ليلا، أمّا نهارا فكانت هناك فتحات تسمح بدخول الضّوء تقفل بزجاج ملون[1]، والحمامات على اختلاف أنواعها لا تختلف في نظام بنائها وهندستها في أي منطقة كانت في بلاد المغرب الإسلامي، وإنما تختلف في بعض الكماليات التي كانت تضاف إليها وبخاصة في بعض الحمامات المترفة الضخمة، فقد كان يصل الماء إليها عبر قنوات خاصة تغطى أسافلها بالزخرف، وكانت حيطانها تجمل بزخارف ورسوم جميلة إضافة إلى التماثيل والنوافير[2].

ويشتغل في الحمّامات مجموعة من الأشخاص تختلف مسمياتهم تبعا لنوع العمل الذي يقومون به، فيوجد صاحب الحمّام والمدلك أو الحكاك والحجام، والحلاق أو المزين، وقيم الحمّام، والعامل أو الخادم والسقاء، والنّاطور أو الحارس، وهؤلاء العمال موجودون في الحمامات منذ القدم فقد ذكرهم بديع الزمان الهمذاني[3].

لقد كان لهذا المظهر الحضاري حظ من نصوص شعراء القرن السابع الهجري، إذ اهتموا بوصفه من جوانب عديدة محاولين الترويج له بين أبناء مجتمعاتهم خاصتهم وعامتهم، وقد كان الأندلسيون أكثر وصفا للحامات من غيرهم، لدرجة جعلت بعض الأدباء يؤلفون كتبا خاصة في الأشعار التي نظمها أصحابها فيها، على نحو تأليف محمد الحضرمي المسمى (تأنيس

1- ينظر مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، أحمد محمد الطوخي،تقديم أحمد مختار العبّادي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية،1997م، ص:107.

2- ينظر نفح الطيب، ج1، ص:568.

3- ينظر مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، شرحها: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المعاهد، مصر، 1342هـ/1923م، المقامة الحلوانية، ص:223-225.

أرباب الاستحمام بما قيل من الأشعار في الحمام)[1]، فمن شعراء هذه الفترة نجد ابن شكيل الصوفي*، الذي رسم صورة جميلة للحمّام إذ قال:

تُلْهِي العُيُــونَ رُقُــومُهُ فَكَأَنَّـهَا   قَـدْ أُلْبِسَــتْ سَـاحَـاتُهُ دِيبَـاجَا

مَجْمُوعَةٌ أَضْـدَادُهُ فَتَــرَى بِـهَا   نَـارَ الغَضَـا وَالـوَابِلَ الثَّــجَّاجَا[2]

حَــرَّانَ مُنْسَكِبَ الدُّمُوعِ كَأَنَّمَا   يَحْكِي بِذَاكَ العَاشِقَ المُهْتَاجَا

دُحِيَتْ بَسِيطَةُ أَرْضِهِ مِنْ مَرْمَرٍ   فَجَرَى الزُّجَاجُ بِهِ وَثَارَ عَـجَاجَا[3]

وَجَلَّتْ سَـمَاوَتُهُ السَّمَـاءَ وَإِنَّمَا   جُعِلَتْ مَـكَانَ النَّيِّـرَاتِ زُجَـاجَا

قَامَتْ عَلَى عُمُدٍ جُلِينَ عَـرَائِسًا   فَتَـرَى لَهَا السَّمْكَ الـمُكَلَّلَ تَاجَا[4]

لقد عبّر الشاعر في هذه الأبيات عن إعجابه بجمال ذلك الحمام وانبهاره بدقة الصنعة في البناء، فقد زُيّنت حيطانه بالرسوم وساحات أرضياته بالبلاط الملوّن، فبدت وكأنّها ثوب موشى بالحرير، أمّا مياهه فدافئة متدفقة شديدة الانصباب، وهي في حرّها تشبه حال نار عاشق ولهان تنسكب دموعه بغزارة، ثمّ صوّر سماءه في صورة رائعة إذ جعلها تبدو كأنّها حقيقية عبر استبدال النّجوم والأقمار التي تنير السماء بالأضواء والمصابيح التي تضيء الحمام، فبدا انعكاس لمعان أنواره المشعلة من خلال الزّجاج الملوّن الذي يحيط بها كأنّه نجوم تلمع

1- ينظر الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، ص:263.

*أبو العباس أحمد بن يعيش بن شكيل الصوفي، من أهل شريش أحد شعرائها الفحول، مع نزاهة ومروءة، توفي سنة 605هـ/1209م، تحفة القادم، ابن الأبار، ص:150/ الوافي بالوفيات، ج8، ص:278.

2- الثجاج: الشديد الانصباب، وفي التنزيل العزيز ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾[النبأ:14].

3- مرمر: نوع من الرخام شديد الصلابة والصفاء، معجم الرائد، (المركل)، ص:732.

4- وصف الحمامات في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية، د. محمد يوسف بنات، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، م23، ع2، جوان2015، عن أبي العباس أحمد بن شكيل الأندلسي "شاعر شريش"، ص:45.

في السّماء، وختم هذا الوصف بتشخيص غرفة الجلوس بعد الاستحمام إذ بثّ الحياة في أعمدتها، فشبّهها بالعرائس الجميلات وصوّر قُبّتها بالتّاج الذي يُزيّن رؤوس تلك العرائس، فلا شك أنّ هذه الأبيات قد كشفت عن ارتياح وسرور نفسية الشاعر تجاه ذلك الحمّام كما كشفت عن رقي حضاري في فنون الهندسة والزخارف.

وممّا جاء في وصف هذا المظهر الحضاري ما ذكره ابن بسام في ذخيرته عن اجتماع الأديبين الأعمى التطيلي وأبي بكر بن بقي يوما في أحد الحمّامات فقال التطيلي[1]:

يَا حُسْنَ حَمَّامِنَا وَبَهْجَتَهُ   مَرْأَى مِنْ السِّحْرِ كُلُّهُ حَسَنُ

مَاءٌ وَنَارٌ حَوَاهُمَا كَنَفٌ   كَالقَلْبِ فِيهِ السُّرُورُ وَالحَزَنُ

ثمّ أعجبه المعنى فقال:

مَـــاءٌ وَفِيهِ لَهِيبُ نَارٍ   كَالشَّمْسِ فِي دِيمَةٍ تَصُوبُ

وَابْيَضَّ مِنْ تَحْتِهِ رُخَامٌ   كَالثَّلْجِ حِينَ ابْتَدَا يَذُوبُ

وقال أبو بكر بن بقي[2]:

حَمَّامُنَا فِيهِ فَصْلُ القَيْظِ مُحْتَدِمٌ   وَفِيهِ لِلبَـرْدِ سِرٌّ غَيْرَ ذِي ضَرَرِ

ضِدَّانِ نِعْمَ جِسْمُ المَرْءِ بَيْنَهُمَا   كَالغُصْنِ يُنَعَّمُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالمَطَرِ

يبدو أنّ الشاعرين قد أعجبا بهذا الحمام، فوصف كلّ منهما ما وقعت عليه عينه، فالأعمى التطيلي يظهر مبتهجا ومرتاحا بدخوله، وراضيا عن حرارة مائه وبرودته، فهو عنده كالقلب الذي يجتمع فيه السرور والحزن معا، وقد أشار إلى حوض الحمّام المصنوع من

1- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مج2، ص: 302.

2- المصدر نفسه، مج1، ص: 303.

الرخام الأبيض، فشبهه بالثلج الذي ابتدأ يذوب بفعل الحرارة، وأمّا أبو بكر فقد تحدث عن مكانين في ذلك الحمام أحدهما شديد الحرارة والآخر ذو هواء بارد معتدل، والمكانان المتضادان لا يضران أبدان المستحمين، بل يتنعم جسم المرء بينهما كالغصن الذي يتعرض لحر الشمس وبرد المطر.

ومن الشعراء المغاربة نجد محمد بن علي بن العابد الفاسي، يقول في وصف حمّام[1]:

لَمْ نَدْخُلِ البَيْتَ حَتَّى أَتَى بِأَرْبَعٍ فِي صُــوَرِ البَـدْرِ*

وَجَاءَ بِابْنِ النَّحْلِ فِي زُبْـدَةٍ مِـثْلَ عَنْبَرٍ شِيبَ بِالـدُّرِّ**

فَقُلْتُ هَـاتِ البَقِـلاَّءَ الَّتِي بَدَتْ لَنَا فِي حُـلَلٍ خُضْـرِ

زَبَرْجَـدٌ ضُمَّ عَلَى لُــؤْلُـوءٍ صَاغَهُمَا مُنْسَكِبُ القَطْرِ***

فَاجْتَمَعَتْ أَطْعِمَةٌ حَقُّ مَـنْ أُعْطِيَـهَا الإِقْـرَارُ بِالشُّـكْرِ

اعتاد النّاس أن يدخلوا الحمّام ويجلسوا في قسم خارجي فيتناولون ما لذّ وطاب من الأطعمة ويمضون وقتا رائعا في اللهو والمرح، ثمّ يواصل الشاعر وصفه للحمام بعد دخوله إلى قسم داخلي:

وَحِيـنَ ضَـمَّ اللَّيْـلُ أَذْيَـالَهُ وَانْتَشَــرَتْ أَلْـوِيَةُ الفَـجْـرِ

قُمْنَا لِبَيْتٍ حَــرِجٍ مُظْلِمٍ قِسْمٌ بَيْـنَ البَــرْدِ وَالحَــرِّ

1- الذيل والتكملة، م5 (السفر الثامن)، ص:230-231.

*يقصد قرص الخبز وقد شبهه في استدارته بالبدر.

**ابن النحل هو العسل، المصدر نفسه، ص:230.

***الزبرجد: حجر كريم ذو ألوان كثيرة أشهرها الأصفر والأخضر، وأراد هنا قشور الفول الخضراء، وأراد باللؤلؤ الحبوب بداخلها، ينظر الشعر العربي بالمغرب، ص:263.

تَخَالُ مَنْ ضَمَّتْهُ أَحْشَاؤُهُ كَأَنَّـــمَا أُدْرِجَ فِي قَبْــــرِ

تَلُـوحُ فِي أَقْبَــائِهِ أَنْجُمٌ نَقِيضَةٌ لِلأَنْجُـــمِ الزُّهْـرِ

تَبْدُو نَـــهَارًا فَإِذَا مَا بَدَا جُنْحُ الدُّجَى غَارَتْ وَلَمْ تَسْـرِ[1]

يُبّين الشاعر في هذه الأبيات وقت دخوله إلى القسم الثاني بعد جلسة اللهو والطعام، فحدده بطلوع الفجر ثم صوّر القسم الداخلي على أنّه مظلم ينقسم قسمين: خارجي بارد وداخلي ساخن، ثمّ وصف أدوات الماء البارد والساخن وفتحات الإنارة التي يدخل منها الضوء.

وقد وصف الشاب الظريف*دخوله أحد الحمامات وعملية استحمامه فقال[2]:

مَــرَرْنَا بِحَـمَّامٍ كَأَنَّنَا بِحَـجَّةٍ وَقَدْ عُقِدَتْ مِنَّا المَآزِرُ نُحْرِمُ

فَلَمَّا حَـلَلْنَا مِنْهُ صَدْرًا كَأَنَّـمَا غَدَتْ فِيهِ نِيرَانُ الصَّبَابَةِ تَضَرَّمُ

بَكَتْ مِنْهُ أَجْفَانُ الأَنَابِيبِ بَيْنَنَا كَأَنَّا لَــهَا اللُّــوَّامُ وَهْوَ المُتَيَّمُ

وصف الشاعر هيئته حين دخل الحمّام فشبّه نفسه بالحاج المحرم بعد أن وضع مئزر الحمام، ثمّ جلس في صدره فاشتعلت ناره، وتدفقت مياهه عليه وعلى المستحمين، وهو بهذا الوصف الجميل يشبه المياه الدافقة عليهم ببكاء العاشق المتيم حين يلومه العذال.

1- الذيل والتكملة، م5(السفر الثامن)، ص:231.

*محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني (661هـ/688هـ) ويقال له أيضا ابن العفيف نسبة إلى أبيه الذي عرف بالعفيف التلمساني، وكان شاعرا أيضا، لقب لرقته وطرافة شعره بالشاب الظريف، توفي شابا في ريعان شبابه عن عمر ناهز 27ربيعا.

2- شعر وصف الحمامات في القرنين السادس والسابع الهجريين، دراسة موضوعية، د. مشهور عبد الرحمن الحبازي، مجلة جامعة دمشق، م27، ع 3-4، 2011، ص129، عن الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، صلاح الدين الصفدي، تح: هلال ناجي، سلسلة إصدارات الحكمة، ط1، ليدز (بريطانيا)، 1999م، ص:55-56.

وتجدر الإشارة إلى أنّه كانت هناك حمّامات مختصة للنساء، فكنّ يرتدنها باستمرار ويقضين فيها بعض الوقت، ولربّما كن يستخدمن الحمّامات نفسها التي يستخدمها الرجال، لكن في أوقات مختلفة، ولذلك حرّم الفقهاء خروج النساء إلى الحمامات العامّة خوفا على أعراضهن واستنادا لأدلة صحيحة من التشريع الإسلامي، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف: **"(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الحَمَّامَ)"**[1]. وقال صلى الله عليه وسلم **"(الحَمَّامُ حَرَامٌ عَلَى نِسَاءِ أُمَّتِي)"**[2]، كما أوصى بعض الفقهاء بضرورة عدم الجلوس مقابل حمّامات النساء العامة أو التعرض لهنّ في الطريق، يقول ابن عبدون التجيبي: "لا يجلس متقبل الحمّام للنساء، فإنّه موضع تمتع وزنى"[3]، وقد سجل شعراء القرن السابع الهجري هذه الظاهرة ضمن حديثهم عن الحمّامات، فقد وردت في كتاب "الإحاطة" أبيات لأبي البقاء الرندي قالها متغزلا بإحدى النّساء لحظة خروجها من الحمّام[4]:

بَرَزَتْ مِنَ الحَـمَّامِ تَـمْسَـحُ وَجْهَهَا عَـنْ مِثْلِ مَـاءِ الـوَرْدِ بِالعُـنَّابِ

وَالـمَـاءُ يَقْطُـرُ مِنْ ذَوَائِبِ شَعْـرِهَا كَالطَّلِ تَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ غُـرَابِ

فَكَأَنَّـهَا الشَّمْسُ الـمُنِيرَةُ فِي الضُّحَى طَلَعَتْ عَلَيْنَا مِنْ خِلاَلِ سَـحَابِ

يبدو أنّ الشاعر كان قريبا من تلك المرأة حيث صوّرها تمسح وجهها الذي بدا مُتعرّقا من حرارة الحمّام، مشبها احمرار وجنتيها بلون العنّاب، ثمّ شبّه الماء المتقاطر من شعرها

1- أخرجه الترمذي في الأدب (3031)، أحمد (15027)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

2- أخرجه الحاكم (7784)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (3192)، والسلسلة الصحيحة (3439).

3- وصف الحمامات في الشعر الأندلسي، ص69.عن" في القضاء والحسبة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة"، تح: ليفي بروفنسال، منشأة المعارف، القاهرة، ص: 49.

4- الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص:371.

الأسود بالندى المتساقط من جناح غراب، وفي نهاية المشهد جعل منها شمسا منيرة خرجت من بين سحب سوداء.

لقد اختلفت نظرة الشعراء إلى الحمّامات، فإن كان بعضهم قد مدحها لما فيها من سبل الراحة والاستجمام، فإنّ البعض الآخر قد ذمّها منفرا منها لما لاقاه من سوء معاملة أصحابها أو سوء أدب مرتاديها، على نحو ما فعل أبو الحسن الرعيني حين دخل حمّاما فجلس بإزائه عامي أساء الأدب معه[1]:

أَلاَ لُعِـنَ الحَـمَّـــــامُ دَاراً فَإِنَّهُ   سَوَاءٌ بِهِ ذُو العِلْمِ وَالجَهْلِ فِي القِدْرِ

تَـضِيعُ بِـهِ الآدَابُ حَـتَّى كَأَنَّهَا   مَصَابِيحُ لَمْ تَنْفُقْ عَلَى طَلْعَةِ الفَجْرِ

يبدو الشاعر غير راض عن هذا الحمّام، ممّا دعاه للعنه، لما لاقاه من شخص جاهل أساء الأدب معه، فقال هذين البيتين هاجيا لذلك الشخص، وساخطا على ذلك الحمّام الذي جمع بين المتأدبين والجهال، فقد شبّههم بحال النّجوم التي لا تطلع معا في الصباح، وفي هذا تعريض بمستوى الحمام المتدني -في نظره- كونه يجمع بين النّاس العلماء والجهّال.

ومن ثمّ يمكن القول إنّ الحمّامات في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري كانت مظهرا عمرانيا وحضاريا شائعا، ممّا شكل عامل جذب واستقطاب للشعراء فوصفوا ما وقعت عليه عيونهم داخلها، وقد كثرت في وصفها كل ألوان البيان من استعارات وتشبيهات باعتماد الطبيعة الحية في تجسيد المعاني وتشخيصها، وقد لمسنا بعض الغزل المادي بزوّارات الحمامات، كما كشفت بعض المقاطع عن الاتجاه النقدي للحياة الاجتماعية والذي تمثل في النقمة على الحمامات العامة التي يرتادها جميع أصناف المجتمع.

1- نفح الطيب، ج3، ص:381.

رابعا: المساجد

تُعدّ المساجد من أهم عناصر تخطيط المدن الإسلامية، فقد كانت تفصل بين ديار الإسلام وديار الكفر في أوائل العصور الإسلامية، إلى أن أصبحت صبغة المدن الإسلامية يسارع المسلمون في بنائها أولا قبل الشروع في بقية العمران، وكما هو معلوم أنّ مسجد قباء الذي بناه النبي صلى الله عليه وسلم هو "أول مسجد بني في الإسلام"[1]. أمّا بشمال أفريقية فإنّ أول مسجد جامع هو جامع القيروان الذي بدأ إنشاؤه منذ قدوم عقبة بن نافع في فتحه الأول لأفريقية[2]، وقد كانت تُشيّد المساجد في قلب التّجمع العمراني لتكون مركز إشعاع ورمزا للسلطة المركزية، ولم يقتصر دورها على جانب العبادات فقط، بل كان لها دور في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، فقد كانت تعقد فيها اجتماعات عامة كبيرة وتطرح فيها قضايا وتبارك فيها الجيوش قبل الذهاب إلى المعارك، وقد مثلت أيضا وسيلة إعلامية يبث من فوق منبرها النّشرات الرسمية والخطابات والمراسيم والأخبار التي تتضمن الإعلانات عن الجيوش المنتصرة[3].

لقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري اهتماما بالغا من ولاة الأمر ببناء المساجد والاعتناء بها وإدخال التحسينات عليها[4] فكانت بذلك مظهرا حضاريا دينيا وعمرانيا نال اهتمام شعراء هذه الحقبة، يقول ابن الجيّاب عن المسجد الأعظم بالأندلس[5]:

1- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري، تح: عبد الله بن يحي السريحي، دار الكتب الوطنية،2003م، ص:174.
2- ينظر مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن9هـ/15م، إبراهيم حركات، دار الرضا الحديثة، الدار البيضاء، 2000م، ص:22.
3- ينظر مظاهر الحضارة في الأندلس: أحمد محمد الطوخي، ص:57.
4- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: حسن علي حسن، ص:400.
5- التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي: سعد العنيزي، ص:136.عن ديوان ابن الجيّاب، ص:251.

وَلاَ كَمَسْجِدِكَ الأَعْلَى فَإِنَّ لَهُ   فَضْلاً بَعِيدَ المَدَى رَحْبَ المَيَادِينِ

تَأَنَّقَتْ فِيهِ أَذْهَانٌ مُسَدَّدَةٌ   جَاءَ بِسِرٍّ مِنَ الإِبْدَاعِ مَكْنُونِ

يَا لَهُ أَثَرٌ تَبْقَى مَآثِرُهُ   مُخَلَّدَاتٍ لِيَوْمِ العَرْضِ وَالدِّينِ

تحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن أهمية ذلك المسجد وفضله الكبير، وعن التأنّق والروعة في بنائه، ممّا جعله من الآثار الخالدة ليوم العرض والدين، وللشاعر قصيدة أخرى في هذا المسجد[1]:

بَيْتٌ لِذِكْرِ اللهِ أَسَّسَهُ عَلَى   عِمَادٍ مِنَ التَّقْوَى قَوِيِّ الدَّعَائِمِ

وَأَنْفَقَ فِي بُنْيَانِهِ مَا أَفَاءَهُ   عَلَيْهِ اقْتِحَامُ المَأْزِقِ المُتَلاَحِمِ

تَنَاقَلَتْ الرُّكْبَانُ أَخْبَارَ حُسْنِهِ   فَطَيَّبْنَ أَنْفَاسَ الرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ

بَدَائِعُ حُسْنٍ تَقْصِرُ الطَّرْفَ بَهْجَةً   سِوَى ذِكْرِهَا مَسْرَى القِلاَصِ الرَّوَاسِمِ

أَضَاءَتْ بِهِ الأَنْوَارُ مَثْنَى وَمُوَحَّدَا   وَجُنْحُ الدُّجَى ذُو غَيْهَبٍ مُتَرَاكِمِ

مَصَابِيحُ يَمْحُو نُورَهَا غَسَقُ الدُّجَى   وَأَنْوَارُ تَقْوَى مَاحِيَاتِ الجَرَائِمِ

يبدو الشاعر معجبا أيّما إعجاب بالإبداع العمراني لذلك المسجد، فقد استسهل أبياته بإبراز الغاية من تأسيسه وهي ذكر الله، مصداقا لقوله تعالى:﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[الحج:40]، وقال تعالى ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾[النور:36]، ثمّ عرض محاسن ذلك المسجد الذي

1- المرجع السابق، التجليات الحضاريّة في الشعر الأندلسي: سعد العنيزي، ص: 219.

أصبح حديث النّاس، مشيرا إلى جمال مصابيحه التي تنير شدة الظلام، بروعة إضاءتها وبديع صنعها، وعن منبر ذلك المسجد، يقول[1]:

وَمِنْ أَعْظَمِ الآثَـارِ مِنْبَرُكَ الَّذِي ذَخِرَتْ بِهِ أَزْكَى الأُجُورِالجَسَائِمِ

هُوَ الغَايَةُ القُصْوَى الَّتِي مَا وَرَاءَهَا مَجَـالٌ لِفِكْـرٍ أَوْ مَــرَامٌ لِرَائِمِ

بَدَائِـعُ تَرْصِيـعٍ تُـــنُاظِرُ حُسْـنَـهَا تُنَاظِرُ زَهْرَ العَرُوضِ غِبَّ الغَمَائِمِ

كَأَسْـلاَكِ يَاقُــوتٍ وُدُرٍّ مُـفَصَّـلٍ تُضَـاهِي حُـلَى أَطْـوَاقِ الحَـمَـائِمِ

تنمّ هذه الأبيات عن براعة في حرفة النقش على الخشب في ذلك العصر، كما تنبئ عن ظاهرة زخرفة المساجد والتي تُعدّ من علامات الساعة، فقد روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"(لاَتَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ)"**. وقال البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة باب بنيان المساجد، قال أنس: يتباهون ثمّ لا يعمرونها إلاّ قليلا، فالتباهي بها العناية بزخرفتها، قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى"[2]، وقد جاء وعيد شديد على هذه الزخرفة، فقد روى الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: **"(إِذَا زَوَّقْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ، فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ)"**. وحسن إسناده العلامة الألباني رحمه الله تعالى.

وقد صوّر شعراء هذه الفترة التّدمير والتخريب الذي ألحقه الصليبيون بهذا المظهر الحضاري في الأندلس، فجاء ذكر المساجد في إطار التحسر والفجيعة بعد سقوط المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى، ممّا جعل الشعراء يقفون موقف الباكي المتحسر عليها،

1- المرجع السابق، التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي، ص:221.

2- المساجد، حسين مؤنس، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير، 1981، ص:23.

يقول أبو البقاء الرندي[1]:

تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البَيْـضَاءُ مِنْ أَسَـفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْـمَانُ

عَلَى دِيَارٍ مِنَ الإِسْـلاَمِ خَـالِـيَةً ... قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالكُفْرِ عُمْـرَانُ

حَيْثُ المَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ ... مَا فِيهِنَّ إِلاَّ نَوَاقِيسُ وَصُلْبَانُ

حَتَّى المَحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِدَةٌ ... حَتَّى المَنَابِرُ تَرْثِي وَهْيَ عِيدَانُ

يُصوّر الشاعر في هذه الأبيات حال الإسلام بعد سقوط المدن الأندلسية، فالحنيفية تبكي من شدة حزنها كما يبكي المحب لفراق إلفه وحبيبه، تبكي على ديار الأندلس التي خلت من الإسلام وأقفرت، وأصبحت عامرة بالكفر، فحولت المساجد إلى كنائس وجعلت فيها النواقيس والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فمن هول تلك الفاجعة حتى الجمادات تأثرت لما حدث فأخذت المحاريب والمنابر تبكي وترثي نفسها لما حلّ بها من طمس لمعالم الحضارة الإسلامية المتمثلة في المساجد التي كانت منارات يهتدى بها في تلك الحقبة.

وتظهر صورة المساجد التي تحولت إلى كنائس بصورة أخرى عند أبي عمران المرابط[2]:

كَمْ جَـامِعٍ أُعِيدَ كَنِيسَـةً ... فَاهْلِكْ عَلَيْهِ أَسًى فَلاَ تَتَـجَلَّدِ

القِسُّ وَالنَّاقُوسُ فَوْقَ مَنَارَةٍ ... وَالخَمْرُ وَالخِنْزِيرُ وَسْطَ المَسْجِدِ

وَتَعَـوَّضَتْ مِنْهُمْ بِكُلِّ مُعَانِدٍ ... مُـذْ كَـانَ لَـمْ يَتَشَـهَّدِ

يشير الشاعر إلى عدد كثير من المساجد التي حولت إلى كنائس والتي عاث فيها النصارى فسادا فنشروا الموبقات والمحرمات داخلها، فالشاعر يتألم لما حل بهذا المَعلم

1- الإحاطة، ج2، ص:340.

2- تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون عبد الرحمن، منشورات الكتاب اللبناني، بيروت، 1986م، ج7، ص:194-195.

الحضاري ويدعو للبكاء عليه وعلى ما حلّ بإخواننا المسلمين آنذاك، والمعنى نفسه نجده عند ابن الآبّار في قوله(1):

يَا لِلمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلعِدَا بِيَعًا وَلِلنِّدَاءِ غَدًا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا

لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اِسْتِرْجَاعِ فَائِتِهَا مَدَارِسًا لِلمَثَانِي أَصْبَحَتْ دَرْسَا

إنّ المتأمّل في أشعار رثاء المساجد يجد معاني الحسرة والفجيعة سمة غالبة عند شعراء تلك الحقبة فقد صوّروا حالين لها، فبعد أن كان المسجد منارة للعلم والوعظ والإرشاد، أصبح مكانا للكفر واللهو والمجون، فآل هذا الصّرح المعماري الذي كان شاهدا على حضارة وتقدّم ورقي إلى الزوال والفناء، فكان حجم المصيبة أعظم وخطبها أعم لطمس الهوية العربية الإسلامية بمعالمها وأبعادها الحضارية.

خامسا: العادات والتقاليد:

عرف سكان المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري عادات وتقاليد منها ما هو موروث عن الأجيال السابقة، ومنها ما هو مستحدث في هذه الحقبة نتيجة لظروف سياسية ودينية مرّت بها تلك البلاد، ونحن في هذا المبحث سنعرض بعضا ممّا سجله شعراء تلك الحقبة في ميادين مختلفة.

أ- الزواج:

اِلْتزمت مجتمعات هذه الحقبة بمبادئ الإسلام، فكانت ترى في الزّواج أمرا ضروريا، لدرجة تشبيهه بالموت في همّه ووقوعه، فكما أنّ الموت كأس يتذوقه كل امرئ، فالزّواج

1- ديوان ابن الأبّار، ص:409.

مرحلة يمر بها كل إنسان، فقد قيل "الزواج والموت همّ لا يفوت"[1]. وبه يزيد الخير والبركة مصداقا لقوله تعالى﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[النور:32]، فقد كان النّاس يُقْدمون على الزواج ما داموا ينعمون بالأمن والرخاء، ويتراجع ذلك الإقبال في أيّام النزاعات والفتن والحروب[2]، وكان من عادات الزواج حسن الاختيار، فكان الشاب يختار شريكة حياته مراعيا في ذلك عدة مزايا في المرأة، ولعلّ أبرزها الجمال الذي اختلفت معاييره من منطقة لأخرى، فقد فضّل الأندلسيون المرأة الرشيقة الشقراء، فيما فضّل المغاربة المرأة الممتلئة لقولهم: "الشّحم زِينْ، وْمَنْ فَقْدُو حْزِينْ"[3]، كما عُدّت عذارة المرأة شرطا رئيسا اتفق عليه الكلّ، لذا كانت الفتاة وبخاصة الأندلسية مثالا في الحفاظ على عذريتها، وكان المجتمع يحرص ويحث الفتاة على الحفاظ على العذرية ولو أنّها انحرفت في بعض تصرفاتها[4]، وقد ارتكزت الطبقة المثقفة على اختيار الكرام من النّساء لولادة النّجباء من الأبناء، وهذا ما نجده مسجلا عند الشاعر أحمد السيّاني المري في قوله[5]:

مَنْ يُزَوِّجْ كَرِيمَةً الهِمَّةَ العُلْيَا   عُلُوًّا فَقَدْ أَجَادَ الخِيَارَا

سَتُرِيهِ عِنْدَ الوِلاَدَةِ بَنِيهَا العِلْمَ   وَالحِلْمَ وَالأَنَاةَ كِبَارَا

1- المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع-الذهنيات-الأولياء: إبراهيم القادري بوتشيش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، نيسان، 1993م، ص22.عن مجلة البيئة، مقال الأمثال المغربية: زمامة، العدد2، 1962م، ص:113.

2- ينظر التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، حسن أحمد النوش، دار الجيل، بيروت، دت، ص116.

3- أمثال العوام: أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي، تحقيق وشرح ومقارنة: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، مطبعة محمد الخامس، المغرب، 1975م، ج2، ص:34.

4- ينظر المصدر نفسه، ج2، ص:132.

5- نفح الطيب، ج6، ص:76.

وكما يختار الرجل شريكة حياته، كانت المرأة أيضا تختار شريك حياتها لكن بعد أن يتقدّم إليها لخطبتها، إذ كان لها أيضا قسط من الاختيار حسب الضوابط الإسلامية والعرفية، فمنهن من سمحت عائلتها أن تبدي رأيها بقبول أو رفض من يتقدم إليها، ونجد هذه العادة أو التقليد واضحة عند الشاعرة نزهون بنت القليعي* التي رفضت رجلا قبيحا تقدم إلى خطبتها وذكر أنّ حبّه فيها قاده إليها، فقالت في ذلك[1]:

عَذِيرِي مِنْ عَاشِقٍ أَنْوَكٍ   سَفِيهِ الإِشَارَةِ وَالمَنْزَعِ

يَرُومُ الوِصَالَ بِمَا لَوْ أَتَى   يَرُومُ بِهِ الصَّفْعَ لَمْ يُصْفَعِ

بِرَأْسٍ فَقِيـــرٍ إِلَى كَيِّهِ   وَوَجْهٍ فَقِيرٍ إِلَى بُرْقُعِ

ففي هذه الأبيات إشارة واضحة إلى أنّ المرأة هي الأخرى لها حرية اختيار الرجل الذي يُناسبها، وقد كان من عاداتهم وتقاليدهم في هذا الميدان أيضا ظاهرة غلاء المهور ممّا دعا الشعراء إلى نصح المواطنين في أن يتجنّبوا المبالغة في ذلك، على نحو ما فعل الشاعر أبو القاسم السهيلي[2]:

وَالمَهْرَ مَهْرَ العُرْسِ لاَ تُغْلِهِ   فَــإِنَّهُ مَهْمَا غَلاَ مَهْرَمَهْ

مِنْ دَمِهِ صَانَ لِحِرْزِ التُّقَى   لَمْ يَخْشَ مِنْ لَوْمٍ وَلاَ مَنْدَمَهْ

أُبْ لِمُتي إلى الرضا واقتسم   مـــالي مـــعي إن شئت

*نزهون بنت القليعي غرناطية كانت واحدة صنفها في أدبها، حيث كانت شاعرة سريعة الجواب صاحبة فكاهة/ ينظر الإحاطة، ج3، ص:262.

1- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس: الضبّي، ج2، رقم 1595، ص:732.

2- المطرب من أشعار أهل المغرب،لابن دحية ذي النسبين أبي الخطّاب عمر بن الحسن، تح: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، راجعه: طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص:238.

إنّ المغالاة في المهور إضافة إلى أنّها تؤدي إلى بوار الفتيات كانت تثقل كاهل العرسان الذين احتاروا بين دفع المهور، وتجهيز البيوت وتغطية مصاريف الزفاف، ناهيك على أنّها أمرٌ مناف لتعاليم الشريعة الإسلامية التي حثّت على الاكتفاء بالمهور اليسيرة لما فيها من بركة، فقد قال صلى الله عليه وسلم **"(خَيْرُ النِّكَاحِ أَيْسَرُهُ)"**[1]. وقال أيضا عليه الصلاة والسلام**"(خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ)"**[2]. فالأحاديث ترشد إلى تيسير الزواج للناس حتى لا ينصرفوا عنه فتفتح مفاسد خلقية واجتماعية متعددة، ولعلّ المبالغة في المهور في تلك الحقبة كانت انعكاسا لثقافة المجتمع الذي تتباهى نساؤه بغلاء مهورهنّ، وفق ما ذكرته أمثالهم التي كانت شديدة الصّلة بواقعهم[3].

ب- زينة المرأة:

اهتمّت المرأة في هذه الحقبة بمظهرها الجمالي، فاقتنت كلّ ما أتيح لها من وسائل الزينة قصد تجمّلها وإظهار محاسنها، ومن بين تلك الوسائل "السّوار" المستعمل لتزين المعصم، فقد وصفه الشاعر أبو الربيع فقال[4]:

لَمْ تَجِدْ عَيْنَايَ عَنْهُ مَصْرِفًا   أَرْقَـــمَ أَبْصَرْتُهُ مُنْعَطِفَا

وَغَدَا يُلِيحُ بَعْضٌ بَعْضَهُ   وَيَعَضُّ الجِسْمَ مِنْهُ أَسَفَا

فَإِذَا جَـــالَ فَلاَ بَأْسَ بِهِ   وَحَـذَارِ مِنْهُ مَهْمَا وَقَفَا

لقد أُعجب الشاعر بهذا السّوار، فبثّ فيه الحركة إذ شبّهه بالثعبان الذي يحيط ويلتف بالشيء، ثمّ وصف منظره على يد صاحبته، فشبّه شدّة إحكامه على ذراعها بعضّة الثعبان

1- رواه ابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (3300).
2- رواه الحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3279).
3- ينظر أمثال العوام، الزجالي ج2، ص:339.
4- ديوان أبي الربيع، ص:124.

عندما ينقض على الفريسة، ووجه التشابه بينهما يكمن في لسعه للجسم، وشدّة إحكامه عليه، ونساء هذه الفترة قد اتّخذن أنواعا مختلفة من الحلي، يقول ابن الخطيب عن مظاهر الجمال والزينة عندهن: "وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات، وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العصر والظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحلي"[1].

وقد اتخذت المرأة الخلخال أيضا مظهرا تكمل به زينتها، ممّا دعا الشعراء إلى وصفه كونه مظهرا جماليا حضاريا وقتذاك، وفيه قال أبو حيان الأندلسي[2]:

لَاحَتْ لَنَا وَلَهَا فِي سَاقِهَا خِلْخَالٌ وَقَدْ تَزَيَّنَ مِنْهَا خَدُّهَا بِالخَالِ

وقد وصف شاعر آخر الخلخال فقال[3]:

مَا بَالُ خِلْخَالَيْك قَدْ صَمَتَا وَمَا لِوِشَاحِكِ الجَوَّالِ فِي تَحْنِينِ

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحلي المصنوعة من الذهب كانت للطبقة الخاصة وكانت مزينة بالأحجار الكريمة والياقوت والجواهر النفيسة، أمّا الحلي المصنوعة من الفضة فكانت للطبقة العامة[4]، وكانت المرأة تتّخذ المرآة وسيلة تتأمّل بها محاسن وجهها، وفي هذا المنظر، قال ابن الأبّار[5]:

تَنَاوَلَتْ المِرْآةَ وَهِيَ صَقِيلَةٌ تَأَمَّلُ وَجْهَهَا دُونَهُ ذَلِكَ الصَّقْلُ

1- الإحاطة، ج1، ص: 139.
2- ديوان أبي حيان الأندلسي، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1969م، ص: 359.
3- التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي، ص:102.
4- ينظر الإحاطة، ج1، ص: 139.
5- ديوان ابن الأبّار، ص: 265.

فَلَمَّا تَنَاهَـتْ أَوْدَعَتْـهَا غِشَاءَهَا وَقَدْ حَدَثَ القِرْطَانُ وَاسْتَمَعَ الحِجْلُ

فَشَبَّهْتُهَا بَـدْرًا عَلاَهُ خُسُــوفُهُ فَأَظْـــلَمَ مِنْـهُ مَـا أَنَـارَ لَهُ قَبْلُ

يصف الشاعر تلك المرأة وهي واقفة بكلّ خيلائها أمام المرآة تتأمّل جمالها وتتخذ وسائل الزينة المختلفة من أقراط وخلاخل، ممّا زادها أبهة ونضارة، فإذا ما استكملت التزيين أسدلت الخمار على وجهها وخرجت من دارها، وقد صوّرها كالبدر المنير الذي علاه الخسوف فحجب نوره.

ج- صنع الحلويات:

يُعدّ صنع الحلويات من العادات الهامة التي اعتنت بها مجتمعات المغرب الإسلامي في هذه الحقبة، إذ إنّ المتأمّل في كتب الطبيخ المغربية والأندلسية، يلحظ أنّها تفرد لأطباق الحلوى قسما خاصاً بها وبالوصفات والكيفيات المختلفة التي تُعدّ بها، ولعلّ هذا التقسيم يعود إلى ما أدلى به أحد الباحثين من كون الحلوى من الأطعمة المرغوب فيها عند كل الطبقات والفئات الاجتماعية[1]، وكثيرا ما ارتبط صنع الحلويات بالأعياد والمناسبات المختلفة، فقد جرت العادة في يوم النّيروز الذي كان يحتفل به في شهر يناير استبشارا بالعام الجديد أن تصنع حلوى تسمى "المدائن" على شكل مدن مصغرة ذات أسوار،وتزين بالفواكه مثل الجوز والقسطل والتمر والبلوط[2]،وقد ذكر ابن سعيد مقطوعة للشاعر أبي عمران موسى الطيراني* يصف فيها تلك المدائن حيث قال[3]:

1- ينظر الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، إعداد: مريامة لعناني، إشراف: عبد العزيز فيلالي، جامعة منتوري، قسنطينة، ص:127.

2- ينظر الذيل والتكملة، السفر1، ص:565.

*شيخ نحوي أديب ظريف حسن المعاشرة والاستكثار من ممازحة الشباب وهو عفيف، وهو من طريانة المنارة التي أمام اشبيلية، توفي سنة (639ه)/ اختصار القدح المعلى،ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى، ص:202.

3- المصدر نفسه، ص:202.

مَـدِيـنَـةٌ مُـسَـــــوَّرَهْ تَـحَارُ فِيـهَا السَّـحَـرَهْ

لَـــــمْ تَـبْـنِــــــهَا إِلاَّ يَـدُ عَـذْرَاءَ أَوْ مُـخَدَّرَهْ

بَدَتْ عَـرُوسًا تُـجْتَلَى مِـنْ دَرْمَكٍ مُـزَعْـفَـرَهْ**

وَمَـــا لَـهَا مَــــفَاتِـحُ إِلاَّ البَـنَـانُ العَـشَـرَهْ

يبدو أنّ الشاعر قد أُعجب بهذه الحلوى التي اتخذت شكل مدينة، كما أشاد بيدي العذارى النّاعمة التي صنعتها، ويذكر أنّ هذه الحلوى قد صنعت من الدقيق الملتوت بالزيت المحكم العجن بالماء، وتتخذ أشكال أرغفة مفاريد أومثنيّات أو مثلّثات، ويتفنّن في نقشها، وتركّب بالبيض المصبوغ باللون الأحمر أو الأخضر أو الأصفر ثمّ تغمس في الزعفران وتطبخ في الفرن[1]، وقد تفننوا في صنعها وتزيينها بما أتيح لهم من أشكال الزينة المعروفة، وقد شبّه الشاعر جمال منظرها بالعروس المتألقة التي تخطف الأنظار، وقد اعتمد في صنعها على السكر بكميات كبيرة، لذلك كانت غالية الثّمن، وكان تناول هذه الحلوى يتمّ بأطراف أصابع اليدين لشدة طراوتها[2].

لم تكن حلوى المدائن وحدها ذات صيت، بل فاقتها المجبنات* شهرة، إذ جاء الحديث عنها في مصادر مختلفة، ونظمت فيها المقطوعات والقصائد العديدة وهذا ما يدل على شدة الاهتمام بها كما خصصت لها كتب الطبيخ جزءا ذكرت فيه أنواعها التي من أهمها ما كان

**الارمك: ناعم الزعفران ودقائقه، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص:294.

1- ينظر الذيل والتكملة، السفر1، ص:565.

2- ينظر الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين، ص:346.

*نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها، وتقلى بالزيت الطيب، نفح الطيب، ج1، ص:184.

من الجبن، لذا سميت المجبنة كما عرفت ببنت الجبن[1]، وقد تفنّن الشعراء في وصفها ووصف صانعيها وآكليها، وفي ذلك يقول موسى بن المناصف[2]:

وَسَفَّاجِينَ تَحْسِبُهُمْ مُلُوكًا   إِذَا صَعِدُوا مَنَابِرَهُمْ جُلُوسَا[3]

وَقَدْ ظَفِرُوا بِصَنْعَةِ كِيمْيَاءَ   وَلَيْسَ تَعِيبُ صَنْعَتَهَا الرَّئِيسَا

أَذَابُوا مِنْ عَجِينِهِمْ لُجَيْنَا   فَصَيَّرَهُ اللَّظَى تِبْرًا نَفِيسَا[4]

وَصَاغُوا لِلَّهَاةِ مُجَبَّنَاتٍ   تَكَادُ تُعِيدُ لِلْمَوْتَى النُّفُوسَا

تَعُودُ خُدُودُهُنَّ البِيضُ حُمْرًا   كَوَجْنَةِ مَنْ يُعِلُّ الخَنْدَرِيسَا[5]

استهلّ الشاعر أبياته بوصف صانعي المجبنات إذ جعلهم ملوكا وهم يمارسون صنعتهم ثمّ تطرّق لمراحل صنعها، وكيف يتغير لونها بالقلي من الأبيض إلى الأصفر فقال[6]:

حَشَوْا جُبْنًا بَوَاطِنَهَا وَرَقَّتْ   ظَوَاهِرُهَا فَرَاقَ لَهَا لَبُوسَا

جَلَوْهَا فِضَّةً تُزْهَى بِتِبْرٍ   مُذَهَّبَةٍ كَمَا تَجْلُو العَرُوسَا

تَرَى أَيْدِيهِمْ أَعْنَاقُ طَيْرٍ   وَأَنْمُلُهَا إِذْ اِجْتَمَعَتْ رُؤُوسَا

وَتَسْمَعُ فِي حُلُوقِ القَوْمِ مِنْهَا   إِذْ اِنْدَرَجَتْ بِهَا أَبَدًا حَسِيسَا

1- ينظر ألفاظ المأكل والمشرب في العربية الأندلسية، رجب عبد الجواد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ص:38.

2- الذيل والتكملة، ج5، ص:292.

3- سفاجين: جمع سفاج وهو الذي يعالج صنع المجبنات وقليها، المصدر نفسه، ص:292.

4- اللجين: الفضة، والتبر: الذهب.

5- الخندريس: الخمر القديمة، الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، ص:266.

6- الذيل والتكملة، ج5، ص:292.

إنّ تلك المجبّنات قد نالت اهتمام وإعجاب مجتمعات تلك الحقبة، فذكرتها كتب الطبيخ وسجّلت كيفية إعمالها وأماكن تواجدها، وفصلت في أنواعها حسب شكلها أو المواد الداخلة في تكوينها، كمجبنة البيض والمجبنة المثلثة، وهناك نوع آخر ينسب إلى منطقة طليطلة بالأندلس وهي المجبّنة الطليطلية[1]، وذكر المقّري مجبنة شريرش "من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم"[2].

وقد وصفها أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري فقال[3]:

ثَوَتْ فِي النَّارِ وَهِيَ مِنَ الجِنَانِ   فجاءت وردة مثل الدهان

مُجَبَّنَةٌ مُحَبَّبَةٌ إِلَيْنَا   يُشَجِّعُ ذِكْرُهَا قَلْبَ الجَبَانِ

لِفَرْطِ لُدُونَةٍ فِيهَا وَلِينٍ   تَكَادُ تَذُوبُ مِنْ لَمْسِ البَنَانِ

تَنَاوَلُ نَفْسَهَا الأَفْوَاهُ طَوْعًا   وَإِنْ هِيَ لَمْ تَنَاوَلْهَا اليَدَانِ

لَهَا صَخَبٌ إِذَا قُلِيَتْ وَقَلْبِي   لَهُ صَخَبٌ عَلَيْهَا غَيْرَ وَانِ

يبدو الشاعر معجبا بهذه المجبّنات فهي لينة تذوب بمجرد لمسها بأطراف الأصابع وهذا ما دعاه إلى حبّها، ومذاقها رائع كظاهرها يحيي النّفوس، أمّا صوت قليها فيحرك القلوب، وقد كانت تصنع من ربع جبن ونصف ربع دقيق بالإضافة إلى ربع الربع من الزيت، وترمى العجينة صغيرة الحجم في الزيت وإذا به يتضاعف لتكتسب اللون الأرجواني حتى إذا فتحتها وجدتها محشوة بالجبن[4]، وقد كانت تؤكل صباحا وهي ساخنة، لأنّها إذا ذهبت

1- ينظر الأسرة الأندلسية في عصر المرابطين والموحدين، ص:129.
2- نفح الطيب، ج1، ص:184.
3- الذّيل والتّكملة، ج1، ص:617.
4- ينظر الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين، ص:342.

حرارتها فقدت ذوقها الذي يستهوي الراغبين فيها لأنّ الجبن الذي أذابته الحرارة أمسى جامد وهو ما يفقدها لذتها، ولذلك قيل في المثل: "مُجبّنة الظُهْر خْرجْ نَارْهَا وْقَلّ طُلَّابْهَا"[1].

وممّا سبق يمكن القول إنّ مجتمعات المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري قد عرفت أشكالا عديدة من الحلوى تصنعها كل الطبقات، وبخاصة المجبّنات التي كانت تباع في الأسواق والطرقات ممّا دعا الشعراء إلى تسجيل هذه العادة كونها مظهرا حضاريا عرف آنذاك.

د- السياحة ورحلات الصيد:

كان الفرد المغاربي يُحبّ بلده ويتغنّى بجمالها ومحاسنها إلى درجة التعصب والمغالاة في إظهار فضائلها ومميزاتها[2]، غير أنّ ذلك لم يمنعه من التّرحال في مختلف البلدان، لمقاصد عديدة، فقد دعا الشعراء في القرن السابع الهجري إلى التنقل في مختلف الأقطار، يقول أبو عمران بن المناصف[3]:

سَـافِرْ بِلاَ زَادٍ وَلاَ مَرْكَـبٍ   مِنْ مَطْلِعِ الشَّمْسِ إِلَى المَغْرِبِ

وَخُضْ بِحَـارًا مَا عَـرْبَدَتْ   أَمْـوَاجُـهَا يَومًـا عَلَى مَـرْكَـبِ

وَجُبْ قِـفَارًا لَيْسَ تَعْيَا بِهَا   فِي جَـبَلٍ وَعْــرٍ وَلاَ سَبْسَـبِ

فَهَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي سَهَّلَتْ   سُبُلَ المَسَـافَاتِ فَلَمْ تَصْعُبِ

1- أمثال العوام، الزجالي، ج2، ص:343.

2- ينظر مظاهر الحضارة في الأندلس،أحمد محمد الطوخي، ص:97.

3- الذيل والتكملة، ج5، السفر8، ص:289-290.

يدعو الشاعر في هذه الأبيات إلى السّفر والتنقل في مختلف أقطار المعمورة شرقا وغربا برا وبحرا، دون الاكتراث بتوفير الزّاد والمركب، ولا ينبغي أن تثني المسافر سهول الأرض وجبالها وبحارها وصحاريها عن خوض غمارها ما دامت سبل المسافات قد يسرت، ولا شك أنّ حبّهم للأسفار عمّا فيه من فوائد ومزايا أشار إليها القدامى، يقول الإمام الشافعي[1]:

تَغَرَّبْ عَنْ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ العُلاَ وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ

تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

إنّ من يسافر يرى الجديد الممتع فتسعد نفسه ويزول همّه، وقد رأينا كيف يعود المسافرون بما يتيح لهم حياة سعيدة، ومنهم من حصل جوانب من العلم النافع والخبرة المثمرة، إلى جانب ما يحصل عليه المسافر من آداب المعاملة واللقاء والمعاشرة، ولا يخلو الأمر من اكتساب صداقات ذات فضل ومجد، لذلك قد بح صوت القدامى من كثرة ما دعوا إلى التغرب والسفر في طلب العلم والرزق، ومضى وقت كان الرجل يبكي حين يعلم أنّه قد وقع عليه الاختيار ليسافر إلى قطر من الأقطار حتى جاء الوقت الذي آمن فيه الجميع بفائدة السفر رجالا ونساء وشبابا وشيبا، فالسفر إذاً عادة موروثة عرفتها مجتمعات هذه الحقبة.

1- ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، مصر الجديدة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص:61.

ومن عادات مجتمعات هذه الفترة الخروج لرحلات الصيد التي كانت تقام في المنتزهات والرياض وعلى الأنهار، فهذا الشاعر أبو المطرف بن عميرة*، وصف رحلة صيد بنهر جزيرة شقر، فقال(1):

وَقَدْ امْتَطَيْنَا زَوْرَقًا فِيهِ فَقُلْ	صُبْحٌ تَمَشَّى فِي سَنَاهُ غَيْهَبُ
فَــتَرَاهُ طَــوْرًا طَـــائِرًا وَلَرُبَّمَا	ضُمَّتْ جَنَاحَاهُ إِلَيْهِ فَيَجْنُبُ
وَلَنَا شِبَاكٌ قَدْ تَجَاذَبَ غَزْلَهَا	ضِدَّانِ يَطْفُو ذَا وَهَذَا يَرْسُبُ
نَسَجْتْ كَنَسْجِ الدِّرْعِ لَكِنْ الرَّدَى	لَمْ يَعُدْ لاَبِسُهَا إِذَا مَا يَطْلُبُ
تُبْدِي لَنَا سَمَكًا أَرَادَتْ أَنْ يُرَى	حُسْنًا بِهَا فَلِأَجْلِهِ تَتَقَلَّبُ

بدأ الشاعر بتصوير هذه الرحلة بداية بوصف الزورق الذي يبحر ببطء ويصارع الأمواج كأنّه صبح قد اطلع وسط الضباب، فكلاهما يبدو ثمّ يختفي، وقد صوّر هذا المركب معتمدا على شراعه حين يزيد من سرعته فيفردها ويجمعها كيفما يقتضي الحال، مشبها ذلك بالطائر عندما يُحلّق في السّماء، ويرسم في البيت الثالث صورة لأصدقائه حين تقاسموا مهمة الصّيد، ففريق يرمي الشباك في البحر وآخر يخرجها مملوءة بالسّمك الوفير.

هـ- التّعازي:

إنّ الموت مصير كلّ كائن حيّ، قال الله تعالى﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾[الرحمن:26-27]، فمهما عاش الإنسان وطال عمره وتمتّع بالدنيا ومباهج

*أحمد بن عبد الله ابن عميرة المخزومي، شاعر وكاتب وفقيه، ولد بجزائر شقر في شهر رمضان المعظم سنة 580هـ، ورد مراكش رفقة الخليفة الرشيد، وتقلد القضاء، توفي ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذي الحجة سنة 658هـ/ نفح الطيب، ج1، ص:313-314-315.

1- المقتضب من كتاب تحفة القادم: ابن الأبّار، ص:200.

الحياة فلا بدّ له من يوم لا يوم بعده، والعاقل هو الذي يأخذ العبرة من مرور الأيّام والساعات، فكل يوم يمضي إلا ويقرّبنا من مصيرنا الذي لا بدّ منه، ولقد أحيط هذا الحدث في بلاد المغرب الإسلامي بعادات وتقاليد تشف عن رقي في التعامل في مثل هذه المواقف الجليلة[1]، فلم تكن المراسيم المتبعة في الجنائز مختلفة عمّا كانت عليه في سائر أنحاء العالم الإسلامي، فكان الموتى يُحملون في توابيت معدة لهذا الغرض، وكان النّعش يحمل على أعناق الأفاضل من الرجال[2]، وغالبا ما كان أهل المتوفى يضعون شاهدا رخاميا على القبر، فيكتبون عليه اسم المتوفى وتاريخ الوفاة وآيات من القرآن الكريم، وكان بعضهم يعد أبياتا شعرية تكتب على شاهد قبره قبل وفاته[3]، وكان الأهل والأصدقاء يشاركون في مراسيم الدفن، وتقبّل العزاء، فيعبّرون عن مشاعر الحزن والألم الذي أصابهم، ويتوجهون للتعزية بكلمات تخفف من هول المصيبة عند أهل الموتى[4]، وقد نظم الشعراء أبياتا في التعزية تقال لأهل الميت يحثونهم فيها على الصبر والرضى بالقضاء والقدر، تهدئة لخواطرهم وتسلية للمصاب، لأنّ الشخص في مثل هذه المواقف لا يحتاج سوى التشجيع والتصبر على ما حلّ به، وفي هذا قال الشاعر ابن سهل الأندلسي في رثاء الوزير أبي بكر بن غالب وتعزية ابنه محمد[5]:

وَإِنْ سَـدَّ بَابَ الصَّبْرِ حَادِثُ فَقْدِهِ　　لَقَـدْ فَتَحَتْ بَـابَ الجِـنَانِ وَسَـائِلُهْ

وَإِنْ ضَيَّعَتْ مَـاءَ العُيُـونِ وَفَـاتُهُ　　لَقَدْ حَفِظَتْ مَـاءَ الوُجُـوهِ نَـوَائِـلُهْ

1- ينظر التصوير الفني للحياة الاجتماعية: النوش، ص:427.

2- ينظر المرجع نفسه، ص:435.

3- ينظر الشعر الاجتماعي في عهد الموحدين، ص:61.

4- ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5- ديوان ابن سهل الأندلسي، دراسة وتحقيق: يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، ط3، 1424هـ-2003م، ص:87.

عَـزَاءً أَبَا بَكْرٍ فَلَوْ جَـامَلَ الـرَّدَى   كَـرِيـمَ أُنَـاسٍ كُنْتَ مِـمَّنْ يُجَـامِـلُهْ

وَمَا ذَهَبَ الفَرْعُ الَّذِي أَنْتَ أَصْـلُهُ   وَلاَ اِنْقَطَعَ السَّعْيُ الَّذِي أَنْتَ وَاصِلُهْ

يُشبّه الشاعر الصبر بالباب الذي يلج منه الناس، ولكن مُنِع الناس من الدخول من هذا الباب، وما المانع إلا مصيبة وفاة ذلك الوزير، فلم يَعُد أحد يتصف بهذه الصفة، ويبدو ابن سهل حزينا لإغلاق هذا الباب، كما وظف كلمة "سد" إشارة إلى إحكام إغلاق باب الصبر، ورغم إغلاقه إلاّ أنواع القربات لله عز وجل قد فتحت باب الولوج للجنة، كالتصدق عنه والدعاء له، وغير ذلك من أعمال الخير التي ثبت وصول أجرها للمتوفى، وقد عبّر الشاعر عن أنّ الذي أغلق أمامه شيء يسير (حادث) مفرد، أمّا الخير فعميم كثير (وسائله)، صيغة منتهى الجموع، فيعزي ذوي الميت بأنّ فقده خير له بدخوله جنة الخلد وخير لهم حيث فتح باب الجنان لهم، كما يوضح الشاعر أنّ المنية لا تجامل أحدا ولا يشفع عند الأجل أيّاً كان فلو كان ذاك لتقدم الشاعر يجاملها عسى أن تتركه بين أحبائه.

وقد تحدّث بعض الشعراء عن المكانة العظيمة للمعزى في الحلم والصبر[1]:

عَزَاءٌ جَمِيلٌ فِي الْمُصَابِ فَإِنَّكُمْ   جِبَالُ حُلُومٌ بَلْ طَـوَالِعُ أَنْجُـمِ

فَدَامَ لَكُمْ فِي العِزِّ شَمْلٌ مُنَظَّمٌ   وَشَمْلُ الأَعَادِي مِنْهُ غَيْرُ مُنَظَّمِ

خاطب الشاعر في هذين البيتين أبناء المتوفين، فحثّهم على التزام الصبر وعدم الجزع في هذه المصيبة التي نزلت بهم، ثم يثني عليهم بأنهم أصحاب عقول وأناة وتفكر أمثال الجبال بل هم قدوات الناس يتأسون بهم لأنّهم كالنجوم البارزة التي يهتدي بها الناس، وقد وصف الشاعر العزاء بالجميل ثمّ رسم صورة قوية فخمة للأناة والصبر حيث جعلها جبالا، مؤكدا

1- ديوان ابن حمديس، ص:485.

ذلك بالحرف (إنّ) ويظهر أنّ الصورة الأرضية لم تقنعه بل أراد أن تكون صورته علوية سماوية رفيعة فجعل ذوي المتوفين منارات يهتدى بها، وكأنّه بذلك يعزي ذويه ويدعوهم إلى أن يكونوا مثلهم.

وفي الحديث عن التعزية بالرضى بالقضاء والقدر نجد ابن الجيّاب في رثاء عمر بن علي ابن عتيق القرشي الهاشمي الغرناطي يقول[1]:

قُضِيَ الأَمْرُ فَيَا نَفْسُ اِصْبِرِي صَبْرَ تَسْلِيمٍ لِحُكْمِ القَدَرِ

وَعَــــزَاءً يَا فُــــؤَادِي إِنَّهُ حُكْمَ مَلِكٍ قَاهِرٍ مُقْتَدِرِ

حِكْمَةٌ أَحْكَمَــهَا تَدْبِيــرُهُ نَحْنُ مِنْهَا فِي سَبِيلِ السَّفَرِ

أَجَلٌ مُقَــدَّرٌ لَيْسَ بِمُسْـ تَقْدِمٍ يَوْمًا وَلاَ مُسْتَأْخِـرِ

أَحْسَنَ اللهُ عَــزَاءَ كُلَّ ذِي خِشْــيَةٍ لِـرَبِّهِ فِي عُمَــرِ

فِي إِمَامِنَا التَّقِيِّ الخَاشِعِ الطَّاهِرِ الذَّاتِ الزَّكِيِّ النَّيِّرِ

استهلّ الشاعر أبياته باقتباس من قوله تعالى﴿**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾[يوسف:41]، دلالة على حسم الأمر وعدم إمكانية التغيير أو التبديل فيه، ثمّ حثّ نفسه على صبر يسلم فيه بقضاء الله وقدره، ثمّ خاطب قلبه بأن يتسلى عمّا أصابه، لأنّ ما حلّ هو حكم الملك القهار، وما يفعله جلّ جلاله ذي الصفات الدالة على القهر والتمكين يضاف لها صفة العلم والخبرة بما ينفع الناس، في دنياهم وأخراهم، فهو جلّ جلاله قدر كل شيء بعلم ومعرفة لما ستؤول إليه عواقبها ونهاياتها، ثمّ يظهر دقة القدر فعمر الإنسان له نهاية محددة لن تتقدم يوما ولن تتأخر، قال الله تعالى﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا**

1- نفح الطيب، ج5، ص:455.

جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف:34]، ثمّ يدعو بالصبر لأهل التقى في فقيدهم المتصف بصفات أهل الإيمان من خوف الله وخشوع وطهر، حتى إنّه ليعتبر إماما وعلما بارزا من أعلام الإسلام.(1)

وتجدر الإشارة إلى أنّ شعر التعازي له محاور عديدة ولكن أغلبها يميل إلى حثّ أهل الفقيد على الصّبر ودعوتهم إلى الإيمان بقضاء الله وقدره، كما أنّ التفاف الأهل والأصدقاء حول عائلة المصاب كان يخفف من وطأة الكرب، وهي عادة عند مجتمعات المغرب الإسلامي تدل على مدى ترابطهم وتماسكهم من جميع الجوانب عند حلول النكبات.

ومن ثمّ يمكن القول إنّ كل ما سبق في هذا الفصل يُوضّح بجلاء تلك الحضارة الراقية التي عاشها أهل المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري، وشملت جوانب حياتهم المختلفة، فغدا مجتمعهم متحضرا راقيا منظما منضبطا، حرص أهله على التّمسك بكل ما من شأنه أن يرتقي بحياتهم في جوانبها المختلفة، سواء الجانب الديني أم العسكري أم المعماري أم الاجتماعي ويضمن رفعة حضارتهم، فمن خلال نماذجنا المدروسة ندرك أنّ مجتمعات هذه الحقبة قد حاولت التحلي بكل ما هو خير وأصيل والتخلي عمّا هو معيب ومشين يحبط تقدمهم ولا يخدم حضارتهم رغم الأوضاع السياسية المضطربة التي عاشها الأندلس بخاصة في هذا القرن.

1- ينظر شعر التعازي والقبور في الأندلس- المحاور والسمات الفنية، رسالة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، إعداد: أنور يعقوب زمان، إشراف:أد مصطفى حسين محمد عناية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا، فرع الأدب والبلاغة، 1431هـ -1432هـ، ص:189.



خاتمـــة

لقد أتاحت لنا هذه الجولة مع موضوع المظاهر الحضارية في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، أن نخرج بالنتائج الآتية:

- إنّ الحضارة هي تعبير عن كل منجزات أعمال الإنسان فكريا ووجدانيا وعمرانيا ليحقق ذاته ويطوّر مجتمعه، ويسهم في المسيرة الإنسانية وهي تشمل مختلف إنتاج الإنسان وعطاءه، كما تُعبّر عن مدى إسهام الشعوب والأمم في تنمية المجتمعات الإنسانية والتسامي بها.

- شهد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين قيام دول في مختلف أقطاره، تعددت عوامل قيامها وتنوّعت مشاربها الثقافية مشكلة بُنية حضارية متينة بقية معالمها إلى يومنا هذا.

- عرف المغرب الإسلامي في هذه الحقبة حركة علمية واسعة في شتى الميادين، وظهر فيه علماء أفذاذ كان لهم شأن في علوم عديدة.

- عرف الشعر ازدهارا كبيرا في هذين القرنين وتألّقت في سمائه كوكبة من أشهر الأدباء، ممّا أسهم في النّهضة الأدبية في هذه البلاد، فقد واكب الأحداث في شتى جوانبها وعبّر عنها في كلّ صورة من صورها متأثرا بالمستجدات التي أفرزتها الحياة اليومية، ناطقا بلغة بيئته ومستقصيا مواضيعه من الحياة اليومية.

- بلغت دول المغرب الإسلامي في هذه الحقبة مبلغا عظيما من الرقيّ والتفنن في البناء وبخاصة الموحدون، الذين أوجدوا لأنفسهم طابعا خاصا يميّزهم عن سواهم، ويعكس شخصيتهم المتميزة بالبساطة والمتانة والإتقان والسرعة في الإنجاز.

- صوّر شعراء هذه الفترة مظاهر الحضارة العمرانية المختلفة، وبخاصة القصور ولعلّ ذلك يعود إلى شغف الخلفاء بالبناء والتعمير والتشييد، ممّا دعاهم إلى تشجيع الشعراء على التّغنيّ بهذه المعالم المعمارية التي دلّت على إحكام في الصّنعة ودقّة التشييد.

- استطاع الشعر الذي تعرّض للعمران في هذه الحقبة أن يعكس نمطا متميّزا لتلك المعالم التي بقيت شاهدة على تلك الحضارة طوال قرون عديدة.

- لم يكن الشعر المتعلّق بوصف الحضارة العمرانية غرضا مستقلا لذاته وإنمّا استعمل الوصف إلى غرض آخر متمثّل في مدح الحاكم صاحب الإنجاز على نحو ما كان يفعل ابن حمديس.

- كشفت القصائد التي تعرّضت للفن المعماري عن حرف حضارية عرفت وقتذاك كالنّقش على الخشب ونحت التّماثيل وغير ذلك من الحرف والصنائع العديدة.

- تغنّى الشعراء بالرياض ومصادر ريّها كالدّواليب والنّواعير التي انتشرت في الحدائق والمنتزهات ووقفوا على حُسنها وبهائها، إضافة إلى الفوّارات والتّماثيل التي ازدانت بها قصور الخلفاء والأمراء، كما تغنّوا بالبرك الصناعية وصهاريج المياه، فأكثروا من التنويه بملامح بنائها وتنافسوا في وصفها كونها مصدر حياة وسببا من أسباب السعادة والرفاهية من جهة، وكونها نالت اهتمام الحكّام من جهة أخرى.

- تأسّست عدة مدن على أرض المغرب الإسلامي في هذه الحقبة وقامت بدورها الحضاري ممّا ساهم في دفع عجلة التّقدم بالبلاد، كما دعت الظروف المضطربة والنزاعات العسكرية إلى تشييد العديد من الحصون والأسوار في مناطق مختلفة من تلك البلاد.

- إنّ لروعة المعالم العمرانية وجمال بلاد المغرب الإسلامي وسعة ورفاهية العيش الذي أحاط بمجتمعات هذه الحقبة عامّتهم وخاصّتهم، أكبر الأثر في جنوحهم إلى مجالس الأنس والتسلية التي تفنّن الشعراء في وصفها، فسجّلوا ما يدور فيها من فرح وسرور، فذكروا السّقاة والنّدماء، وأماكن انعقادها، كما تفنّنوا في وصف الخمر وآنيتها باعتبارها جزءا من حياتهم المتحضرة وقتذاك.

- مجَّد شعراء هذه الفترة العلم وذلك بالحثّ على طلبه ومحبّة أهله، والإشادة بمجالسه والعناية بمظاهره والاهتمام بأدواته ووسائله إذ يُعدّ عاملا أساسا في بناء الحضارة وعنصرا مهمّا في التقدم والازدهار.

- يُعدّ شعر المولّديات مظهرا حضاريا ازدهر وشاع في القرن السابع الهجري بخاصة، وذلك بسبب الاحتفال بالمولد النبوي حيث كان الشعراء ينظمون قصائد المديح النبوي ويلقونها بهذه المناسبة، وتميز قصائد المولديات عن غيرها من الشعر بتعدد الأغراض والمواضيع إذ ينتقل الشاعر فيها من المقدّمة على اختلاف أنواعها إلى التخلّص ليجعله فاصلا بين المقدمة والغرض الرئيس، هذا الأخير الذي يحتوي مواضيع متعددة، يُبدأ فيه غالبا بذكر أوصاف النبّي صلى الله عليه وسلم، وفضائله وذكر مناقبه وعلوّ مكانته وتعداد معجزاته، لينهي قصيدته بخاتمة تعددت مضامينها بين طلب الشفاعة من النّبي عليه الصلاة والسلام، أو التشوق لرؤيته أو الحديث عن أهوال يوم القيامة أو الدعاء للخليفة إنْ أُلقيت بين يديه، وغالبا ما كانت تخصص للصلاة والسلام على النّبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وبذلك افتقدت القصيدة المولدية الوحدة الموضوعية فجاءت مركبة متميزة عن غيرها بكثرة عدد أبياتها، محافظة على شكل وأوزان القصيدة العربية.

- واكب الشعر الحروب والمعارك التي عرفتها دول تلك الحقبة، فسجل الوقائع والغزوات، والانتصارات والانهزامات، كما رصد مظاهر القوة المادية من وصف للأسلحة المتنوعة واستعراض الجنود أثناء الاحتفالات العسكرية وبذلك شكّل إضافة إلى المصادر التاريخية، وثيقة حضارية تصويرية مهمّة تفيد الباحثين في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي وآدابه.

- رصد الشعر الانتشار الواسع للحمّامات وفي ذلك دلالة على اهتمام مجتمعات هذه الحقبة بالنّظافة وبالخصوص الأندلسيون، إلا أنّ دور الشعراء في وصف هذا المظهر الحضاري لم يقتصر على الجانب العمراني فحسب وإنّما انصرف إلى التعبير عمّا يجول في خاطرهم من أفكار ومشاعر تراوحت بين الرضى عن هذا المعلم الحضاري والسّخط أحيانا على ما يُلاقيه الشاعر بداخله من سوء معاملة.

- لم يرق الشعر الذي طرق المساجد إلى مستوى وحجم ما أبدعه الخلفاء والأمراء في تشييدها والإنفاق عليها إلاّ أنّه راح يجري بكثرة على ألسنة الشعراء في إطار التحسّر والفجيعة على ما حلّ بهذا المعلم الديني بعد سقوط الدّويلات الإسلامية.

- صوّر الشعر في هذه الفترة مجموعة من العادات والتقاليد الاجتماعية التي عرفتها مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي وأقدمت على ممارستها بأسلوب يتفق مع رقيها الحضاري.

- لقد عبّر الشعر في بلاد المغرب الإسلامي عن لغة عصره وحضارته، فكان سجلا تاريخيا أمينا لما عاشه هذا العصر من أحداث في مناحي الحياة المختلفة.

- لقد كانت فترات المهادنة السياسية في بلاد المغرب الإسلامي هي أكثر الفترات ملائمة لازدهار الحضارة وتطوّر الفكر، فمتى ما توفرت الإمكانيات وتهيّأت الظروف المناسبة كان هناك مجال واسع للتطوّر والازدهار الفكري والحضاري.

وفي الختام أسأل الله عزّ وجل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، فقد حرصت على إخراجه في أحسن صورة وأبهى حلّة، فإن وُفقت فبفضل الله تعالى وحده، وإن كانت الأخرى فحسبنا بذل الجهد، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



موارد الدراسة:

أوّلا: المصادر والمراجع

ثانيا: الدّوريات

ثالثا: الرسائل الجامعية

رابعا: المواقع الإلكترونية

- **القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.**

أوّلا: المصادر والمراجع

1) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تح: بوزياني الدرّاجي، تقديم: دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر. 2009م.
2) إحياء علوم الدين، الغزالي، طبعة مصوّرة عن طبعة لجنة نشر الثقافية، 1975م.
3) اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى، اختصره أبو عبدالله بن عبدالله بن خليل، تح: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959م.
4) الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، د غازي طليمات، أ عرفان الأشقر، دار الإرشاد بحمص، ط1، 1412هـ/1992م.
5) أدب العرب، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، 1978-1979م، ط3.
6) الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
7) الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز محمد عيسى، مطبعة الاستقامة، د.ط، د.ت.
8) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني.
9) أزهار الرياض في أخبار عياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1359هـ/1940م.
10) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري، تح: محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، دط، دت.
11) أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها: حسن جبر، دار الكتاب الحديث، الجزائر، ط2، 1999.

12) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية: محمود الخالدي، دار الفكر، عمان، ط1، 1403هـ-1983م.

13) الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم السلامي، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، ط2، 1413ه/1993م.

14) أعلام تلمسان - مقاربة تاريخية فنية -أ.د محمد مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004م.

15) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط14، 1999م.

16) أعمال الأعلام: لسان الدين بن الخطيب،تح: أحمد مختار العبادي آخرون، دار الكتاب، الدار البيضاء.

17) إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986م.

18) الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين-عصر الطوائف الثاني- 510ه-546ه/ 1116م-1151م، عصمت عبداللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408ه-1988م.

19) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد بن محمد الشيرازي البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418ه.

20) أوراق الورد- رسائلها و رسائله - مصطفى صادق الرافعي، الطبعة العاشرة، 1402ه-1982م.

21) بغية الملتمس في تاريخ رجالأهل الأندلس للضبّي،تح: إبراهيم الأبياري،دار الكتاب المصري القاهرة،ط1، 1410ه-1989م.

22) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين بن عبدالرحمن السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، ط1، نشر سنة 1384هـ-1964م.

23) البيان و التبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.

24) البيئة الأندلسية و أثرها في الشعر: شلبي أسعد إسماعيل، نهضة مصر، القاهرة، 1978م.

25) تاج العروس للزبيدي، تح: عبدالعزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، 1970م، .

26) تاريخ ابن خلدون المسمى "ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، 2000م.

27) تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل أندري جوليان، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1978م.

28) تاريخ الاحتفال بالمولد من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول، حسن السندوسي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط1.

29) تاريخ الأدب الجزائري : محمد طمّار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

30) تاريخ الأدب العربي عصر الدول و الإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1.

31) تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم أبو الخشب، دار الفكر العربي، ط1، 1966م.

32) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسين الزيات، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

33) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1.

34) تاريخ الأدب العربي، عصر المرابطين و الموحدين، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م.

35) تاريخ الأدب العربي-الأدب القديم- عمر فروخ، دار العلم للملايين،بيروت،ط4، نيسان (أبريل)، 1981م.

36) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: أشياخ يوسف، تر: عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م.

37) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ، ترجمه وعلق عليه: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1417هـ-1996م.

38) تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت،ط6، 1983.

39) تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن بن محمد الجيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون.

40) تاريخ الدولة الزيانيةبتلمسان لابن الأحمر، تقديم وتحقيق وتعليق، هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد،ط1، 1421هـ/2001م.

41) تاريخ الدولتين، الموحديةوالحفصية: لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تح:الدكتور محمد ماضور ، مطبعة المكتبة العتيقة، تونس ،ط2، 1966م.

42) تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي، عبد الرحمن حسين العزاوي، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1432هـ/2011م.

43) تاريخ المغرب العربي، عبدالواحد ذو نون طه، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م.

44) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د حمدي عبدالمنعم محمد حسين، مؤسسة شباب الجامعة، ط1986م.

45) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري: تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع، د.ت، د.ط.

46) تاريخ الموسيقى الأندلسية، عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ط1، 1969م.

47) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/2009م.

48) التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين، محمد علي أحمد قويدر، مكتبة الثقافة الدينية، الفصل الرابع، المعاملات المالية والتجارية.

49) التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي، سعد بن ماشي بن عودة العنيزي،كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون أول، 2012م.

50) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ط. د.ت.

51) التعريفات، أبي الحسن علي بن محمد الشريف، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق.د.ط، د.ت.

52) تلمسان في العهد الزياني، عبد العزيز فيلالي، مونم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ج1.

53) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، عبد الرحمن أبو الفرج بن رجب الحنبلي، تح: ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، ط1، 1429هـ/2008م.

54) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1، 1414هـ-1994م.

55) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البرذوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384ه/1964م.

56) الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد بن عبدالعزيز السليمان القرعاوي، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر ، 2004م.

57) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس: أحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973م .

58) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة: إبراهيم التهامي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1426هـ-2005م.

59) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، ط27، 1389هـ-1969م.

60) الحضارة:حسين مؤنس، عالم المعرفة، العدد الأول، الكويت، ط2 ،1398هـ/1978م.

61) الحضارة الإسلامية -أسسها ومبادئها-:أبو الأعلى المودودي، تر:محمد عاصم الحداد، تقديم : محمد عبد الحكيم خيال، دار الخلافة ، د.ط.

62) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس-عصر المرابطين والموحدين-: حسن علي حسن، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1980م.

63) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط2، 1406هـ-1986م.

64) الحضارة العربية الإسلامية: الربيعي بن سلامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2009م.

65) الحضارة العربية الإسلامية: سلامة صالح النعيمات، الشركة العربية المتحدة للتسويق،القاهرة، 2009م.

66) حضارة الموحدين، محمد المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م.

67) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، دار مكتبة الحياة، بيروت.

68) الحنين إلى الأوطان: أبي منصور محمد بن سهل المرزبانيالكرخي، تح: جليل عطية، دار الحرية للطباعة، بغداد، د.ت.

69) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، العماد الأصفهاني الكاتب. د.ط، د.ت.

70) الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي- دراسة تحليلية نقدية- محمد مرتاض، دار الأوطان للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م،ج1،ج2.

71) دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتاوي و إبراهيم زكي خورشيد و عبدالحميد يون، دار الفكر، بيروت، لبنان.

72) دراسات في الأدب الجاهلي، عبد العزيز نبوي، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ط2، 2003م.

73) دراسات في تاريخ المغرب، محمد زروق، دار البيضاء، ط1، 1991م.

74) الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، رشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر،1397هـ/ 1977م.

75) الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي : عبد الله علي علام، دار المعارف، مصر، 1971م.

76) دولة الموحدين : علي محمد محمد الصلابي، دار البيارق للنشر، عمان،د.ط،د.ت.

77) ديوان ابن الأبّار، أبي عبد الله محمد بن الأبّارالقضاعيالبلنسي (658هـ)، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1420هـ/1999م.

78) ديوان ابن الزقاق البلنسي، تح: محمد ديراني، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت.

79) ديوان ابن اللبانة الداني، مجموع شعره، جمع و تحقيق: محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2008م.

80) ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له د: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط.

81) ديوان ابن خفاجة، شرح د: عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، لبنان.

82) ديوان ابن سهل الأندلسي، دراسة وتحقيق: يسري عبدالغني عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ-2003م.

83) ديوان ابن منير الطرابلسي، تح: عمر عبدالسلام، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1426هـ-2005م.

84) ديوان أبي الحسن الششتري (شاعر الصوفية الكبير في الأندلس و المغرب)، تح: علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط1، 1960.

85) ديوان أبي الصلت: أميّة بن عبد العزيز، جمع و تحقيق: محمد المرزوقي، دار بوسلامة للطباعة والنشر و التوزيع، تونس، 1974م.

86) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1414هـ/1994م.

87) ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته، أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة (525هـ)، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1963م.

88) ديوان الأعمى التطيلي: أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، تح: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان.د.ط، د.ت.

89) ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبدالله الموحدي، تح: محمد بن تاويتالطنجي، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، د.ط، د.ت.

90) ديوان الجراوي، أبي العباس أحمد بن عبد السلام، دار سعد الدين، دمشق، 1994م.

91) ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي ﷺ، للوزير الفاضل أبي زيد عبدالرحمن الأندلسي، مكتبة المنار تونس، 1378هـ/1958م.

92) ديوان الرصافي البلنسي، أبي عبدالله محمد بن غالب، جمعه وقدم له: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط3، 1403هـ-1983م.

93) ديوان الرصافي البلنسي، جمعه وقدم له: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م.

94) الذّيل و التكملة: ابن عبد الملك المراكشي، تح: إحسان عباس، محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م.

95) رايات المبرزين وغايات المميزين لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م.

96) الرائد : معجم لغوي عصري: جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، آذار/مارس1992م.

97) روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: ابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة، الرباط.

98) الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي: محمد عبد المنعم الحميري، تح: إحسان عباس، مطابع هيدربلغ، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

99) الروض المعيار في أخبار الأقطار، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري؛ دار الأجيال بيروت، 1988م.

100) زاد المسافر و غرّة محيا الأدب السافر: لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبيالمرسي، تح: عبد القادر محداء، بيروت، 1358ه- 1939م.

101) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تح: مصطفى عبد الواحد، القاهرة، ط1، 1418ه/1997م، ص439.

102) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1402ه/1982م.

103) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، تحقيق، مجموعة محققين بإشراف: الشيخ شعيب الأرنؤوط، 1422ه-2002م.

104) السيرة النبوية لابن هشام، علق عليها وخرج أحاديثها وصنع فهارسها: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1410ه /1990م.

105) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح، تح: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1406ه-1986م.

106) شرح السنة، أبو محمد الحسين بن خلف البربهاري.

107) شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية: يحيي بن شرف الدين النووي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1982م، ط2.

108) شعر ابن مجبر الأندلسي، جمع و دراسة و تحقيق: محمد زكريا عناني، دار الثقافة، بيروت، ط1، 2000م.

109) شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا و التشكيل)، أ.د مختار حبار، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م.

110) الشعر الاجتماعي في عهد الموحدين، نضال السالم، عن رسالة إسماعيل بن محمد الشقندي، نشرها: صلاح الدين المنجد، في كتاب فضائل الأندلس، بيروت، 1968م.

111) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، ط1، 2007م.

112) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، ط1، 2007م.

113) الشعر العربي بالمغرب في عهد الموحدين، موضوعاته ومعانيه، علي إبراهيم كردي، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث،ط1، 2010م.

114) شعر عمر بن أبي حربون الشبلي، علي الغريب الشناوي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2004م.

115) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، دار الرشيد، بغداد، 1980م.

116) شعراء الجزائر على عهد الدولة الحمادية، يسير ونصوص، مختار حبار، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 1988م.

117) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، الخفاجي شهاب الدين أحمد بن عمر، تح: محمد كشاش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418ه-1998م.

118) صحيح سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تأليف: محمد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1417هـ،1997م.

119) صحيح سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1419هـ-1998م.

120) صحيح سنن التّرمذي، محمد بن عيسى التّرمذي، تأليف: محمد ناصر الدّين الألباني مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1420هـ،2000م.

121) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، لبنان، مصر، ط1، 1435هـ/2014م.

122) صحيح مسلم، ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى للنشر والطبع والتوزيع، ط1، 1434هـ/2012م.

123) الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م.

124) الطبيعة في الشعر الأندلسي، جودت الركابي، مطبعة دار الشرقي، دمشق، ط2، 1970م.

125) العشاق الثلاثة، زكي مبارك، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، مصر، دط، دت.

126) عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، المدينة النبوية، 1414هـ، ص279.

127) العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين، محمد المنوني، دار المغرب للتأليف و الترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ-1977م، ط2.

128) العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، عبد العزيز سالم،عالم الفكر،الكويت، 1984م.

129) العمدة في محاسن الشعر و آدابه، ابن رشيق القيرواني، تح: عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422ه/2001م.

130) عنوان الدراية: أبو العباس الغبريني،تح: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت،ط2، 1979م.

131) الغزل تاريخه و أعلامه، جورج غريب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1960م.

132) الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية،بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

133) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة، أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تح: إبراهيم الإبياري، دار المعارف بمصر.

134) الغنية(فهرست شيوخ القاضي عياض): القاضي عياض، تح: زهير جرار ماهر، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط1، 1982م.

135) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المكتبة السلفية، دط، دت.

136) الفخر في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

137) في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر للطباعة و النشر، دمشق، ط1، 2000م.

138) في الأدب و فنونه: علي بو ملجم، المطبعة العصرية للطباعة و النشر، لبنان، د.ت.

139) قادة فتح بلاد المغرب: محمد شيت خطاب، دار الفكر، ط7، 1404هـ/1984م.

140) القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق: الإدريسي، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 1983م.

141) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1426هـ-2005م.

142) قصة الحضارة: وول ديورانت،William James Durant تر: محمد بدران،لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1967م.

143) القصيدة الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، الظواهر والقضايا والأبنية، عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية العلوم الإسلامية، ليبيا، ط1، 1996م.

144) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح محمد بن عبدالله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان ت529هـ، حققه وعلق عليه: حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ط1، 1409هـ-1989م.

145) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، من سنة 562هـ لغاية سنة 628 للهجرة، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1424هـ-2003م.

146) كتاب السحر والشعر، لسان الدين بن الخطيب، تح: المستشرق الألماني: كونتتهبيرير، راجعه ودققه: محمد سعيد اسبر، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2006م.

147) الكليات معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية: أبي البقاء بن موسى الحسيني، مؤسسة الرسالة، ط1، 1992م.

148) لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م.

149) مجاني الأدب في حدائق العرب، جمع أحد الآباء اليسوعيين، مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت، نشر عام 1913م.

150) مختارات من الشعر الأندلسي، جمعها وحققها د أ ر نيكل، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1949م.

151) المداح النبوية في الشعر الأندلسي، فاطمة عمراني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م.

152) المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، د.ت.

153) مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت.

154) المديح، سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.

155) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان بن محمد القاري، دار الفكر للطباعة والنشر.

156) المزهر في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى و علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

157) مسلك أهل الفطن من معاني قصيدة مالذة العيش لأبي مدين: عمر بن سالم بن حفيظ، دار المصطفى، ط1، 1433هـ-2012م.

158) مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر: أحمد محمد الطوخي، تقديم: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1997م.

159) معالم حضارات الشرق الأدنى والقديم: عصفور محمد أبو المحاسن، دار النهضة العربية، بيروت،ط2،1987م.

160) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لأبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، شرحه واعتنى به الدكتور:صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية صيدا،بيروت، الطبعة الأولى1426هـ-2006م.

161) معجزات النبي المختار من صحيح الأخبار: ابن خليفة علوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـ-1991م.

162) معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان، ط2، 1400هـ-1980م.

163) المعجم الأدبي: جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م.

164) معجم البلدان: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت، نشر سنة 1397هـ/1977م.

165) المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، سعاد الحكم، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981م.

166) المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

167) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ-2004م.

168) المعجم الوسيط، لجنة التأليف: د ناصر سيد أحمد، د مصطفى محمد، محمد درويش، أيمن عبدالله، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1429هـ-2008م.

169) المغرب العربي في العصر الإسلامي، محمد حسن العيدروس، دار الكتاب الحديث للنشر، القاهرة، ط1، 2009م.

170) المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1420هـ-2000م.

171) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، حققه و علق عليه: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4.

172) المغرب والأندلس في عصر المرابطين : إبراهيم القادري بوتشيش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993.

173) مفهوم الحضارة: د. بدران بن الحسن، مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، الخميس، ذو القعدة 1424/الموافق 25 ديسمبر 2003م.

174) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، شرحها: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المعاهد، مصر، 1342ه/1923م، المقامة الحلوانية.

175) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، تح: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، 1399ه-1979م.

176) المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الآبار، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1410ه-1989م.

177) المقدمة:ابن خلدون،تح: علي عبد الرحمن وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1960م،د.ط.

178) المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، عبد الملك بن صاحب الصلاة، تح: د. عبدالهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987م.

179) من شعر المديح النبوي: الحسين النور، منشورات جامعة الخرطوم، السودان، ط1، 1995م.

180) منظوم القلادة لابن جبير: سلوى ناظم، دار المستقبل، 1989م.

181) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1966م.

182) المنهاج في الأدب العربي و تاريخه: عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، 1960م.
183) المهدي بن تومرت: عبد الحميد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.
184) موجز تاريخ الحضارة: حاطوم نور الدين وأخرون، مطبعة العروبة،دمشق، 1964م.
185) المولد النبوي الشريف، صلاح الهواري، دار البحار، بيروت، لبنان،ط1، 2005م، ص05.
186) المولديات في الأدب الجزائري القديم، عهد تلمسان الزيانية، أحمد موساوي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، د.ط، 2008م.
187) المولديات في الأدب المغربي، محمد المنوني، مجلة دعوة الحق، ع7، 1957م.
188) النبوغ المغربي لعبد الله كانون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961م.
189) نشأة الموشحات الأندلسية، تطورها و أقسامها و لغتها، كتاب الموشحات الأندلسية، محمد زكريا عناني، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، 1980م.
190) نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان: أبي محمد حسن بن علي بن محمد عبد الله الكتامي المعروف بابن القطان، تح: محمود علي، دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت، 1990م.
191) نفح الطّيب: شهاب الدين أحمد المقّري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1949.
192) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري(ت733ه)، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

193) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تح: محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي، الناس المكتبة الإسلامية، ط1، 1383ه/1963م.

194) الهجاء في الشعر العربي: سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان،دت

195) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد بن تاويت، نشر و توزيع دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1402ه-1982م.

196) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل الصفدي، تح: أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي،بيروت،لبنان،ط1، 1420ه/2000م،ج22،ص: 98.

197) وجهة العالم الإسلامي :مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، بيروت، ط،1986م.

198) وفيات الأعيان و أنباء الزمان، أبي العباس شمس الدين بن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1978م.

199) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972م.

ثانيا: الدّوريات:

1) مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، **وصف الحمامات في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية**، د.محمد يوسف بنات، م23، ع2، جوان2015، عن أبي العباس أحمد بن شكيل الأندلسي "شاعر شريش"، ص45.

2) مجلة الفضاء المغاربي، دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، **فن المولديات في الشعر المغربي القديم**، أ.د محمد مرتاض، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ع 8-9، شعبان 1435ه/ماي2014.

3) مجلة الفيصل "مجلة ثقافية شهيرة"،**الحمامات في الأندلس**، د صلاح الجرار، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ع40، 1980م.

4) مجلة المخبر، أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، مقال بعنوان: **الاستنجاد وأشكاله في الشعر الجزائري القديم**، د. فاطمة دخية، العدد الثاني عشر، 2016م.

5) مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، **الدواليب والنواعير في شعر المشارقة والأندلسيين، دراسة مقارنة**، محمد يوسف بنات، م4، ع1، جمادى الآخرة 1438ه-آذار 2017م.

6) مجلة تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، **الأوضاع الثقافية والأدبية في عهد المرابطين:** عبد الكريم التواتي، الرباط، المغرب، العدد7.

7) مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، مقال بعنوان: **المظاهر الحضارية في شعر الوصف على عهد الموحدين**، إعداد: سعيدات فايزة، جامعة تلمسان، سلطان دار الخلدونية للنشر والتوزيع، العدد 21/ ماي2017.

8) الملتقى الدولي الحادي عشر حول التصوف والتحديات المعاصرة، **نشأة الطرق الصوفية بالجزائر**،دراسة تاريخية: عبدالرحمن تركي،منشورات جامعة أدرار، المطبعة العربية غرداية، 2008م، ع1، ج2.

ثالثا: الرسائل الجامعية

1) التأثير الإسباني في المجتمع الأندلسي وصورته في الأدب، رسالة ماجستير، إعداد نوال الدسوقي، إشراف: صلاح جرار، الجامعة الأردنية كلية الدراسات العليا، 1996م.
2) التحولات المذهبية في المغرب الإسلامي والأندلس خلال العصر الموحدي(6هـ/8هـ): مغزاوي مصطفى، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2011-2012م.
3) الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن 6ه إلى نهاية القرن 7ه، رسالة دكتوراه، إعداد: فايزة سعيدات، إشراف: أ.د محمد مرتاض، جامعة تلمسان، 2017م-2018م.
4) الشعر الاجتماعي في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، نضال سالم النوافعة، جامعة مؤتة، عمادة الدراسات العليا، رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير، 2004م.
5) شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري، سلسبيل محمد محمود نوفل، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2009م.
6) شعر التعازي والقبور في الأندلس- المحاور والسمات الفنية، رسالة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، إعداد: أنور يعقوب زمان، إشراف:أد مصطفى حسين محمد عناية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية/ قسم الدراسات العليا، فرع الأدب والبلاغة، 1431ه -1432ه.

7) الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم نشأته وتطوره، مذكرة ماجستير،في الأدب العربي، إعداد: عبدالرحمن عبّان، إشراف: د.العيد جلولي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 1427-1428ه/2007م-2008م.

8) الشعر التعليمي في العصور الأربعة الأولى الهجرية، عصمت عبد الله غوشة، رسالة دكتوراه 1970م، جامعة القاهرة.

9) الشعر الديني الجزائري القديم في القرون السابع و الثامن و التاسع الهجرية، موضوعاته و خصائصه، أطروحة دكتوراه في اللغة و الأدب العربي، زينب قوني، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2015/2014.

10) الشعر في حاضرة بجاية الحمادية، وداد حلاوي، ماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة باتنة، 2004م/2005م.

11) الصورة الشعرية في شعر ابن حمديس رسالة ماجستير في اللغة العربية، إعداد الطالب: كاوة اسماعيل عبدالله، إشراف د: صاحب رشيد موسى، جامعة السليمانية، العراق، 1428ه-2008م.

12) الطرق الصوفية في الجزائر و بلاد المغرب و دورها في نشر الوعي والإخاء والتضامن الاجتماعي، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، بن حدة يوسف، إشراف: أد مكحلي محمد، جامعة سيدي بلعباس، قسم التاريخ، 2011/2010م.

13) قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، صونيا بوعبد الله، إشراف علي عالية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، قسم اللغة العربية وآدابها، 1431-1432ه/2010-2011م.

14) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، دراسة أسلوبية، عبد القادر البار، إشراف: أحمد جيلالي، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، قسم اللغة العربية وآدابها، 2011-2012م.
15) المغرب الأوسط في عهد الموحدين، علي عشي، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، السنة الجامعية 1433هـ-1434هـ/2011م-2012م، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية والإسلامية، تخصص: تاريخ وعلم الآثار.
16) المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، ليلى أحمد نجار، إشراف: أحمد السيد دراج، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية، 1409هـ/1989م.
17) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية فنية، دكتوراه، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، 1996م.
18) نزعة الزهد في الشعر الأندلسي - من الفتح إلى نهاية الدولة - الطالبة: مشاعر عباس أحمد، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية.

رابعا: المواقع الإلكترونية

1) الموقع الالكتروني: www.alukah.net، مقال الشيخ عبدالقادر شيبة، تاريخ الإضافة 1439/02/08هـ، 2017/10/25م.
2) الموقع الإلكتروني:www.ar.islamway.net، مقال **كنوز وأجور الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم**، 2016/12/25، حسين أحمد عبد القادر.
3) الموقع الالكتروني:www.ahewar.org، دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، أساطير السماء -برج الأسد- ، محمد زكرياء توفيق، 2015/07/22.



الفهارس:

1) فهرس الآيات القرآنية
2) فهرس الأحاديث النّبوية
3) فهرس الأعلام
4) فهرس الأماكن والبلدان
5) فهرس الأشعار
6) فهرس المواضيع

فهرس الآيات القرآنية:

فهرس الأحاديث النبوية:

فهرس الأعلام:

فهرس الأماكن والبلدان:

الفـــــــــــهارس:

فهرس الأشعار:

فهرس الموضوعات:

ملخص:

يتضمّن هذا البحث المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي في الفترة التي تشمل القرنين السادس والسابع الهجريين وهو عصر ازدهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي، فحاولت الدراسة أن تقف على أهم المظاهر الحضارية التي عرفتها هذه الحقبة كما صوّرها الشعراء في أشعارهم، باعتبار أنّ الشعر وثيقة حضارية تتجلى فيها عادات وتقاليد وإنجازات مجتمعات تلك البيئة في عديد الميادين.

الكلمات المفتاحية: شعر- مظاهر حضارية- مغرب إسلامي- القرن السادس الهجري- القرن السابع الهجري.

Résumé :

Cette recherche comprends les apparences civiques a la poésie du Maghreb islamique à la durée du deux siècles 6ème et 7ème de l'higire c'est une époque où la civilisation arabo-islamique au pays Maghreb islamique cet étude essayera a arriver aux importants apparences civiques connues à cette époque comme les poètes ont décrit dans ces poèmes dirant que la poésie est un document civique dont paraitrent les cotùmes ; les traditions et les constructions des sociétés de cet environnement dans plusieurs domaines.

Mots clés : poésie - apparences civiques - maghreb islamique - 6ème et 7èmeSiècle

Abstract:

This researchcontain civilizedappearances of Islamic Maghreb poetry in theepochwithin the twocenturies 6th and 7th of higire ; thatis an agewherearabo-islamiccivilizationprosperedin the state of the Maghreb Islamic ; This studytried to arrive to importants civilizedappearances in thisepoch as likepoetsdiscribeit in theirpoems ; where thepoetrycivilizedpaperseem in it customs ; traditions and constructions thesocieties of thisenvironment in domains.

Keywords: poetry- civiliziedappearances-IslamicMaghreb - 6th and 7th century

ملخص مذكرة التخرج لنيل شهادة الدكتوراه

الموسومة:

المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القرن السابع الهجري

-مقاربة تاريخية وصفية تحليلية-

إعداد الطالب:

طه شقرون

إشراف أ د:

محمد مرتاض

لقد عرفت الحركة الشعرية ببلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين نشاطا كبيرا شمل مختلف الأغراض الشعرية رافقته غزارة في الإنتاج على الرغم من ضياع عديد الدواوين، وهذا يعود إلى حس الشعراء المرهف الذي كان يتفاعل مع مختلف الظروف المحيطة بهم كما شهدت الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية تطورا كبيرا نتيجة للوضع الأمني والاستقرار السياسي في كثير من الأحيان، وكذا تشجيع الحكام للمفكرين والأدباء، وهذا ما ألقى بظلاله على الجانب الحضاري، فجاء التراث الأدبي للمغرب الإسلامي لا يخل من مظاهر حضارية كانت شاهدة على ما بلغته الأقطار المغاربية من رقي وازدهار حضاري في عديد الميادين، ولمّا كان الأدب - بخاصة الشعر منه - شاهدا ومسجلا لتلك المظاهر الحضارية مادية كانت أم معنوية، وركحا على ما أثبتناه فقد جاء موضوع هذا البحث موسوما: **"المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القرن السابع الهجري"** سعيا للكشف عن المظاهر الحضارية كما تجلت في شعر المغرب الإسلامي إبّان هذه الفترة، وقد كان ميولي للأدب عامة والشعر خاصة دافعا لاختيار هذا الموضوع إضافة إلى جديته لما له من أهمية في التأسيس والتأصيل لشعر المغرب الإسلامي في فترة معينة، فهو من وجهة يشتمل على مدخرات نفيسة من الأشعار التي تمت بصلة إلى الجانب الحضاري؛ والتي كان لابد من إظهارها والوقوف على موضوعاتها وجمالية نظمها وإجلاء مظاهر التحضر من طياتها، ومن وجهة أخرى موضوع تدور أحداثه في القرنين السادس والسابع الهجريين. هذه الفترة تُعدّ أهلا للدراسة والبحث، لما عرف عنها من بؤرة للنشاط الثقافي والحضاري في هذه البلاد ونقلة نوعية لحالة الاستقرار السياسي - في كثير من الأحيان- الذي انعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية فيها، كما أنّ هذا الموضوع يهدف إلى رفع شأن شعراء المغرب الإسلامي بتبيان قدرهم ومكانتهم الأدبية والاجتماعية من خلال التطرق لتراثهم الأدبي.

ولذلك رسمنا خطة مكونة من مقدمة ومدخل وثلاثة فصول ثمّ خاتمة.وقد وظفنا في هذا البحث المنهج الوصفي القائم على التحليل لاستنباط المظاهر الحضارية ومعرفة ما إن كان الشعر مواكبا لها في عصره، كما استعنا بالمنهج التاريخي عند العودة إلى أحداث تاريخية معينة.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع المهمة كنفح الطيب للمقري، وزاد المسافر ومحيا الأدب السافر للتجيبي، والذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وكتاب الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين لحسن علي حسن، وكتاب الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي للأستاذ الدكتور محمد مرتاض، إلى غير ذلك من المؤلفات، كما ننوه بما يصدره مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي بجامعة تلمسان من بحوث ودراسات، وبما تحتويه مكتبته الزاخرة بأنواع المصنفات والدواوين التي دعمت الأدب العربي وأشاعت مناقبه.

ولكلّ دراسة علمية صعوبات وعقبات، فكان أهمّ ما واجهنا منها: الإلمام بمظاهر الحضارة كلها في القرنين السادس والسابع الهجريين، فهي مظاهر متعددة في مجالات مختلفة يصعب أن تضمّها جنبات دراسة كهذه، كما أنّ الدراسات المتخصصة في هذا النّوع قليلة جدا إن لم تكن شِبه منعدمة، ولم تمس بعض جوانبها إلاّ عبر مقالات مقتضبة في دوريات أو مواقع إلكترونية، بالإضافة إلى عدم ضبط أغلب الآثار الشعرية بالشكل، وهو ما صعب الغوص في معانيها، وهذا يدل على أنّ تراث المغرب الإسلامي بحاجة إلى خدمة كبيرة واهتمام بالغ وبذل جهود عظيمة لإبرازه وإخراجه، ما بين تحقيق لمخطوطاته وجمع لمادته وتحليل لها.

ففي المدخل تطرقنا إلى إبراز مفهوم الحضارة من خلال تعريفها لغة واصطلاحا، وذكر بعض الآراء المتباينة والمتقاربة حول مفهومها حيث كان إيجاد تعريف دقيق لها، جامع مانع من المهام الصعبة المنال، ثم انتقلنا إلى توضيح بعض الفروق بينها وبين المدنية والثقافة، ثمّإنّ

الحديث عن بلاد المغرب الإسلامي استلزم إعطاء فكرة تاريخية عنها في تلك الحقبة من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية حتى نستطيع معرفة واقع البيئة التي عاش فيها شعراء هذه الفترة لأنّ ذلك يفيد في معرفة المجتمع وأنماط تفكيره ونتاجه الحضاري. وقد استلزم ذلك أن تندرج هذه الدراسة المدخلية تحت عنوانين الأول عن **مفهوم الحضارة**، والثاني في الكلام عن **حال بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين**، وقد قدمنا لها **بلمحة عن الحضارة وتاريخ بلاد المغرب الإسلامي**.

وفي الفصل الأوّل وقفنا على مضامين شعر المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث عرضنا فيهما بحسب الشعراء للأغراض الشعرية التي شهدت رواجا في تلك الحقبة ومثلنا لها بأبيات شعرية وشرحناها وذلك لإبراز معانيها واستكشاف مدى تطورها واستخلاص سماتها في تلك الحقبة، فقد تنوّعت موضوعات الشعر في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين وفقا لتنوع الشعر المشرقي،فقد أقدم شعراء هذه البلاد على النظم في أغراض عديدة استطاعوا من خلالها تصوير واقع بيئتهم والتعبير عنها بما ينسجمومزاجهم الخاص؛ ويتناغم وأحوالهم الحياتية، فقد ازدهرت الحركة الشعرية إبّان هذا العصر بصورة واسعة،من ذلك:**الشعر التعليمي، والزهدوالتصوف، والمدح والمدائح النبوية، والرثاء، والغزل، والفخر، والهجاء، والشوق والحنين، والوصف، والموشحات،والأزجال.**

فبالنسبة **للشعر التعليمي**فقد قام الشعراء المثقفون بنظم العلوم والمعارف والسيروالقصص والأخبار بقصد تيسير حفظها، وتقريب معانيها إلى الطلاب و الدارسين، ولم تقتصر على موضوع بعينه، وإنما تعدت إلى معالجة موضوعات شتى في الدين واللغة والنحو والفقه والسير، وقد كانلبلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين كذلك نصيبها من ذلك ما أفرز شعرا كثيرا ذكرناه في موضعه، ثم كان مما برز غرض **الزهد والتصوف**إذ إنّ النزعة الزهدية والصوفية وتجاربها الفكرية والروحية والسلوكية عموما قد رافقها تجارب شعرية

غزيرة؛ و لقد كان لأشعار الزهد والتصوف في بلاد المغرب الإسلامي نصيب في إقدام الشعراء عليه بمختلف أشكاله، ثم **المدح**الذي يشكل ديوانا كبيرا، وموقعا متميزا وهاما من أدبنا العربي، فهو من أكثر الفنون الأدبية شيوعا، مال إليه معظم الشعراء و نظموا فيه القصائد الكثيرة، وعرف هذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين ازدهارا لا مثيل له، فالشاعر المغربي قد أعجب بالأخلاق الحميدة والشجاعة الفائقة والكرم الواسع فلم يفته الثناء على رجال الحكم والخلفاء وأصحاب النفوذ ونظر إليهم نظرة اعتزاز وإكبار.وفي نفس الغرض برز إلى الساحة المدح النبوي فكانت **المدائح النبوية**فقد حدث التحول وتغيرت وجهة المدح حين ارتبط بشخصية النبي محمد ﷺ سيد ولد آدم الصادق الأمين.وفي القرنين السادس السابع الهجريين صار المديح النبوي بالمغرب الإسلامي موضوعا مستقلا و غرضا قائما بذاته تخصص له القصائد،فنظم الشعراء مديحا حبا في النبي عليه الصلاة و السلام بإظهار أحاسيسهم و إبداء عواطفهم، فكانت نتيجة ذلك ثروة ضخمة من القصائد النبوية.ثم**الرثاء**الذييُعدّمن أقدم الأغراض الشعرية والرئيسة، لأنه صورة صادقة لعمق العلاقات الاجتماعية.وهذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين لم يختلف أو لم يخرج عما كان عليه عند المشارقة في رثاء الميت والتفجع عليه، غير أنّ المغاربة والأندلسيين بخاصة قد تفوقوا في رثاء الممالك البائدة والمدن المتساقطة تباعا في أيدي النصارى، وتلا ذلك ذكر**الغزل**فهو من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعا لأنه متصل بطبيعة الإنسان وبتجاربه الذاتية خاصة وإنّ الحب يحرك كل القلوب، وشعراء بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين قد عبروا عن أحاسيسهم تجاه المرأة كغيرهم من الشعراء، فالتفتوا لهذا الغرض ينظمون فيه، مبدعين نصوصا غزلية ضاهت في جمالها أشعار كبار الشعراء المشارقة، ومتطرقين لهذا الضرب بأنواعه ومعانيه العديدة، وبعد ذلك **الفخر**وهذا الغرض في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين السادس و السابع الهجريين نكاد نجزم أنه لم يكن موضوعا

قائما بذاته، فطالما ذُكر ضمن قصيدة غزل أو رثاء أو زهد أو وصف أو مديح، ولطالما كان في أكثره وليد صراعات نفسية و مادية ألمت بالشاعر، هذا الأخير الذي وجد في الفخر متنفسا لرد كيد الأعداء والدفاع عن النفس والقبيلة.ثم **الهجاء**في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، نجده أقل شأنا إذا ما قُرِن بالأغراض الشعرية الأخرى، و لعلّ السبب في ذلك هو تحفظ الشعراء عن الخوض فيه إلا بما تمليه الحاجة لذلك كاسترداد الكرامة و الرد على كيد الأعداء،وبرز من الأغراض **الشوق و الحنين**فهو من الموضوعات التي طرقها الشعراء قديما وحديثا، والمتتبع لهذا الضرب الشعري في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين يجده مزدهرا زاخرا بالمعاني الجياشة. **ثم الوصف**الذي هو من أقدم موضوعات الشعر العربي وأكثرها حظا من عناية الشعراء؛ ومن مواضيع الوصف التي كثرت في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين: وصف الحروب والمعارك وتسجيل وقائعها وأحداثها، ذلك أنّ هذه الفترة كانت مسرحا لأحداث سياسية كثيرة.وفي هذه الفترة ظهرت **الموشحات**التيهي لون خاص من النظم، ولدت في أحضان الطبيعة الأندلسية المترفة وتخلقت أنغامها في بيئة المغنين والمغنيات، ووجدت رواجا كبيرا في أوساط الأمراء والحكام، وكانت في حقيقتها تعبيرا عن شخصية الأندلس الفنية واستقلالها الأدبي؛ كما كانت انعكاسا لما شاع في البيئة الأندلسية من ترف وتحضر، ويعد القرنان السادس والسابع الهجريان من أزهى العصور التي ازدهرت فيها الموشحات الأندلسية.وفي الأخير عرضنا **للأزجال مفرده زجل وهو** شعر العامة اهتدوا إليه حين كان لا بد من التزام الإعراب في غالب أحوال الموشحات و لم يتيسر للعامة السير في هذا الطريق، وتجدر الإشارة إلى أن الشعر التقليدي قد سيطر على موضوعات الزجل، فتناول الزجالون أغلب الموضوعات التي تناولها الشعراء كالغزل والمدح والطبيعة والخمر، وقد تميز الزجل في هذه الفترة بتطويع موضوعين جديدين لأغراضه هما:الهجاء، والتصوف.

بينما عرضنا في الفصل الثاني للمظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري الذي عُدّ من أخصب فترات العصور الوسطى حضارة وازدهارا في شتى مناحي الحياة بدءا بالجانب العمراني ممثلا في تشييد المدن والحصون والقصور إلى الجانب الاجتماعي وما عرفته مجتمعات هذه الحقبة من عادات وتقاليد بَدَتْ جلية في مجالس الأنس والتسلية إلى الجانب الثقافي العلمي الذي بدا الاهتمام بالعلم ومظاهره دالا عليه. وقبل عرض ذلك جعلنا تقدمة عنوناها **وَقْفَة موجزة عند أهم المعالم الحضارية في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري**فقد شهد هذا القرن أعمالا معمارية بارزة ظلت باقية على مَرّ الدهور لتُعَرّف الأجيال المتعاقبة على السمو الحضاري للدول التي عاشت في هذا القرن، ومن أشهر تلك الأعمال:**توسعة جامع القرويين**الذي يُعدّ من أهمّ المساجد الجامعة في بلاد المغرب الإسلامي، ثم **المسجد الجامع بتلمسان**الذي يُعدّ الكبير في الجزائر من أجمل وأهم الأعمال الحضارية المتبقية منذ القرن السادس الهجري، ثم **الجامع الكبير بإشبيلية**الذي هو من أهم الأعمال الحضارية التي أُنجزت في القرن السادس الهجري، إضافة إلى **جامع الكتبية بمراكش**حيث يعتبر من الأعمال الحضارية البارزة في القرن السادس الهجري، وسمي بجامع الكتبية لوجود باعة الكتب الذين كانوا يروجون بضاعتهم بجانب المسجد. وهذه المساجد الأربع تدل على مستوى الرقي العمراني الذي شهدته هذه البلاد في القرن السادس الهجري.ثم ما كان من بناء **الأسوار والحصون والقلاع**فهيمن أهم الأعمال الحضارية التي عرفها القرن السادس الهجري، إذ الحاجة دعت إليها وقت ذاك فأخذوا ببنائها بعد اتصالهم بالأندلس وإدراكهم فائدة ذلك في الدفاع عن المدن. فتأسيس هذه المنشآت المعمارية والتي تمثّل بحق جانبا حضاريا في القرن السادس الهجري -لا شك- أنها كانت نتيجة للظروف المضطربة والنزاعات العسكرية التي كانت بين الفينة والأخرى، كما أنّها تعكس الجانب الاقتصادي للدول التي نشأت في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري.ومما برز من المعالم في هذه الفترة **قصور الموحدين**التيتدل على الازدهار والرقي الحضاري الذي

شهدته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري تشييد القصور والمنازل الفخمة، ولعلّ شغف الخلفاء الموحدين في هذه القرن السادس بالبناء والتعمير والتشييد كان وراء هذه الأعمال الحضارية التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في هذه الحقبة والتي أعطت صورة واضحة للحياة الحضارية في جانبها المعماري التي عرفتها البلاد في هذه الحقبة.

وفي المحور الثاني من هذا الفصل عرضنا **المدن والحصون**فتشييدها مظهر حضاري عرفته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، حيث تأسست عدة مدن في مناطق مختلفة من هذه البلاد، قامت بدورها الحضاري في دفع عجلة التقدم والازدهار بما تحويه من منشآت؛ ومن بين هذه المدن **مدينة مراكش،** أما أهم ما اشتهر من حصون **حصن شقورة** نظرا أنّ الحصون هي الأخرى مظهرا حضاريا شهدته بلاد المغرب الإسلامي، دلّ على تطور و ازدهار الجانب العسكري في هذا العصر

وفي المحور الثالث القصور فقد كان الفن المعماري أو الهندسة المعمارية من أشهر ما عُرف من نواحي التقدم الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، حيث عرفت هذه الحقبة معالم عمرانية نالت حظها من وصف الشعراء وعنايتهم الأدبية، فنوّهوا بالقصور الرائعة والبرك والنوافير والدور الفريدة والصهاريج والخمائل والحدائق الوارفة لما وجدوه فيها من تأنق وإحكام صنع، من ذلك ماكان من **وصف قصر المُلك ببجاية ووصف أبوابه وسقفه، وكذا وصف بركة القصر وبساتينه**، ثم التعريج على وصف **قصر النّجم.**

وفي المحور الرابع جاء ذكر**الرياض**التيتُعدّ من المظاهر الحضارية الطبيعية التي افتتن بها شعراء بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، فعمدوا إلى وصفها وبثّ الحياة فيها، فوصفوا منتزهاتها وأنهارها وانسياب المياه بين أشجارها وأغصانها، وقد لقيت هذه الرياض اهتماما كبيرا من قبل مجتمعات هذه الحقبة بخاصة الأندلسيين الذين وجدوا فيها متنفسا لهم إذ كانت موطن مجالسهم المختلفة فصوّروا ما فيها من مواطن الجمال والفتنة، ولم يتركوا منظرا حضاريا ساحرا إلا وصفوه وتغنّوا به في أشعارهم، وكثيرا ما ارتبطت هذه الرياض بالحضارة

العمرانية في القصور عند الأمراء والسلاطين فكانت تعد من العناصر الجمالية المكملة للصورة الإبداعية الموجودة في عمارة البناء عند الخلفاء والسلاطين، وتبع ذلك وصف **الحدائق والمتنزهات**وما يلحق بها، ثم **النواعير والدواليب** فهي ممّا يتصل بوصف الحدائق والمنتزهات، حيث انتشرت في بلاد المغرب الإسلامي بانتشار البساتين والحقول، وكذلك من المظاهر الحضارية البارزة في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، مظهر **الفوّرات والتماثيل** التي كانت تزدان بها القصور والبساتين، حيث تمجّ المياه من أفواهها في منظر بديع، ولشعراء هذه الحقبة مقطوعات كثيرة في وصفها. ولم يدع الشعراء وصف **البرك والصهاريج**لتنوع صور الوصف الشعري لوسائط المياه وأدواتها، كونها مظاهر حضارية عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، فتغنّى الشّعراء بالرياض ومصادر ريّها كالدّواليب والنّواعير التي انتشرت في الحدائق والمنتزهات، إضافة إلى الفوّارات والتماثيل التي ازدانت بها قصور الخلفاء والأمراء. ولم يهمل شعراء هذه الحقبة البرك الصناعية وصهاريج المياه فأكثروا من التنويه بملامح بنائها وتنافسوا في وصفها كونها مصدر حياة وسببا من أسباب السعادة والرفاهية من جهة، وكونها نالت اهتمام حكام هذه الحقبة من جهة أخرى.

وفي المحور الخامس ذكرنا مجالس الأنس والتسليةإذ شهدت مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري كثيرا من المجالس المتنوعة والمتعددة التي عكست الجانب الحضاري في شقه الاجتماعي لهذه البلاد، ومن هذه المجالس: مجالس العلماء والأدباء ومجالس الوعظ التي انتشرت في الأماكن العامة، إضافة إلى مجالس الأنس والتسلية فظهرت الصنائع والحرف العديدة ونافس الإنسان الطبيعة المطبوعة فشيّيد الدور والبرك والنوافير والصهاريج مدفوعا بحبه للاستجمام والرفاهية وأضحى مغرما بوسائل الترويح واللهو، فاتجه نحو مجالس الأنس والسمر، هذه الأخيرة التي تفنن شعراء بلاد المغرب الإسلامي القول فيها وأبدعوا في هذا الأمر، فوصفوا هذه المجالس باعتبارها مظهرا حضاريا وسجلوا ما

يدور فيها من فرح وسرور، فذكروا السقاة والندماء وأماكن انعقاد هذه المجالس في الحانات والرياض، كما تفننوا في وصف الخمر وآنيتها وكؤوسها باعتبارها جزءا من حياتهم المتحضرة يألفونها ويلذنوها.

فكان من ذلك افتنانهم بوصف **عشايا الأنس وجلسات اللهو والشراب**، وفي ضمن ذلك كان **وصف أواني الخمر**، **ووصف السّقاة،** وقد جرهم اللهو والترف إلى **مجالس الغناء والموسيقى** التي كان يرتادها المجان من الشعراء فكان لهم في ذلك أشعار سجلتها دواوين الأدب، من ذلك ما كان من شعر في**وصف المغنّين وآلات الطرب**، والكلام عن **فنّ الرّقص** الذي غزا تلك المجالس في ذلك الزمن.

وفي المحور السادس ذكرناالعناية بالعلم ومظاهرهحيث جاء للإشارة إلى عدم انحلال مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، بل عرفت هذه الحقبة أيضا جانبا حضاريا من نوع آخر تمثّل في الاهتمام بالعلم والدعوة إليه، وشعراء هذا القرن قد رصدوا هذا الجانب الحضاري وما يتعلق به من الحثّ على طلب العلم وتقديسه، ومدح أهله والنّصح بهم، والعناية بنتاجهم والإشادة بمجالسهم. فقد عرف جانب **الحث على طلب العلم وصحبة أهله** شعرا كثيرا لما كان من اهتمام كبير وظاهر في ذلك الزمن بالعلم من لدن الحكام والمحكومين بغية التقدم وطلبا للرفاه، ومن العناية بالعلم **الاهتمام بالكتب ووصف أوعيتها**فمن مظاهر التحضر في القرن السادس كثرة المؤلفات في مختلف العلوم، ممّا دعا حكّام هذه الفترة إلى الاعتناء بها، وجعلها من أولوياتهم، ليس في فترات السّلم فحسب بل حتى في زمن الفتن والحروب، فقد سجّل شعراء هذه الحقبة مظاهر العناية بالعلم الذي هو أساس التحضر من خلال الإشادة بالمؤلفات والنّصح بها، وهذه الكثرة تعكس لنا جانبا حضاريا في شقه العلمي والمعرفي الذي عرفته بلاد المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري. ثم **وصفأدواتالعلمومجالسه** فمن مظاهر الاعتناء بالعلم، الاهتمام بأدواته ووسائله، إذ تُعدّ مظاهر حضارية اعتنى بها شعراء القرن السادس الهجري ونظموا لأجلها شعرا، ومن مظاهرهاأيضا

الاهتمام بمجالسه المختلفة، فقد راجت هذه الأخيرة في بلاد المغرب الإسلامي رواجا كان الخلفاء والأمراء أصحاب الفضل فيه بعد الله عزّ وجلّ، وأكثر الدّاعين إليه لسنّهم تلك الشرعة وتشجيعهم النّاس على الاجتماع لذلك، ومدارسة مسائل العلم والأدب وبحث نثره ونقد شعره، وقد كانت هذه المجالس محلّ وفادة الأدباء والعلماء لعرض ثمرات أفكارهم، وإلقاء ما تجود به قرائحهم، وممّا لاشكّ فيه أنّ هذه المجالس كونها تمثل مظهرا حضاريا، قد نالت حظا من أوصاف شعراء هذه الحقبة.

وأمّا **الفصل الثالث** فتحدثنا فيه عن **المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري** في جوانب مختلفة من حياتهم بدءا بالجانب الديني ممثلا في شعر المولديات وارتباطه بظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي إلى الجانب العسكري، وما تضمّنه من وصف الحرب ومعداتها إلى الجانب العمراني مجسدا في تشييد الحمامات والمساجد وختمناه بالجانب الاجتماعي عن طريق عرض بعض العادات والتقاليد التي سجلها شعراء هذه الحقبة.

أوّلا: الموّلدياتنسبة إلى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كان للاحتفال بالمولد النبوي ببلاد المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري مظاهر متنوعة وعادات وتقاليد تختلف من دولة لأخرى، وبلغ الاحتفال بالمولد النبوي شأوا بعيدا في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، وصار الملوك يحتفلون في الضيع والدعوة إلى إنشاد الشعر،فكان لشيوع ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب الإسلامي أثره المباشر في ظهور **القصيدة المولدية** ، فكانت نتاجا فكريا دالا على جانب من جوانب التحضّر في هذا العصر.

وأمّا عن **بنية القصيدة المولدية في القرن السابع الهجري**فنشير إلى أنّ شعر المولديات يختلف عن المديح النبوي اختلافا ظاهرا، فالمديح لا يختص بزمن محدد وإنّما هو دائم طوال السنة،

لكن قصائد المولديات محددة بزمن ووقت ذكرى ميلاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كما وتختلف قصائد المولديات عن غيرها من الشعر بتعدد الأغراض والمواضيع خلافا للشعر العربي القديم، فهي ليست من النوع البسيط ذي الغرض الواحد.

والدارس لقصائد المولديات في القرن السابع الهجري، يجد بداياتها تتشكل في صور وألوان متعددة، فقد يبدأ الشعراء مولدياتهم بالإقرار بأنّ فضائل النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن حصرها وقد يبدؤونها بالحديث عن المعجزات أو بذكر بعض الأماكن المقدسة التي شهدت مولد النّبي عليه الصلاة والسلام ومبعثه، وضمّت جسده الشريف بعد موته، وكلّ هذه المقدمات على اختلاف مضامينها تُلائم غرض المديح النّبوي لأنّها في مجملها تُهيء القارئ لسماع الغرض الأساس وتضعه في جو القصيدة المولدية من أول بيت فيها. ثم ينتقل الشاعر إلى **التخلّص**حيث حرص الشعراء كل الحرص على تحسين تخلصاتهم وانتقالاتهم من البدايات إلى الموضوع الرئيس الذي يقصدون إليه، ليكون بين المقدمة والموضوع ارتباط وثيق، وكان هذا رأي النقاد الذين نوّهوا بضرورة عناية الشاعر بالانتقال من مقدمة القصيدة إلى الغرض الأساس**فالغرض الأساس**يُعدّ من العناصر الأساسية والمهمّة في بناء القصيدة المولدية والتي يتضمنها الغرض الرئيس ويأتي بعد مدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر صفاته، تعداد معجزاته، ثم تكون **خاتمة قصيدة المديح النبوي**التي نالت من عناية النقاد ما يكاد يشابه عنايتهم واهتمامهم بالافتتاح، فعدوها قاعدة القصيدة وألحو في تحسينها فجاءت خواتم قصائدهم النّبوية ذات أشكال متنوعة، واختاروا لها ما يناسبها من الأساليب، فألبسوها حللا بيانية أضفت عليها قيما جمالية.

ثانيا: وصف الحرب ومعدّاتها إذ إنّ وصف الحرب ومعدّاتها من الموضوعات الشعرية التي شاعت في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، فقد كانت الحياة في هذا العصر صراعا متصلا مع الروم وجهادا مستميتا ولمّا كان الشعر يمثل صورة أمة من الأمم

باعتباره من أهم جوانب ثقافتها التي تشكل هويتها الحضارية، فقد واكب هذه الحروب والمعارك، فأكثر الشعراء من وصفها حيث كانوا يسيرون في ركاب الخلفاء ويرافقونهم في الغزوات، فسجلوا بشعرهم تلك الوقائع والأحداث وتغنوا بانتصارات المسلمين.ففي**وصف المعارك**تكلم الشعراء عن الانتصارات والهزائم وجملة الوقائع الدائرة آنذاك مع وصف للجنود، إلى جانب**وصف الأسلحة**التي هي مظهر من مظاهر القوة المادية لدى الجيوش، لذا اهتم الشعراء بوصفها في معرض حديثهم عن المعارك والحروب. ويتبع ذلك كله الكلام عن **الاحتفالات العسكرية:** إذ تُعدّ مظهرا حضاريا شهدته مدن المغرب الإسلامي ويلحق بها احتفالات النّصر بمعركة من المعارك، وقد كانت تدوم لأيام عديدة، ينشد فيها الشعراء قصائدهم مسجلين هذا المظهر الحضاري.

ثالثا: الحمّامات تُعدّ الحمّامات مظهرا حضاريا عمرانيا عرف انتشارا واسعا في بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري، وكان له حظ من نصوص شعراء القرن السابع الهجري، إذ اهتموا بوصفه من جوانب عديدة محاولين الترويج له بين أبناء مجتمعاتهم خاصتهم وعامتهم، ممّا شكل عامل جذب واستقطاب للشعراء فوصفوا ما وقعت عليه عيونهم داخلها، وقد كثرت في وصفها كل ألوان البيان من استعارات وتشبيهات باعتماد الطبيعة الحية في تجسيد المعاني وتشخيصها، كما كشفت بعض المقاطع عن الاتجاه النقدي للحياة الاجتماعية.

رابعا: المساجد تُعدّ المساجد من أهم عناصر تخطيط المدن الإسلامية، وقد كانت تُشيّد في قلب التّجمع العمراني لتكون مركز إشعاع ورمزا للسلطة المركزية، ولم يقتصر دورها على جانب العبادات فقط، بل كان لها دور في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية. وقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري اهتماما بالغا من ولاة الأمر ببناء المساجد والاعتناء بها وإدخال التحسينات عليها فكانت بذلك مظهرا حضاريا دينيا وعمرانيا نال اهتمام شعراء هذه الحقبة.

خامسا: العادات والتقاليد: عرف سكان المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري عادات وتقاليد منها ما هو موروث عن الأجيال السابقة، ومنها ما هو مستحدث في هذه الحقبة نتيجة لظروف سياسية ودينية مرّت بها تلك البلاد، ونحن في هذا المبحث سنعرض بعضا ممّا سجله شعراء تلك الحقبة في ميادين مختلفة؛ من ذلك **الزواج**حيث اهتم به المجتمع المغاربي وشاركهم في ذلك الشعراء حيث تكلموا عن المهور وغلائها والنساء وكيفية اختيار الأزواج وما يلحق ذلك من **زينة المرأة**حيث اهتمت المرأة في هذه الحقبة بمظهرها الجمالي، فاقتنت كل ما أتيح لها من وسائل الزينة قصد تجمّلها وإظهار محاسنها، ممّا دعا الشعراء إلى وصفه كونه مظهرا جماليا حضاريا وقتذاك.ومن التقاليد **صنع الحلويات**إذ يُعدّ صنع الحلويات من العادات الهامة التي اعتنت بها مجتمعات المغرب الإسلامي، وكثيرا ما ارتبط صنع الحلويات بالأعياد والمناسبات المختلفة، فمجتمعات المغرب الإسلامي إبّان القرن السابع الهجري قد عرفت أشكالا عديدة من الحلوى تصنعها كل الطبقات، وبخاصة المجبنات التي كانت تباع في الأسواق والطرقات ممّا دعا الشعراء إلى تسجيل هذه العادة كونها مظهرا حضاريا عرف آنذاك.ومن عادات أهل هذا العصر **السياحة ورحلات الصيد:** فقد دعا الشعراء في القرن السابع الهجري إلى التنقل في مختلف الأقطار، فمن يسافر يرى الجديد الممتع فتسعد نفسه ويزول همّه، ومن عادات مجتمعات هذه الفترة الخروج لرحلات الصيد التي كانت تقام في المنتزهات والرياض وعلى الأنهار، حيث وصفها الشعراء. ومن تقاليدهم **التعازي:** فقد نظم الشعراء أبياتا في التعزية تقال لأهل الميت يحثونهم فيها على الصبر والرضى بالقضاء والقدر، تهدئة لخواطرهم وتسلية للمصاب، **وقد كان** لشعر التعازي محاور عديدة ولكن أغلبها يميل إلى حثّ أهل الفقيد على الصّبر ودعوتهم إلى الإيمان بقضاء الله وقدره، كما أنّ التفاف الأهل والأصدقاء حول عائلة المصاب كان يخفف من وطأة الكرب، وهي عادة عند مجتمعات المغرب الإسلامي تدل على مدى ترابطهم وتماسكهم من جميع الجوانب عند حلول النكبات.

ثمّ ختمنا البحث بخلاصة تضمنت أهم النتائج التي حاولنا الوصول إليها، وذيّلنا ذلك كله بفهارس للآيات والأحاديث النّبوية وكذا للشعر الوارد في هذه الرسالة ثمّ قائمة للمصادر والمراجع مع فهرس عام للموضوعات.

Introduction :

The poetic movement knew in the islamic maghreb in the 6th and 7th centuries great activity hncluded differnt poetic purposes, accompained with abundance in production despite the loss of poems collections. That return to poet sensivity witch interaction with different conditions surround them. So the intellectual, social and economic life know great evolution consequently the security situation and political stability more times. Governor encouragement for intellectuals and writers that shade the civilizied aspect ; how the islamic maghreb literary tradition is not devoid of civilizied appearances witness to civilizied evolution and prosperety in differnt domains that maghreb states knew.

When the literature-specialy poetry- witness and register these material or abstract civilizied appearances, and a scene for what we proved ; the topic of this research is intiteled (civilizied appearances of islamic maghreb poetry from 6th to 7th century of higire), for the sake of civilizied appearances like that seemed in islamic maghreb poetry in this period. my lean to the literature generaly and poetry specialy drive me to choose this topic increase his seriosity for the sake of his interest to establish islamic maghreb poetry in a period. In one aspect it contain interest treasure of poems related by civilizied domain that is necessary to appeared, standing on his subject, beauty of compose, clearness of civilism appearances within, in other aspect a topic that his incident turned in the two centuries 6th and 7th of higire. This period considered primary to study and research that is known as hollow of cultural and civilizied activity in this state and qualitative transfert of political stability in many times ; that reflect on the social, economic and scientific life in it, then this topic aim to rise status of islamic maghreb poets with demonstration of their amount and literary and social place about their literary tradition. For puting this topic is worthy of wondering the relationship between poetry and civilization in this environment and this period, the limit of poet accompaniment

to civilizied appearances in his age, his capability to draw and express them with regard to poetry as civilizied document for this temporel stage, and additionaly exposing the prominent aspects of transfert that social, intellectual and civilizied life knew, and the influence of literature with these appearances.

To answering all these quetions and after obviousness of ambiguity, we draw a plan contain introduction, preface, three chapters and conclusion.

In the preface we bring up the concept of civilization within his identification linguistic and conceptual, mentioned some diferent and approch views about concept where impossible to made identification exactly ; than we move to clarify some diferences between it and civilism and culture. So talking about islamic maghreb is worty to expose a historic idea about it in this period ; in political, social, intellectual and cultural aspect for know a reality of environment where poets of this period live in. That help to know the society, shapes of thougth, and his civilizied production.

In the first chapter we inquire about poetry purposes in islamic maghreb during the two centuries 6th and 7th of higire, when expose according to poets ; poetic purposes knew famous in this period, we exampled with poetic lines abd explain it for showing meaning, uncover evolution, and result distinctions in this period.

However in the second chapter we expose civilizied appearances of islamic maghreb poetry during 6th century of higire that considered as fertilize civilization and prosperety in the middle age in many sides of life, at first urban aspect represented in town, forts, and castles construction, the social aspect and what the societies knew in this period, traditions and custoks showed clean in sociability and distraction assembly, so the scientific cultural aspect where the interest with science and his appearances indicated it.

In the third chapter we talked about civilizied appearances of islamic maghreb poetry during 7th century of higire in diferent aspects of their life, at first in religeous aspect represented in mawlidiyat poetry related to prophet birthday celebration, the military aspect like description of war and his articles, the urban aspect represented in mosques and bath construction and we conclude by the social aspect in show some traditions and customs registered by the poets in this epoch.

After we conclude the research by abstract contained important results that we aim arrive, and we added index contain maghreb islamic map in this epoch, and mater tables for coranic verses, prophetic speech, and poems dispersed in the memory and a list of sources and references, genral index.

We used in this reseqrch the descriptive method standing on analyse to discover civilizied appearances and know if poetry company it in hi sage, and we used historical method to talk a main historical events important.

We depend in this research on a group of sources and references : Nafh Attib of Makarri, Zad El Moussafir of Attoujbi, Adhail wa Attaqmila of Ibn Abdulmalik Almorrakuchi, Adhkhira fi Mahasini aljazeera of Ibn Bassam chantarini, Islamic civilization in Maghreb and Andalous –morabitines and mouahidites age- of Hassan Ali Hassan, Poetic speech for arabic maghreb legists, and other compositions, and we mention the publication of the laboratory of literary and critic studies and his standardin Arabic maghreb, in Tlemcen university, and what contain his laboratory as compositions and collections of poems that solid maghreb literature and spread his virtues.

There is many scientific study difficulties and obstacles, the important what we face : knowledge of all the civilizied appearancesin the two centuries 6th and 7th of higire, why its diferent in multi-

domainn that is impossible to gathering in such study. Than the specialise study in this type is few or as lack, how some aspects not touching even by short articles in magazines or web sites. Additionaly not adjustment of poems, that complicate their explanations what signify the maghreb islamic tradition need great serve, great importance, great efforts to expose and show it, within manuscript inquiry, assembly of mater and analyse it.

Conclusion :

This trip with civilizied appearances in islamic maghreb during the two centuries 6th and 7th, permit to pull out following consequences :

- the civilization is live in urban, in front of bedouin, this within linguistic definitions, so idiomaticaly the civilization of any society or city is the compilation ofthis social life appearances represented in his material and abstract tradition.

- the civilization is an expression to all human achievement ; intellectualy, passionaly and urban, to establish him and developp his society, and contribute to humanity course and contain diferent human production, and civilization express the limit of contribution of peoples and nations in human societies developp,ent.

- the islamic maghreb in the two centuries know the establishment of states in his deferent regions, that the consequences multiplicate, and the culture resources diversify, constituting a strong civilizied build that stay till nowdays.

- the islamic maghreb know in this epoch a great scientific movment in diferent domains, where appear eminent scientists having rank in many sciences.

- the poetry know great prosperity in these centuries and a group of famous literary glittering in high, that contribute in the literary renaissance in this state, the poetry accompany events in many aspects and express its in such figure influenced by life latest news secreting by daily life, speak in his environment language and explore topics from daily life.

- the state of islamic maghreb achieve in this period a great evolution and construction style, specialy mouahidites, that make for themselves a special type distinguish them and reflect their personality distinct in simplicity, strenghtem, goodness and rapidity in made.

- the poets of period figure diferent urban civilizied appearances, specialy castles, so turn to califs passionate to build and constructthat they call to encourage poets to singing with these buildings monuments that signify to the good of made and exactitude in build.

- the poetry of urban in this epoch can reflect a distinct type to these signposts that stay witness civilization during many centuries.

- the poetry related to describe urban civilization don’t depend purpose but it used description to arrive for an other purpose represented in prose the governor owner of construct like the act of Ibn Hamdis.

- the poems dealing to building art expose civilizied craft known in this time, such : sculpture on wood, status sculpture, and other craft and diferent professions.

- the pots sing gardens and his source to irrigate like wheels and waterwheels that spread in gardens and grounds, they arrive on its beauty, and fountains and statues that califs and princes castles dress up, they sing artificial pool and ranks, they much mention their caracters of build and compete to describe it as life source and cause of happiness and welfare at first, in other way its take governor interest.

- on islamic maghreb many towns established in this epoch and took his civilizied place what it contribute to evoluate the state, the difficult conditions and military conflicts cause building of forts, and walls in diferent regions of this state.

- the magnific urban signposts and beauty of islamic maghreb and welfare in life surround societies in this epoch, have great influence to go to sociability and amusing assembly, that poets specialised to describe it, so they register all what can like enjoy, and mentioned butlers and intimates, the places to close, and they describe wine, vessels as part of their civilizied life in this time.

- the poets of this period glorify science with learning and accompany scientists, pride his assemble, concern its appearances, interest to tools and means, because is essential element of civilization, and important in evolution and prosperity.

- the mawlidiyat poetry is a civilizied appearance spread in the 7th of higire specialy, duty to prophetic birthday celebration that poets made poems in prophetic pride in this occasion, the mawlidiyat distinguish with diferent purposes and subject ; where the poet transfert from introduction in his diferent kinds to liberation and make it separate between introduction and essential purpose, this last even start by prophet distinctins, favors, virtues, rank, and miracles, and finish the poem in conclusion with many subject, demand mediation from prophet prayer and peace upon him, longing to regard him, talk about jugement day, invoke for calif, generally to pray on prophet, so the mawlidiyat miss subject unification, so it seem composite distinguish by number of lines conserving the form and heavy of arbic poem.

- the poetry accompany war and battle known by the states of this period and it register realities and invasions, triumphs and defeats, than it observe appearances of material force within describe diferent arms, soldiers parade in military ceremony, so it form additionally of historical sources, interest civilizied figure document benifit to searchers in history of islamic maghreb and his literature.

- the poetry observe great spread of baths what signify interest of the societies of era to clearness, specialy andalous, but the role of poetry to describe this civilizied appearance not only for the urban aspect but poets express all their ideas and senses alternate between pleasure for this civilizied monument and some times anger for what poet meet in it as bad treatment.

- the poetry talked about mosques not arrive to level of what califs and princes contrive in his building, and what compense to, but poetry

come from poets in case of regret and distress to this religeous monument after downfall of islamic states.

- the poetry in this period figure assembly of traditions and social customs known society in islamic maghreb, and practicing in style accompained his civilizied evolution.

- the poetry in islamic maghreb express the language of period and civilization, so it is historical register for what events turn in diferent domains of life.

- the period of political truce in islamic maghreb, the most comfortable period to civilization prosper and itellectual evolution, when potentiel is abundant, and available conditions there was a great champ to evolution and prosperity : intellectualy and in civilization.